المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

چان چاك روسو

ميراث الترجمة

أحلام يقظة جوّال مُنفرد

ترجمة وتعليق: ثريا توفيق

مراجعة: صالح جودت

الطبعة الثانية



چان چاك روسو

أحلام يقظة جوّال مُنفرد

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب چان چاك روسو الجولة العاشرة من "أحلام يقظة جوال منفرد"، ولم يقدر له أن يكملها، كان ذلك في الثاني عشر من أبريل عام 1778 في يوم "عيد الفصح المزهر"، أى قبل وفاته بما يقل عن ثلاثة شهور؛ إذ إنه قضى في شهر يوليو من العام نفسه.

هذه الجولات إذن هي مؤلفه الأخير، وآخر ما سجل من خواطر وخلجات سجلها ابتداء من ربيع عام 1776.

أحلام يقظة جوال منفرد

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ٩٤٥/ ٢
- أحلام يقظة جوال منفرد
- چان چاك روسو
- ثريا توفيق
- صالح جودت
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة

Les Rêveries du Promeneur

Par: Jean - Jacques Rousseau

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

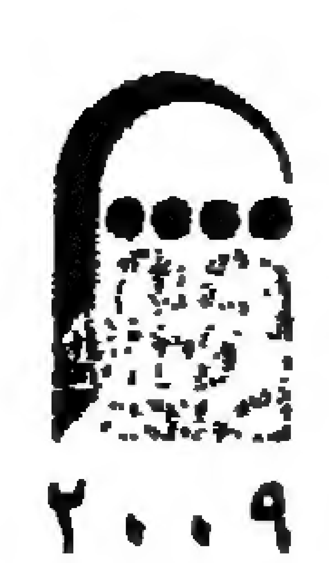
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

أحلام يقظة جوَّال منفرد

تأليف: چان چاك روسو

ترجمة: ثريا توفيـــق

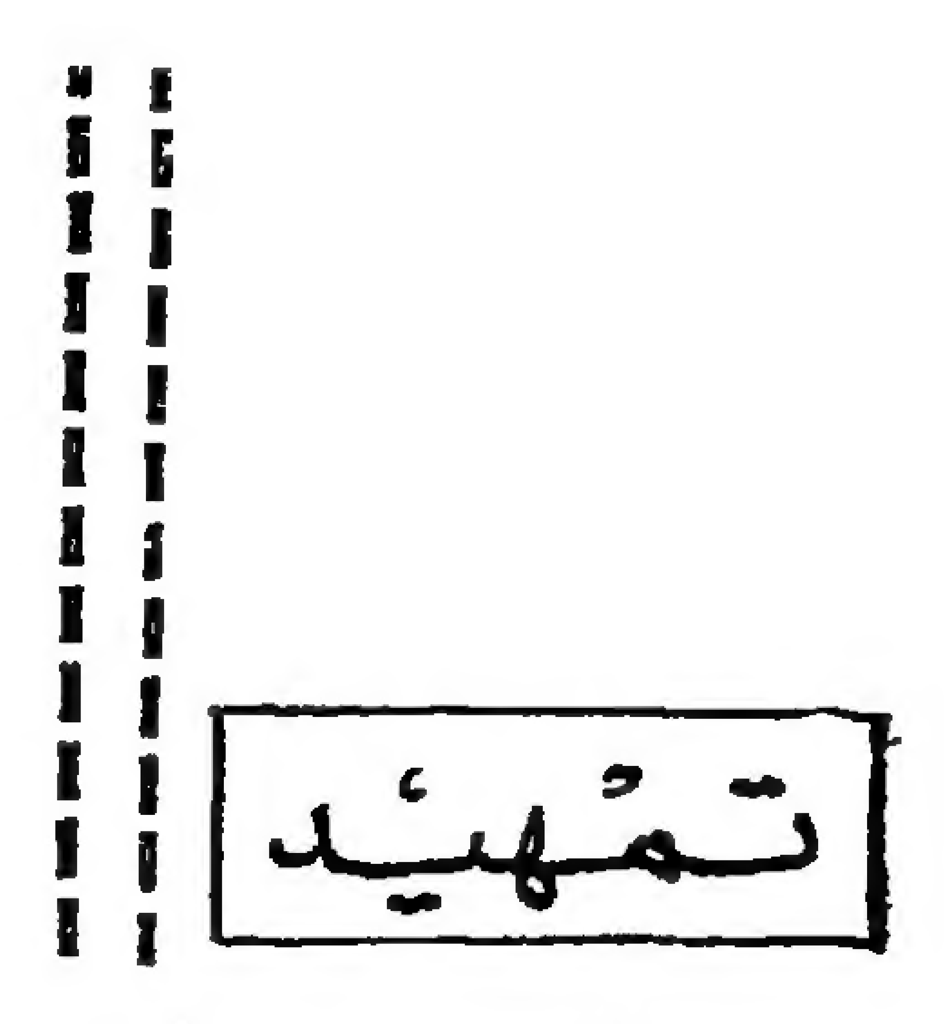
مراجعة: صالح جودت



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١١٦٥٣
الترقيم الدولي: 1 - 389 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.



يشير «جورج سارتون» (١) George Sarton الى انه « مما أفسد فهم العلم القديم كثيرا من الاحيان ظاهرتان من الاهمال الذى لا يمكن التسامح فيه: أما الظاهرة الأولى: فتتعلق باهمال العلم الشرقى فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدآ فى بلاد الاغريق ، فان « المعجزة اليونانية » سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم ، والعلم اليونانى كان احياء أكثر منه اختراعا . والظاهرة الثانية اهمال الاطـــار الجغرافى الذى نشأ فيه العلم ، لا الشرقى فحسب ، بل اليونانى ذاته كذلك وكفانا سوءا اننا أخفينا الاصول الشرقية التى لم يكن التقدم الهلينى مستطاعا بدونها » .

والواقع أن « سارتون » لم يحد عن جادة الصواب ذلك لان مشعل الحضارة فى الشرق الادنى القديم كان يرفعه ساعدان : بلاد مابين النهرين من يمين ومصر من يسار ثم معبر فى الوسط .. هو سورية ازدوجت فيه الحضارتان وامتزجتا فاشعتا على العالم القديم دهرا طويلا حتى أذن الله أن تنتقل الشعلة الى يد اليونان الذين نقلوها بدورهم الى أوربا ..

وقصة العلم ـ اذن ـ قصة واحدة طويلة لانستطيع أن ندرك فصولها الاخيرة ما لم نتفهم تماما المراحل التى مرت بها منذ البداية فنستوعبها ونتابع تطورها . وهى ليست قاصرة على قطر من الاقطار أو بلد من البلدان بل هى مشاع للانسانية قاطبة تنتقل بين شعوبها بوساطة الحروب حينا وعن طريق الهجرات والارتحال أو التجارة أحيانا أخرى ومن ثم كان « نقل العلوم على هذا الوجه وترجمتها من لغة الى لغة الوسيلة المشتركة دائما الناجحة أبدا » (٢). وقد شهد تاريخنا الثقافى ثلاث موجات من الترجمة

---

(١) راجع « تاريخ العلم » الجزء الاول ـ التمهيد ص ٢٠ و ٢١ ترجمة الاستاذ محمد خلف الله أحمد وآخرين .

(٢) تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ص ٥ : الدكتور جمال الدين الشيال . .

الى العربية اولاها فى العصر العباسى .. وثانيتها فى القرن الماضى وآخرها وهى التى نخوض غمارها اليوم .

أما الأولى (فى العصر العباسى) فقد جاءت على دفعتين متلاحقتين، أولاهما : قبل عصر المأمون وكانت تتضمن مجهودات فردية ، وثانيتهما : من عصر المأمون وخلفائه وقد تمت الترجمة خلال هـــذه المرحلة تحت رعاية الدولة عن اليونانية والسريانية والفارسية ، وكان ما نقل عن الاخيرتين مترجمة أصلا عن اليونانية والسنسكريتية (الهندية) ـ كان معظم ماتمت ترجمته علم وفلسفة ، ولم يظفر الادب الا بقسط ضئيل لعل أبرز مافيه كتاب «كليلة ودمنة» الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية (وهذه بدورها عن السنسكريتية) ولعل السر فى أن حركة الترجمة لم تبدأ قبل العصر العباسى ـ بصورة واضحة على الاقل ـ انه حين بدأ الاســـلام ينتشر فى أنحاء العالم المعروف فى القرن السابع الميلادى بدأ العرب يتزاوجون مع الشعوب جميعا جنسا ولغة وحضارة ولم تحــدد معــالم العصر الذهبى للحضارة الاسلامية الا فى عنفوان الدولة العباسية حين أقبل العلماء على الترجمة عن اللغات الاجنبية(١) وعند هذه المرحلة بدأت معالم الحضارة الاسلامية تتضح وبدأت شخصيتها تبرز فنشأت علوم اسلامية نتيجة لذلك أضافت للعلم المعروف فى هذه المرحلة الشيء الكثير وثبتت من دعائم ما كان موجودا منه فعلا أو عدلت فيه طبقا لمقتضيات الظروف.. وعلى أثر ذلك أخذ العلم الاسلامى ـ بفضل بروز المسلمين على العالم ـ يمد أشعته فى كل الآفاق حتى نهلت منه أوربا فكان مبعث نهضتها .. وأما وسيلة ذلك مرة أخرى فكانت الترجمة عن العربية ذلك لان مؤلفات المسلمين فى مختلف العلوم ترجمت فى هذه المرحلة الى اللاتينية بخاصة (وهى لغة العلم فى أوربا اذ ذاك) ، بل ودرست كتب العرب فى جامعـــات أوربا واعترف بها كمراجع علمية لها قدرها .. هذا الى أن بعض علمـــاء العرب كانوا يقومون بالتدريس فعلا فى بعض هـــذه الجامعات وبخاصة فى ايطاليا ـ وبرزت الاندلس بعلمائها قبيل هذه المرحلة وخلالها فظهر بها الكثيرون من العلماء والمترجمين والناقلين الذين ترجموا من العربية الى مختلف اللغات الاوربية وبخاصة اللاتينية كذلك .

وأما مصر فقد كان لها شأن آخر .. ذلك أنها كانت تمر ـ وبخاصة فى أعقاب الفتح العثمـــانى ـ بمرحلة تدعو الى الأسى فضعفت الحركة العلمية ـ أو خمدت ـ ويرجع ذلك الى أن القوة العثمانية « حالت بلا شك

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ١٤٧ ـ ١٦٢ .

دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الاجنبية عموما وبالحضارة الاوربية خصوصا » (١) لا عن قصد بل لان الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الاعيـاء لم يكن الحكم العثمانى قادرا على أن يزيله عنهـا .فالعثمانيون كانوا قوما يأخذون ولا يعطون .. وكان تحـول التجارة الى رأس الرجاء الصالح مما أضعف الصلة بين مصر وأوربا فى هذه المرحلة اذ لم يعد يتردد عليها الا قلة من التجار همهم الاكبر كسب المال .. وأما نقل العلوم فقد توقف نهائيا .. وقد دعا هذا كله الى أن يسود الجهل جميع نواحى الحياة فلم يبق سوى الازهر يقوم على رعاية الدين ومايتصل به من علوم .. وهى ضئيلة قليلة بالغة التأخر مختلفة عن نظائرها فى أوروبا .. بل أخذت تسيطر الخرافات على العقول حتى أصبح الايمـان بالمعجزات يقوم عند الشعب — بل وعند العلماء مقام الدين ..

وجاءت الحملة الفرنسـية الى مصر وضاقت الدولة العثمانية بهذا الأمر وانزعج المماليك فقاوموا مقـاومة المستيئس .. ولكنهم غلبوا على امرهم .. ثم تدخلت انجلترا حين عز عليها أن تترك مصر للفرنسيين لقمة سائغة .. وأما الشعب فقد تحرك كذلك فثـار على الحكام الجدد ممن لا يرعون حرمة الدين ويمعنون فى ارتكاب المساوى والشرور .. وقاوم الفرنسيون مدى ثلاث سـنوات ثم اضطروا للانسحاب . ولكن هـذه السنوات الثلاث كانت بالغة الأثر فى حياة مصر :

صحبت الحملة مجموعة من العلماء توافرت على دراسة مصر وكانت ثمرة هذه الدراسة كتابها المشهور Description de l'Egypte واستطاعوا أن يجذبوا اليهم بعض شيوخ الازهر ويطلعوهم على جانب من علومهم وبحوثهم وأدواتهم وآلاتهم ثم عقدت بعض أواصر الصـداقة بين بعضهم وبين بعض المستشرقين من علماء الحملة ومن أشهرهم الشيخ العطار الذى كان « من أكبر علماء مصر الممتازين والذى لم يكن تضلعه فى العلوم الدينية كتضلعه فى الدراسات الادبية » (٢) والذى قال عنه على باشا مبارك (٣) « واتصل بناس من الفرنساوية وكان يستفيد منهم الفنـون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية » وهو صاحب الفضل على تلميذه رفاعة الطهطاوى

---

(١) دكتور جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ص ١٣٠ نقلا عن مقدمة كتاب « الشرق الاسلامى فى العصر الحديث » للدكتور حسين مؤنس وهى المقدمة التى كتبها الاستاذ محمد شفيق غربال .

(٢) Lane: The Manners and Customs of the Modern Egyptians, P. 22

(٣) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٣٨ .

زعيم النهضة العلمية الحديثة .. وهو الذى قدمه لمحمد على ليكون امام البعثة المصرية الى فرنسا ثم هو الذى أشار عليه أن يسجل مشاهداته فى هذه البعثة التى أخرجها رفاعة فيما بعد فى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ٠

كانت الحملة الفرنسية اذن ـ برغم قصر أمدها ـ نقطة تحول فى الحياة المصرية وكانت تحمل معها مطبعة هى « المطبعة العربية » أو «مطبعة جيش الشرق » أو «مطبعة الجيش البحرى» ـ كما كانت تسمى وهى فى طريقها الى مصر ـ وبدأت عملها والحملة تشق طريقها الى مصر بطبع منشور نابليون المشهور .. بالعربية .. وسميت هذه المطبعة فيما بعد بالمطبعة الأهلية وكان مقرها الاول دار عثمان بك الأشقر بالازبكية ثم نقلت الى الجيزة فالقلعة وأخذها الفرنسيون معهم عند ارتحالهم وحلت محلها فى عهد محمد على مطبعة عربية أخرى فى بولاق ٠

كانت الترجمة فى خلال الحملة أمرا ضروريا لضرورة التفاهم بين رجالها وبين المسئولين من قادة الشعب ورجال الديوان ٠ وكان المترجمون من المالطيين أو المغاربة أو السوريين كما تعلم بعض شبان الاقباط الفرنسية وصحبوا الحملة فى عودتها ومن بينهم الياس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى (١) ٠

وكان من رجال الحملة متخصصون فى الترجمة وكانت مكتبة المجمع عامرة بآلاف الكتب ومن بينها كثير من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم وقد طبعت بمطبعة الحملة مجموعة من الكتيبات القليلة المترجمة هى « وصايا لقمان الحكيم » وقد طبعت بالعربية ومعها ترجمة بالفرنسية ثم « محضر محاكمة سليمان الحلبى » وكذا « أجرومية اللغة العامية » ورسالة فى مرض الجدرى لكبير أطباء الحملة وترجمة الأب « رفائيل زاخور » وقد طبعت كذلك بالفرنسية والعربية ٠

وابتداء من عام ١٨٠٥ بدأت مصر تمر بمرحلة كانت ثمرة اليقظة الجديدة ـ وتمثل الموجة الثانية ـ فأنشئت المدارس ودعى المتخصصون لنشر العلم الاوربى كما أنشئت المدارس الفنية وبدىء فى ترجمة الكتب المدرسية من الايطالية والفرنسية ٠ ثم أنشئت مدرسة الألسن وعين رفاعة الطهطاوى أول ناظر لها وكان أول أهدافها القيام بأعمال الترجمة وتخريج مترجمين ليعملوا فى ادارة الحكومة ثم أوفدت البعثات الى فرنسا بخاصة

---

(١) الشيال : المرجع السابق ص ٦٣ ٠

ليعود منها المبعوثون ويتوافروا على ترجمة خيرة الانتاج العلمى هناك الى العربية ٠٠ وفى عهد عباس الاول حدثت نكسة فأغلقت مدارس الطب والهندسة واللغات كما ألغى مكتب الترجمة ٠٠ وبعد موته تابعه خلفه سعيد فى فكرته من ناحية « أن الشعب الجاهل يسهل حكمه » فألغى كذلك وزارة المعارف ومدرسة الهندسة ثم مدرسة الطب بعد ذلك بقليل لفترة ما ٠٠٠ ولم يكن ليشجع حركة الترجمة ٠٠٠ ودفعته الظروف بعد ذلك الى اعادة تعيين رفاعة الطهطاوى مديرا لقسم الترجمة بوزارة المعارف ثم لم تعد مدرسة الألسن مستقلة فأدمجت مع مدرسة الادارة التى عرفت فيما بعد باسم مدرسة الحقوق ٠٠ وكانت اللغة الفرنسية فى هذه المرحلة هى اللغة الاوربية التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية والخاصة وكانت ترجمة الكتب العلمية مهمة عاجلة فأنشىء مكتب للترجمة ووضع قاموس للمصطلحات الفنية بالعربية والفرنسية والانجليزية ٠٠ وأنشىء مكتب للترجمة بوزارة الحربية مستهدفا ترجمة القوانين العسكرية الفرنسية كما تمت ترجمة مجموعة كبيرة من كتب الطب ٠٠ ولعبت مدارس الارساليات الدينية الاجنبية دورا هاما فى حركة الترجمة فى مصر وكان خريجوها يعملون فى الشركات والبنوك والادارات الحكومية ٠٠

وقد بلغ عدد الاجانب المقيمين فى مصر عام ١٨٧٩ مائة ألف مما دعا الى انشاء مكتب للاوربيين عين به عدد من المترجمين المصريين ٠٠ وأسهمت المحاكم المختلطة فى حركة الترجمة مما دعا الى ترجمة القانون المدنى والتجارى وقوانين الاجراءات والعقوبات ٠٠ وترجم رفاعة الطهطاوى ـ قطب رحى هذه المرحلة ـ كتابا فى الجغرافيا وآخر فى الرحلات وثالثا فى القانون التجارى الفرنسى وغيرها ٠ وترجم غيره كتبا فى الرياضة والشئون العسكرية أو مختلف العلوم كالكيمياء والطبيعة والحيوان والتاريخ ثم الروايات والمسرحيات ٠٠ وترجمت قصص لافونتين La Fontaine الى الشعر العربى كما ترجمت رواية بول وفرجينى لسان بيير Paul et Virginie de Bernardin de Saint-Pierre وروايات لموليير Molière وروايات راسين Racine ولو أن ذلك كان تعريبا أكثر منه ترجمة دقيقة ٠

ويلاحظ أنه بعد عام ١٨٨٠ سارت حركة الترجمة بخطى واسعة فتناولت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والادبية والعلمية ٠

وقبل الاحتلال الانجليزى كان التعليم فى المدارس بالعربية وكانت مدرسة الألسن مفتوحة الابواب لمن يريد اتقان اللغات الاجنبية ٠٠ وفى ظل الاحتلال أغلقت مدرسة الالسن وتوقف ارسال البعثات الى الخارج وتحول التعليم الى تعليم باللغتين الانجليزية أو الفرنسية وقل الاهتمام

بالعربية ثم نجح الانجليز فى الغاء اللغة الفرنسية كلغة رسمية للتعليم فى المدارس الابتدائية .. وان ظلت كذلك فى مدارس الارســـاليات الدينية الاجنبية .

وظل الأمر كذلك حتى انكشفت الغمة قليلا فعادت اللغة العربية الى مكانها من التعليم كما ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى مجموعة من الأدباء دأبت على النقــل من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية فترجمت مئات الكتب فى مختلف العلوم والفنـــون والآداب مما تتطلبه حالة الدراسة بالمدارس أولا ، ومما تحتاجه الثقافة الشعبية ثانيا . وبرز فى هذا المضمار جماعة ممن أتيح لهم حظ السفر الى الخارج فعادوا يقدمون للبلاد ثمرات دراساتهم .

وكان انشاء الجامعة المصرية عـــام ١٩٢٥ خطوة جديدة فى هــذا المضمار فدأب أساتذتها على محاولة القاء دروسهم باللغة العربية برغم ما لقوا فى سبيل ذلك من عنت حتى أصبحت الكليـات النظرية تقـــوم الدراسة فيها أساسا بلغة البلاد .

وبقيام الثورة دخلت البلاد فى مرحلة جديدة من هذا التطور الفكرى والثقافى فكان من بين ما استحدثته فى هذا المضمار مشروع « الألف كتاب » الذى يستهدف نقل أمهات الكتب الى العربية وتشجيع الترجمة على أوسع نطاق واعادة فتح مدرسة الألسن لتعليم اللغات الاجنبية ثم التوسع فى ايفاد البعثات الى الخارج ، وأخيرا تكوين لجان من أساتذة الجامعات لترجمة أمهات الكتب فى مختلف العلوم والفنون توطئة لتعميم التعليم فى الكليات العملية باللغة العربية ... وشجعت البلاد أخيرا حركة الترجمة اذ أنهـا أمر ضرورى ولان العالم وحدة متكاملة وأن علينا أن نطلب « العلم ولو فى الصين » وأن الشعوب التى تطمح الى المجد يجب أن تكون على اتصال وثيق بمختلف ألوان الحضارات وأن هذا لا يكون ميسورا الا بمطالعة ما ينشر باللغات الاخرى وهكذا نجد المطابع لا تفتأ تقدم ألوانا من الثقافات والمعرفة تيسرها أحيانا للعامة من ذوى الثقافات المتوســطة فى كتيبات رخيصة غزيرة المادة ميسرة الاسلوب وأحيانا أخرى للخاصــة فى مجلدات ضخمة تنشر نواحى العلم الحديث حتى يفيد منها المجتمع بمختلف طبقاته .

ولكن اذا كانت ترجمة العلوم فى العهد الحاضر لم تكد تخطو خطوة الا على أيدى أساتذة الجامعة الذين أرادوا أن يقدموا لطلابهم موادهم العلمية مطبوعة فى كتب ، والا عن طريق وزارة الثقافة التى من أهدافها الكثيرة الكبيرة نقل أمهات المصادر العلمية كلها فى خمس سنوات .. فان ترجمة

الآداب لم يكن هذا شأنها دائما اذ نهض بجزء كبير منها هواة ٠٠ وهو أمر طبيعى ٠٠ فلا ينقل الادب الا محبوه ٠٠ ومع ذلك فالفارق واضح بين ترجمة أدبية يقدمها محب لها شغوف بهـــا وبين ترجمة أدبية تجيء عن تكليف فتخرج باردة ، أو فاترة على الاقل ، ومن ثم اختلفت الموازين فى ترجمة كتب الادب بخاصة اختلافا بينا ٠٠٠

والترجمة من لغة أوربية الى أخرى أيسر من غير شك من الترجمة من لغة أوربية الى لغة شرقية ذلك لان أصول اللغـــات تتقارب فى الاولى وتتباين فى الثانية فالترجمة من الفرنسية الى الاسبانية أو الايطالية مثلا أيسر من الترجمة من الفرنسية الى الانجليزية أو الالمانية وكلاهما أيسر من الترجمة الى العربية ٠٠ ذلك لان الفرنســـية والاسبانية والايطالية يمكن ارجاعها الى أصول لاتينية حتى أن مفرداتها تكاد فى أحيان كثيرة تكون واحدة بل وكذلك التركيبات والصياغة ٠٠ والانجليزية تجمع بين الاصول اللاتينية والجرمانية ٠ وأما مجموعة اللغات الغربية فبعيدة كل البعد عن مجموعة اللغات الشرقية من ناحية الالفاظ ومن ناحية التراكيب معا ٠

واللغة العربية لغة عرفت بأنها غنية بمفرداتها غنى يستلفت النظر وهذه صعوبة جديدة لان تحديد اللفظ المناسب الدقيق فى هذه الحالة من العسر بمكان كبير فى أحيان كثيرة ومن الاستحالة فى أحيان أخرى ولكن برغم وفرة الالفاظ نلتقى فى اللغة العربية بصعوبة بارزة فالنواحى المعنوية الفنية أو العملية تشح فيها الالفاظ حتى لتكاد تستحيل التفرقة بينها ٠ وبرغم ذلك فقـــد حرصت تمـــاما وبقدر ما وسعنى ذلك على المحافظة على روح النص ومعناه بل ومعناه أيضا وهو قصدته فى هذه الترجمة فهى ليست ترجمة حرة أقدم بها النص على الصورة الميسرة التى قد يلجأ اليها المترجم أحيانا بل هى ترجمة مقيدة بروح الكاتب ملتزمة بأسلوبه بقدر الامكان ٠

هذا الى أن روسو نفسه يميزه عن غيره من الكتاب أسلوب خاص به ومفردات معينـــة ٠٠٠ فأســـلوبه يتســـم بصـــيغ فعلية يدأب على استعمالها أحيانا حين لا تدعو الضرورة الى ذلك .. وهو أسلوب تنعكس عليه فى مظهر واضح العاطفة والحساسية المرهفة التى هى من خصائصه ككاتب . كما انه ينحو ناحية التعبير عن الماديات بألفاظ معنوية أحيانا لا تتفق مع المادية التى يتناولها فى تعبيره عنها أو هو يسوق أحيـــانا صفات بعيدة كل البعد عن المنطق التحليلى للفكرة التى يقدمها وما تستلزمه من ألفاظ محدودة حتى لنلتقى ببعض هذه الالفاظ

التى تبدو متعارضة مع بعضها لأول وهلة او التى تقدم صفات لا يمكن أن تعطى صورة حقيقية ــ بمعناها اللفظى ــ لما يراد التعبير عنه . وقد حرصت برغم ترجمتى لهذه الالفاظ على الصورة التى أوردها الكاتب على أن انتقى اقربها مما يحقق ما يريد التعبير عنه بقدر الامكان .

وارجو بذلك أن اكون وفقت لترجمة « أحلام يقظة جوال منفرد » على الوجه الذى يرضى روح الكاتب وأن أكون بذلك قد أضـــفت الى (الترجمة العربية) صفحة من الادب الفرنسى لم تسبق ترجمتها من قبـل .

مقدمة وتعليق

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau الجـــولة العـــاشرة من « أحلام يقظة جوال منفرد » ولم يقدر له أن يكملها .
كان ذلك فى الثانى عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ ·
فى يوم « عيد الفصح المزهر » ··· أى قبل وفاته بما يقل عن ثلاثة شهور اذ أنه قضى فى الثانى من شهر يوليو من العام نفسه .

هذه الجولات اذن هى مؤلفه الاخير وآخر ماسجل من خواطر وخلجات سجلها ابتداء من ربيع عام ١٧٧٦ ·

كتب الاربعة الاولى منها فى عامى ١٧٧٦ و ١٧٧٧(١)· وكتب الأربعة التالية فى عام ١٧٧٧

وكتب الجولتين الاخيرتين فيما بين يناير ١٧٧٨ حتى الثانى عشر من ابريل من العام نفسه .

---

(١) اختلف من تناولوا التعليق على حياة روسو في التحديد الزمنى لكتابة هذه الجولات ولكننى ارى أن ما اورده M. Monglond في كتابه P. 30 Vies Préromantiques برغم محاولة L. Courtois تصحيح بعض هذه التواريخ Chronologie de Rousseau يتفق وما اورده Henri Roddier في كتابه عن جان جاك روسو (وهـو آخر ماظهر في هذا الصدد) على الاقل من ناحية تاريخ البدء في كتابة هذه الجولات وتاريخ الانتهاء منها .

وترجمة هذه الجولات والتعليق عليهـــا من ناحية الظروف التى احاطت بكتابتها ومن ناحية موضوعها ومغزاها ومن ناحية أهميتها كعمل ادبى هو ما أعرض له فى هذا البحث -

لما كانت « احلام يقظة جوال منفرد » Les Rêveries du Promeneur آخر ما كتب روسو فى حياته تتصل اتصالا وثيقا بهذه الحياة وتبين عن نواحى نفسية الكاتب الكبير بما فيهـا من قوة وضعف ، من بســاطة وتناقض ، هى خلاصة خمسة وستين عاما قضاها بين مد وجزر يتأرجح بين السعادة والشقاء ، يتذوق حلاوة الاستقرار حينا ويتشرد ضاربا فى الأرض أحيانا كثيرة ، تسلط عليه أضواء الشهرة والمجد مرة وســياط الاضطهاد والاذلال مرات ، فقد وجدت لزاما على ، اذ أقدم للقارىء العربى هذا المؤلف مترجما الى اللغة العربية ، أن أستعرض معه مراحل صاحبها المختلفة بحلوها ومرها ، بما تخللها من أحـداث شـكلت ذاته وتركت انطباعاتها غائرة فى نفسه عميقة الأثر وبما أنتج خلالها من كتابات هى وليدة تلك الانطباعات وتلك النفس .

حياة روسو وأثرها فى انتاجه الأدبى

نشأته وطفولته :

أما طفولته فمريرة قاسية : منحته أمه الحياة ثم لقيت ربها بعـد ذلك بثمانية أيام حتى أن روسو كان يقول فيما بعد « كان مولدى أولى تعاساتى » فكفله أبوه اسـحق روســو Issac Rousseau وكان صانع ساعات فكان يرى فى طفله صورة زوجه التى فقدها يذرف الدموع سخية كلما قبله وكلما ذكرها . ولما بلغ روسو السادسة أخذ أبوه يعوده القراءة فكانا يقرآن الروايات والقصص يصرفان الليل جله فى ذلك حتى شروق الشمس فينهض الأب خجلا من نفسه ويعتذر لابنه فى استحياء بأنه « أشد منـه طفولة » . كان لتلك القراءات غير المنتظمة ومن بينها قراءة بعض مؤلفات موليير Solitaire وتاريخ الأمبراطورية والكنيسـة وحياة مشـاهير الرجال لبـــلوتارك (۱) Plutarque كان لها أثرها فى اذكاء خيال روسو الطفل وبخاصة كتاب « بلوتارك » الذى تأثر به أيما تأثير وأورد ذكره فى مستهل « الجولة الرابعة » اذ يقول « من بين الكتب القليلة التى لا أزال أقرؤها

---

(۱) بلوتارك مؤرخ يونانى قديم كتب عن حياة مشاهير الرجال وترجمت كتبه الى اللغة الفرنسية .

أحيانا كتاب « بلوتارك » الذى يشدنى اليه ويستغرقنى أكثر من غيره لقد كان أول ما طالعت فى طفولتى وسيكون آخرها فى شيخوختى » . وهكذا كان قلب روسو وعقله يتفتحان على عالم عظيم يجده فى ثنايا تلك الكتب العظيمة فى حين الصغار من سنه يمرحون ويلعبون . وكانت له عمة أيضا تحنو عليه تعنى به وتغنى له وكانت « ذات صـــوت عذب رخيم »، فكان لأنغامها الرقيقة الحنون وأثرها فى ارهاف حسـه بل انه يقول : ان ذلك كان مبعث ولعه بالموسيقى فيما بعد . وهكذا شب روسو وقد تهيأت له عوامل تذكى خياله وتوقد حساسيته : قراءات وأنغام وحنان ، فظل طيلة حياته يبحث دون طائل بين الناس عن المثالية والفضائل العظيمة التى طالعته فى أبطال « بلوتارك » ويفتقد حنانا دافئا تفتحت حواسه وقلبه عليه . .

ولكن كان الأب على شيء من الاستهتار بالمسئولية وعلى شيء من النزق فارتكب مخالفة خشى أن يسجن على أثرها فاضطر الى الهرب من جنيف Genèe بعد أن عهد بالطفل الى خاله برنار Bernard وهكذا حرم الطفل المسكين أباه وأمه . ولكن ذلك الخال ما لبث أن ضاق بروســـو فعهد به وبابن له كان يناسب روســوسنا الى معلم يدعى لامبرسييه Lambercier وهو قسيس بروتستانتى يقيم بالريف فى قرية بوسى Bossey

قضى روسو فى كنف ذلك القس عامين يعدهما أسعد سنوات طفولته تعلم فيهما كيف يصلى لله ويمجده الى جانب مبادىء الدين التى ميزته فيما بعد عن فلاســـفة القرن الثامن عشر الملحدين . . وفيهما أيضـــا استيقظ فى نفسه المرهفة حب الطبيعة الحلوة المنعزلة ذلك الحب الذى جعل منه « أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى نهاية القرن الثامن عشر » (١) فكتب فيها أجمل صفحاته وأخلدها لاسيما فى أحلام اليقظة Les Rêveries

وكان للقس أخت تخطت سن الثلاثين كانت تعنى بتهذيبه وتعمد الى الضرب أحيانا ولكن روسو كان يجد فى عقابها على هذا النحو لذة فتعلق بها تعلقا لايدرك هو نفسه له تفسيرا كما كتب فى الاعترافات Les Confessions بعد خمسين عاما من ذلك . أفكان يبحث فى شخصـــها عن الأم وحنانها ولذة عقابها وقد حرم ذلك كله ؟ أم هى حواسه تفتحت واستيقظت قبل الأوان ؟

---

(١) Louis Ducros : J. J. Rousseau , Avant-propos.

وعلى اية حال فان ذلك النوع الخيالى من الحب ، ذلك النوع غير المحدد منه ، هو الذى تخلل حياة روسو وكان له اثره فى علاقاته مع النساء وفى كتاباته على السواء .

لكن لم يطل مقامه هناك بعد أن اتهم بكسر مشط للآنسة « لامبرسييه Melle Lambercier » وكان ذلك نذيرا بتركه للدار اذ أصر على الانكار فاعتبر ذلك كذبا من ناحيته واضطر الى العودة الى خاله وكان ذلك مبدأ نحس طويل .. ظل فترة دون عمل ولم يكن هناك من يهتم به ويرعاه . ثم أرسله خاله الى أحد الكتبة العموميين لكنه لم يفلح ، ثم وجهه الى حرفة النقش على المعادن ولكن معلمه كان قسيسا غليظ القلب بثت معاملته الفظة للطفل فى نفسه بعض الرذائل كالغش والكذب والسرقة ، كان يعاند ويغالى فيها كلما زادت تلك المعاملة سوءا .. وفى ذلك الوقت أيضا أخذ يتجه من جديد نحو الكتب : الطيب منها والخبيث على السواء وينفق فى ذلك ما يحصل عليه من معلمه من نقود زهيدة كما كان يخرج للتنزه مع رفاق له خارج المدينة كان يعود منها متأخرا فيشبعه معلمه لطما ولكما . ولكنه لم يصبر على الضيم والمهانة وأخذ يتحين أول بادرة للخلاص .. فما أن عاد يوما من الغابة ليجد أبواب المدينة وقد أوصدها الحراس حتى أقسم ألا يعود ، وقضى الليل خارج الاسوار .. وفى الصباح قرر الفرار الى غير رجعة .. وفى تلك اللحظة انتهت مرحلة من عدم الاستقرار .. طابعها التشرد والحرمان .. حرم فيها الابوين وحياة الأسرة .. وذاق من متاعب الفاقة والنحس ما ينوء به رجال أشداء .. وهو لا يزال فتى طرى العود فى عامه السادس عشر ..

ها هو ذا روسو وحيد فى بيداء الحياة .. أما خاله برنار Bernard فقد ارتاح لخلاصه منه وأما أبوه فقد شرع فى البحث عنه لكنه كف بعد قليل كرجل لا يهمه من الدنيا الا أمر نفسه .

أفمن الغريب بعد أن قاسى الفتى ما قاسى أن يرتكب فيما بعد ما ارتكب من هفوات حينا ومن أخطاء جسيمة أحيانا .. أو ليس ظلما أن نحاسبه عليها كما نحاسب من تهيأت له سبل الحياة وسارت به سهلة ميسورة فانحرف ؟ أيكون ذلك عدلا منا ازاء من ترك لنفسه فى تلك السن الباكرة بلا هاد ولا مرشد أمين يتيما فقيرا شريدا خاوى الوفاض الا من قلب ذكى وحس مرهف ؟

شبابه :

ساقته قدماه عبر الريف الى قس يدعى دوبونتفير De Pontverre فتلقاه مرحبا وأكرم وفادته ثم حدثه عن «الكاثوليكية» ودعاه الى اعتناقها مبينا مزاياها ومساوى البروتستانتية ، دين أهل جنيف ثم بعث به الى سيدة محسنة كانت قد تحولت هى الأخرى الى الديانة الكاثوليكية وأخذت على عاتقها « انقاذ بعض الارواح المخطئة »

تلك كانت مدام دو فواران Mme De warens التى خصها روسو بـ « الجولة العاشرة » من « أحلام اليقظة Les Rêveries والتى اعتبر روسو الاقامة فى كنفها وبخاصة فى « الشارميت » Les Charmettes أسعد فترة فى حياته ، بل أيامه التى عاشها حقا .

ويعتبر ذلك اليوم الثانى عشر من ابريل من عام ١٧٢٨ .كما يذكر روسو فى تلك الجولة « يوم عيد الفصح المزهر » نقطة البداية •• بداية كل شىء •• بداية الشباب وفورته •• بداية الآمال •• بداية الآلام •• أى بداية تعلم الحياة ومعرفتها ••

ذهب اليها كما أوصاه دوبونفير De Pontverre متوقعا أن يلقى عجوزا متعصبة لكنه ذهل اذ أبصرت عيناه سيدة فى الثامنة والعشرين ذات حسن وضاء وعينين زرقاوين جميلتين ولون باهر وعنق ساحر.. ذات ابتسامة ملائكية وفم صغير وشعر نادر نوع جماله •• وعندئذ اعتقد فى يقين ان « دينا يدعو اليه مثل أولئك الرسل لابد مؤد الى الجنة •• »

أما هو كما يسجل فى « الاعترافات » فيما بعد فكان يومئذ فى « منتصف السادسة عشر من عمرى ومن غير أن أكون شابا جميلا كنت منتظم القامة جميل القدم دقيق الساق حى الوجه صغير الفم فاحم لون الشعر صغير العينين غائرهما ولكنهما كانتا شديدتى البريق تقذفان كل ما فى دمى من حرارة »

علق روسو بالسيدة منذ النظرة الأولى وارتاح اليها ورغب من صميم نفسه لو انه أقام لديها لكنها لم تتركه سوى أيام نصحته بعدها بالتوجه الى تورين بايطاليا Turin الى دير يجد فيه الملاذ •• فقصد الى هناك مزودا بنصح السيدة وبمبلغ يسير من المال •• ما لبث أن نفد بعد قليل فدخل الدير ليفقد ثقته بالوعاظ ورجال الدين لما لقيه من غرائب تنفر منها النفوس فكرههم كرها نضحت به كتبه وخاصة « الاعترافات » Les Confessions « وأحلام اليقظة » Les Rêveries واعتبر الدير

سجنا لابد من الافلات منه وفعلا انطلق منه ولم تتجاوز اقامته فيه شهرا واحدا بعد أن كفر بتعاليمه وبمن فيه ٠

خرج من الدير باحثا عن مأوى وعن مورد يعيش منه ٠٠ فتدرج في ألوان من العمل منها الخدمة في المنازل ومنها خدمة سيدة ايطالية جميلة تدعى مدام بازيل Mme Basile سرعان ما اعجب بها وأحبها فلما أحست منه ذلك صرفته ، وبعدئذ انتقل الى دار سيدة تدعى مدام دوفرسليس Madame De Vercellis وهنـــاك اخفى شريطا القى تهمـــة اخفائه على خـادم تدعى ماريون Marion ، وهــذه احدى الحوادث التى ظلت تؤرقه طيلة حياته حتى ليذكرها فى الصـــفحة الأولى من « الجولة الرابعة » اذ يسميها « الأكذوبة الشنعاء التى ارتكبتها فى شبابى الباكر والتى ظلت ذكراها تكدر صفوى طوال حياتي ٠٠ » وكان من نتائجها أن طرد هـــو وتلك الخادم من تلك الدار ٠٠

ومن بعدها التحق بخدمة الكونت دو جوفون Co mtre De Gouffon فى مدينـــة تورين Turin مالبث أن غدا صـــديقا لابنه وكاتب سره وساعده ذلك على اتقان اللغة الايطالية وعلى اكتساب معلومات كثيرة نافعة ٠٠ وكان موضع الرعاية فى تلك الدار فعادت اليه ثقته بنفسه حتى أنه أضحى يدرك أنه لم يخلق ليخدم فى المنازل ٠٠ فترك عمله به عائدا أدراجه الى آنسى Annecy بسويسرة فاســتقبلته مدام دو فواران فى ود مرحبة فقر قراره عندها تدعوه صغيرى ويدعوها « أمى Maman » يلاطفهـــا ويحبها بل ويقدسها ولا غرو فقد أصبحت له أما وحبيبة على السواء ٠٠ وعوضته حنانا فى أمه فقده وحبا ملأ عليه فراغ شبابه وحسه ٠

عاش روسو مع « أمه » يتعلم الموسيقى وينهل المعرفة من الكتب من جديد ٠٠ ويراه قس هو قريب لمدام دوفواران فيقضى بأنه لا يصلح الا أن يكون « قسا فى قرية » فترسله الى معهد دينى فى البلدة ليخرج منــــه بعد قليل دون فائدة تذكر ثم تعهد به الى رئيس موســـيقيى كاتدرائية البـــلدة ويدعى مســـيو لومتر M. Lemaitre ولم يستفد منه كذلك وكأنما لم يقدر لروسو أن يتلقى العلم على معلم طوال حياته.. وحدث أن اختلف لومتر Lemaitre مع رجال الـكاتدرائية فاضطر الى السفر الى باريس وصحبه روسو فى سفره يعينه على نقل متاعه لكنه تخلى عن أستاذه فى منتصف الطريق على أثر نوبة عصبية كانت تعاود الموسيقى نتيجة لادمانه السكر ٠ ويعد روسو حادثة تركه له جريمته الثانية بعد حادثة سرقة الشريط ، أنبه ضميره طويلا عليها ٠٠ وهكذا كان روســـو

متضاربا فى تصرفاته يأتى الخطأ ليعذبه بعد ذلك نفس ذلك الخطأ ‥ وهو يفسر ذلك بقوله : « يجتمع فى شيئان متضادان أو يكادان ، لا أستطيع أن أعقل اجتماعهما : فاحساس شديد وعواطف قوية وشهوات متحكمة تقابلها أفكار بطيئة التبين لاتظهر الا بعد زمن فكأنما فى قلب رجل وعقل رجل آخر » • ويعود بعد ذلك الى آنسى Annecy فلا يجد «مدام دوفواران» فيأخذ فى التجول وسط الطبيعة مستغرقا فى أحلام لا تنتهى ‥ ويتعرف بفتيات وبنساء لم يكن لهن أثر قوى فى حياته •

ويهيم روسو فى الحياة طارقا أبوابها ، فقيرا خالى الجيب ، فيعمل مترجما لقسيس ايطالى ثم سكرتيرا لأحد الشبان المشتغلين بالوظائف العسكرية ثم ناقلا للموسيقى • وأخيرا يعلم بمقام مدام دوفواران تشامبرى Chambèry فيعود اليها ملتقيا فى الطريق بفلاحين بلغ بهم البؤس أقصاه ، أثقلتهم الضرائب وظلمهم نظام اجتماعى فاسد فتأثرت نفسه وقدر لهذا التأثر ان يجد متنفسا فى كتاباته فيما بعد ‥

عاد روسو « أمه » ليجد عندها كاود آنيت Claude Anet خادما وخليلا ‥ ومع ذلك فقد أقام عندها سنوات ، يموت أثناءها كلود آنيت ويصبح هو الصديق والمدبر لشئونها بعد أن وهبته نفسها ، « درءا له عما قد توقعه فيه سنه عندئذ فى هاوية الشهوات » على نحو ما قال •

كان روسو فى تلك الفترة سعيدا قرير العين ‥ وكانت حياته بالريف داعية لاستسلامه للطبيعة والاحلام وحب النباتات الى جانب سعيه فى ميدان الموسيقى والعناية بدراستها ‥ ولعل الصفحات التى كتبها عنها هى من أبدع ماسطر خياله وقلبه معا فهى « جنته التى عاشها على الأرض » وكذلك فى « **الاعترافات** » : هنا تجىء اللحظات السعيدة الهادئة التى تجعلنى أقول اننى حييت ‥ ايه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها ‥ ألا عودى فيعود معك الهناء . انسابى فى ذاكرتى ان استطعت أكثر بطئا مما كنت فى سرعة مرك • ما عساى أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الأشياء نفسها ولا يمل قارىء من اعادتها كما لا أمل أنا من استعادة ذكراها •

واستقر رأيهما بعد ذلك على الاعتزال فى الريف فأقاما فى الشارميت les Charmettes فى ربوع الطبيعة التى أحبها ينهل من محاسنها فتغذى خياله واحساسه ، يجنى الزهور ويرتاد الغابات والوديان كما يقرأ فى الفلك والنجوم والطب والفلسفة •

لكن انغماسه فى تلك السعادة لم يمنع عنه زائرا بغيضا ‥ وهو

المرض ٠٠ وهو لما يزل فى الخامسة والعشرين انتابته بعض العلل الحقيقية وبعض الآخر توهم أنه مصاب به ، كمرض القلب ، فسافر للعلاج ٠٠ وتقابل فى الطريق بمدام « دولارناج » Madame De Larnage وهى سيدة فاتنة عطفت عليه فأصاب عطفهـــا القلب فهام بها حبا وقال فيها « لولا مدام دولارناج لمت من غير أن أعرف الملذات » مما أنســاه مرض القلب فكر راجعا بعد أن نسى حبه أو تناساه ، وهكذا حال الفنانين لا يثبت لهم حال ولا يقر لهم قرار ٠٠ عاد ليرى مدام دوفوارإن وقد استبدلته برفيق آخر وتقابله ببرود وجفاء لكنه بقى حتى لقى من الاغضاء عنه والامتعاض ما نفد معه صبره فسافر مزودا بتوصية منها الى ليون Lyon بفرنســـا حيث عمل مربيا ثم استقال ليعود الى السيدة ليجدها وقد تدهورت حالتهــا المالية وتراكمت عليهــا الديون ٠ ففكر فى مشروع جديد يعبر فيه عن السلم الموسيقى بالأرقام لعله بذلك ينــال مالا يعين به «أمه» ثم سافر الى باريس حتى يعرضه على الأكاديمية هناك ٠

روسو فى باريس :

٠ كان فى التاسعة والعشرين عندما قدم باريس مزودا بخطابات توصية الى جماعة من كبرائها ولم يكن يملك سوى خمسة عشر جنيها واقتراحه بشأن رقم الموسيقى ورواية مسرحية سماها نارسيس Narcisse ٠٠٠ فشل مشروع الموسيقى بعد أن فحصـــته لجنة من أكاديمية الفنون ٠٠ لم يدر عليه مالا ولكنه جعله يتعرف الى عدد من رجال الادب المشهورين مثل ماريفو Marivaux وديدرو Diderot وفونتنيل Fontenelle ثم عـــرف طريقه الى نســاء المجتمع لعله ينجح عن طريقهن كمــا أوصــاه البعض فتعرف على مدام دوبين Mme Dupin التى كتب باسمها رواية موسيقية أسماها عرائس الشعر الرقيقات Les Muses Galantes ثم شق طريقه بوساطة صديقاتها الى العمل بالبندقية فى ســـكرتيرية القنصلية هناك ولكن لم يرق له العمل فعاد الى باريس ليلتقى فى نزل بامرأه جديدة هى « تريز لوفاسير Thér ésse Levasseur » التى شاء سوء طالعه أن تعايشه وترزق منـــه بأطفاله ، فى بعـض الآراء ٠٠ كانت تمتهن تنظيف الملابس وغسلها وكانت أمها تاجرة صغيرة فى أورليان Orléans وكانت لهــا بساطة أهل الريف وسذاجتهم ٠٠ ومن عجب أن جان جاك روسو وجد فيها من تكمله وهى التى قال عنها « ولست أخجل حين اعترف أنها لم تحسن أبدا القراءة وان كانت تكتب كتــابة مقبـولة ٠٠ ولما أقمت فى شارع (٠٠) كان مقابل نوافذى ساعة كبيرة جهدت أكثر من شهر لأعلمها

فيها معرفة الوقت وهي الآن لا تكاد تعرفه ‥ وما استطاعت يوما أن تفهم نظام الاثنى عشر شهرا السنوية .. وهي لا تعرف رقما واحدا برغم المجهودات التي أنفقت لافهامها الأرقام ‥ فلا تعرف عن النقد ولا ثمن شيء ما ‥ والكلمة التي تنطق بها هي في أغلب الأمر عكس ماتريد أن تقوله على أنها برغم مبلغها هذا من الغباء بل ومن البلادة ، اذا شاء القارىء فلها نصائح ثمينة فى أحرج الاوقات .. »

تلك هي المخلوقة التي شاء القدر أن يضعها في طريق روسو لتعاشره ما بقي من حياته وليعزى اليها أنها هي التي ساقته الى ما بلغه من اضطراب نفسي وذهني وأنه لولاها لما بلغت حاله تلك من السوء ما بلغت ‥ وكانت أمها تستغل علاقتها بروسو فلا تكاد تحس بالمال بين يديه حتى تغير على البيت مع أخوتها وبناتها وأبنائها وحفدتهـا لتستنفد رزقه الضئيل ‥ وقد رزقت تريز بخمسة من الابناء ألقى بهم فى ملجأ اللقطاء ، واعتذر روسو عن جريمته بمعاذير شتى منها . انه كان يخشى أن ينشأوا في كنف أم هي تريز ، وبين عائلة هي عائلتها فتساء تربيتهم وذلك لعجزه عن القيام على تربيتهم بنفسه ، كما دافع عن نفسه في « الجولة التاسعة » من «أحلام اليقظة » ، اذ يسرد مثلا ما فعله محمد مع سعيد ولكننا لا نعرف من هو سعيد هذا ولم يرد فى السيرة النبوية ماينبىء بأن محمدا صلى الله عليه وسلم حرض شخصا يدعى سعيدا على اتيان مايخالف الشريعة والأخلاق ‥ لكن محمدا ظلمه الكتاب المتعصبون فكتبوا عنه مفترين ويبدو أن روسو الذى استقى كل معلوماته عن طريق القراءة السريعة بلا تمحيص ولا سعى وراء حقيقة .. يبدو أنه ساق المثل ، قادته اليه أباطيل وافتراءات ، محمد الرسول منها براء .

ومهما كان من أمر روسو ومن دفاعه عن نفسه فى « الجولة التاسعة» وفى غير « **أحلام اليقظة** » كذلك فان ذكره أمر أطفاله واهماله الشنيع لهم وهو على شفا الموت يستعد لملاقاة ربه كان بلا ريب صادرا عن أسف عميق وندم واحساس بالجرم أليم ‥

ولكن المؤرخين والنقاد لم يعفوه رغم ذلك ‥ بل ذهب البعض الى القول بأنه كان كاذبا لأنه كان مريضا باحتباس فى المثانة ومن ثم فان مرضه أعقمه فهو لم يتورط فى هذه الجريمة ولم يرزق بأطفال ‥ وانما ألجأه للكذب شدة ميله للنساء اللواتي ان عرفن عنه العقم انفضضن من حوله ‥ وقال آخرون انه لم يشر فى « **الاعترافات** » ولا فى « **أحلام اليقظة** » الى أنه رأى أبناءه وانما قال ان أم تريز هى التى كانت تخبره بحمل ابنتها

وتأخذ على عاتقها ايداع الطفل فى « ملجأ اللقطاء » ·· ويعزز هذا القول أن واحدة ممن اتصلن بتريز لم تشر مرة الى حملها وانما كن يعلمن بأبناء روسو منه نفسه وليس من طريق آخر ·· والرأى الثالث هو أن تريز حملت فعلا ولكن ليس من روسو ومن ثم فجريمته أقل نكرا ·· ومهما يكن من أمر فان روسو نفسه يكاد يكون لقيطا ·· لم يعرف أمه ·· ولم يستظل بعطف أبيه فهو يتيم مشرد فى طفولته ·· لم يحس بعاطفة أبويه ·· فلئن صح أنه كان أبا فليس بعجيب أن يودع أبناءه « ملجأ اللقطاء » لأنه نفسه لم يتذوق طعم « البيت » ·· كما أنه يشير الى أنه كان يلقى شبانا فى مطعم الأوبرا فيفخر الواحد منهم بأنه « أكثر من غيره الهاما فى تعمير « ملجأ اللقطاء » ·· وكان هؤلاء الشبان موضع الاعجاب · فقلت فى نفسى : ما دامت تلك عادة البلاد ففى وسع الانسان اتباعها ما دام يعيش فيها ·· وكذلك اخترت هذه الطريقة وصممت على تنفيذهـــا بلا اكتراث ومن غير أن يعرونى هم » ·

ولكن من عجب أن حياة روسو انتظمت نوعا ما فى قرب تيريز فاستسلم للعمل المجدى ·· وانتج أعماله الأدبية جميعا ·

تعرف روســـو بعد ذلك الى مدام دابناى Mme D'Epinay وكانت موسيقية قادرة ·· وسهل له ذلك التعرف بمدام دودتو Mme D'Houdetot

كانت صلات روسو بهذه الطبقة الجديدة أمرا ذا أثر ملحوظ فى حياته ·· كان الأدب الدينى قوام أمهات الكتب فى ذلك العصر وكانت الاشادة بالكثلكة هدفه وكان الملك رمزا للتدين وكان هم الشعراء والكتاب امتداحه والزلفى له ·· ولكن لم يكد يمضى عصر الملك لويس الرابع عشر حتى دب الفساد فى البلاد بعد أن أرهقها الترف وداخل الكنيسة الضعف ·· وجاء القرن الثامن عشر فى أعقاب هذه المرحلة معاديا للدين قاتلا لكل العقائد السابقة ثائرا ضد سلطة الفرد ·· غير أن البناء الاجتماعى لم ينله الانهيار فظلت « الصالونات » كما هى بل اتسعت دائرتها بعد أن انفض عن البلاط من كانوا يقفون عند بواباته ·· وذهب روســـو البروتســـتانتى الأصل الكاثوليكى المنقلب المتوقد الخيال الميال للوحدة العاشق للطبيعة البكر العاجز عن الظهور فى المجتمعات المصاب بالآفات والعلل وصل ليجد من حسن الاستقبال ما أذهب عن نفسه بعضا مما كان بها من اليأس وفتح أمامه متنفسا من الأمل فى الحياة ·· وكانت صلته « بديدرو Diderot قد توطدت فاتفق معه على نشر صحيفة هى « **الساخر** Le persifleur » لم يظهر منها سوى العدد الأول اذ سجن ديدرو بعدها على أثر كتابه فى

« الآثار الفلسفية » وكان روسو يتردد عليه سيراً على الاقدام ‥ لأنه لم يكن يملك أجر العربة ‥ وهو يطالع دائما فى كتاب ‥

وبينما كان ذات يوم ذاهبا لزيارة صديقه .. فتح جريدة « مركير دوفرانس» Mercure De France وهو مستند الى شجرة يستريح واذا بنظره يقع على سؤال جاء بالصحيفة طرحه مجمع ديجون L'Académie de Dijon ومؤداه هل ساعدت العلوم والفنون على تطهير العادات Discours sur les Science et les Arts وانفعل روسو أشد الانفعال وعول على نشر رأيه وعضده فى ذلك ديدرو ‥ فأدلى رسو بدلوه ونال الجائزة فى يوليو عام ١٧٥٠ ٠

ويقول روسو بعدئذ فى اعترافاته « ولكن ذلك كان سبب ضياعى طوال حياتى وكان سبب تعاستى » ‥ وذلك لأنه قضى حياته بعد ذلك يبحث عن الحرية والفضيلة والحق ٠

كان ذلك أول فوز لروسو فى حياته ‥ وأول خطوة له نحو المجد ‥ ذلك المجد الذى وافاه ـ كالقدر ـ على غير موعد ـ ودون أن يدبر له ‥ بعد أن بلغ الثامنة والثلاثين ٠

كان رد روسو يتضمن الطعن فى المجتمع المدنى والمناداة بالرجوع الى الحالة الطبيعية واعتبار العلوم والفنون مصائب وأهوالا إنصبت على رأس الانسانية، بل انها تقتل فراغ الرجال وتعودهم البطالة وهى المسئولة وحدها عن الانحطاط والفســاد ٠ والواقع أن هـذا أمر طبيعى بالنسبة لروسو ، فالعلوم والفنون اثر من آثار المجتمع الذى لم يلق روسو فيه نجاحا ، والفنون مصدر ثراء لبعض الناس وهو لم يلق منها سوى النحس والتعاسة ٠ وقد نقد كثير من المفكرين مقاله ومنهم فولتير سنة ١٧٥١ فأجابه روسو على نقده ٠

وحتى يكون روسو منطقيا مع نفسه أدخل تعديلا على طريقة عيشه وملبســه ‥ فعمد الى البساطة وتخلى عن كل زينة ‥ وانصرف الى التقشف ‥ وهو يشير الى ذلك فى « **أحلام اليقظة** » فى « الجولة الثالثة » : « هجرت الحياة الدنيا بمفاتنها وزهدت كل زخرف فلم يعد لى سيف ولا ساعة ولا جوارب بيضاء ولا حلى ذهبية ولا زينة شعر بل شعر مستعار بسيط جدا ورداء سميك من الصوف ‥ بل ـ وخيرا من هذا كله ـ نزعت من قلبى كل اشتهــاء لجمع المال وكل مطمع فى كل ماله قيمة ثم هجرت الوظيفة التى كنت أشغلها اذ ذاك والتى لم أكن خليقا بها البتة وانصرفت الى نسخ الموسيقى نظير أجر معين للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديد الميل اليه دائما »

ثم ألف بعـــد ذلك أوبرا عراف القـــرية Le Devin du Village مثلت أمام الملك ورضى عنها فطلب مقابلة روسو لكنه أبى مؤثرا حريته ومبادئه ·· وهى لمحة أخرى من لمحات تلك الطباع الأبية العزيزة الزاهدة ·· ثم مثلت رواية « نارسيس Narcisse ففشلت كل الفشل ·

وفيما هو يتأرجح بين الفشل والنجاح أعلن مجمع ديجون ersifleur de Dijon عام ١٧٥٤ سؤالا لمســابقة موضوعها « أسباب عدم المساواة بين النـــاس » Discours sur l'inégalité parmi les hommes ــ فكتب روسو وكانت كتابته هذه المرة أقوى وأبلغ : ومع ذلك فلم ينل عنها الجائزة ·· صاح روسو صيحة مدوية فى وجه الملكية الفردية ·· ودعا الفقراء الى التمرد على النظام الاقطاعى .. قال: « ان الحرية لا تكون مع عدم المساواة فمن عدم المساواة تنشأ الثروة والثروة تولد الترف والفراغ والترف أصل وجود الفنون ، والفراغ أصل وجود العلوم · واذا كان التخلف الحضارى يبدأ هذا الظلم فلنعد اليه راضين ·· » ــ وكانت تلك جراة نادرة وشجاعة تستحق الاعجاب من جانب روسو .. وهذا المقال يعالج مشكلة سياسية واجتماعية معاصرة ·· مشكلة الانسان فى السعادة والشقاء ·· فجاء عملا أدبيا رائعا اهتزت له أفكار القرن الثامن عشر ·· وجاءت الثورة الفرنسية لتقدسه فقد كان مبشرا ونذيرا وداعيا الى الأسس التى قامت عليها ·· وسراجا منيرا ·

وفكر بعدئذ فى أن يزور وطنــه جنيف Genève ومهد صباه ·· فسافر تصحبه « تيريز » وعرج فى طريقه على « مدام دوفواران » وكانت تتجرع حينئذ كأس الفاقة والشقاء ·· فترك لها بعض ما معه من نقود ·· ثم دخل جنيف محتفى به مستقبلا أجمل استقبال ·· خرج منهـــا يتيما ·· شريدا ·· كسير الخاطر ·· ليعود ترمقه العيون فى اكبـــار بعد أن غدا عبقريا طبقت شهرته الآفاق ·

لبث روسو بجنيف اربعة أشهر يمتع العين بالماء والخضرة .. ثم غادرها الى باريس فى خريف عام ١٧٥٤ راضيا عن مقامه فيها ·· وشتان بين مغادرته اياها هذه وبين المرة الأولى ·· تركهـــا وفى قلبه حنين الى العزلة الهادئة ·· الى الجمال الحق ·· الى الطبيعة البديعة مرتع صـــباه وملهمة يراعه لذلك ما أن عرضت عليه مادام دابناى Madame D'Epinay المقام فى الارميتـــاج L'Ermitage على مقربة من قصرها ومن غابة موغرنسى Mont Morency حتى قبل متلهفا سعيدا ·· فترك باريس مرة أخرى فى ابريل عام ١٧٥٦ ولم يقدر له دخولها بعدئذ الا فى أواخر أيامه ·

الكهولة :

. واذا كانت الأعوام التى قضاها روســـو فى « الشارميت » مرحلة دراسة وتحصيل فان السنين التي قضاها في مونمرنسي ستكون مرحلة تعبير وانتاج غزير . عاش في صومعته راضيا قرير العين بنسخ الموسيقى لأنها مورد رزقه ويهرع الى الغابة فتحنو عليه الطبيعة .. الأم .. التى تعطى ولا تأخذ .. الطبيعة التى تجرى دائما وأبدا على لســان عاشقهـا روسو .. الطبيعة التى تهدى المؤمن .. وتلهم الفنان .. وكذلك ألهته روايته الطويلة الخالدة « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloise » وقد بلغ الخامسة والأربعين ، ولا عجب فقد عاش روسو ماعاش بقلب شـــاب وعواطف متقدة .. كانت الطبيعة بسحرها وخيالاتها ملهمته .. ولكن كانت هناك أيضا مدام دودتو Mme d'Houdetot زوج أخ مدام دابناى وصديقة ســـان لامبير الشـــاعر Saint-Lambert صديق روسو الحميم .. تعلق بها تعلقـــا بلغ حد الهيام .. تعلقا عذريا طاهرا .. ولكنه أوغر صدر مدام دابناى غيرة وحقدا .. فسعت للوقيعة .. وكانت صديقة « لجريم » Grimim وديدرو Diderot فتالب عليه الجميع واضـــطهدوه .. وانتهى به الأمر الى الخروج من صومعته بعد أن طردته منه مضيفته فى خطاب شديد اللهجة .. خاصة بعد أن رفض روسو السفر معهـــا الى سويسرا لزيارة الطبيب ترونشـــان Tronchin واستشـــارته .. فشهرت به وناصرها فى ذلك جريم وديدرو فأصبح روسو يعتقد اعتقادا راسخا فى اضطهاد أصحابه جميعا له ورغبتهم فى الحاق الشر به .

خرج روسو اذن من صومعته على أسوأ حال بعد أن كان يحلم بالاقامة فيها ، يتخيل فى عزلته ، وينصرف الى التاليف . وكأنما أفاق مذعورا من حلمه فيرى فيمن حوله عصبة تتآمر على راحته وسمعته مستهدفة القضاء على صـــحته وحياته .. خرج منها وقد كفر مرة أخرى بالناس وبأصدقائه وبخاصة جريم وديدرو .. وأضحى شعوره بالاضطهاد يلازمه وينغص عليه حياته بل ويتفاقم كلما زادت الصدمات والمصائب مرة واحدة .. وما أكثرها فى حياة روسو المسكين ، ومع ذلك فان تلك الفترة كما قلنا كانت فترة انتـــاج أدبى غزير كتب فيهـــا قسما من **هلويز الجديدة** La Nouvelle Héloise وآخر من **العقد الاجتماعى** Le Contrat Social

وأما هلويز الجديدة فهى فى ذاتها « حلم يقظة » طويل .. رائع .. قوامه الحب العذرى والطبيعة ، رسم روسو فيها الاحاسيس والمشاعر بدقة وحرارة فائقتين . فهى اعتراف وحلم وتعبير عن حياته الداخلية كما أن

فيها فلسفة لحب الله على طريقة روسو ٠٠ وكان روسو وفيا لوطنه فجعل جوها بحيرة جنيف فهي من أجمل بحيرات العالم في نظره فعرف روسو الناس بسويسرا وربوعها وكان من أثر كتابته تلك أن وفد السواح من كل صوب على سويسرا ينهلون من مفاتنها ويجتلون الطبيعة التي مجدها روسو فيها ٠٠ ومن أجلها أيضا استحق روسو لقب الرائد الأول للعصر الرومانتيكي ٠

وكانت علاقة روسو بفولتير Voltaire حتى ذلك العهد طيبة ولكنها ساءت بسبب ما كتبه الفيلسوف دالمبير D'Alembert بايعاز من فولتير في الانسيكلوبيديا عن وجوب بناء مسرح بجنيف اذ تصور روسو أن فولتير يريد اتعاس وطنه جنيف وافساده فكتب رسالة الى دالامبير Lettre à D'Alembert معددا مساوىء المسرح مدللا على عدم حاجة جنيف اليه منددا بمسرحيات موليير Molière ، وهو أعظم كوميدى في القرن السابع عشر ، فهي مدرسة للرذائل والعادات السيئة اذ لا تعتمد الا على المكر والحيلة ٠٠ ولكن فولتير غضب من تلك الرسالة فكانت القطيعة بينه وبين روسو . تلك القطيعة التي ظلت قائمة حتى الموت ٠

وهكذا كان أعداء روسو وحساده يتزايدون كل يوم. وفي تلك الاثناء كان روسو قد انتهى من كتابه «هلويز الجديدة» في شتاء ١٧٩٨ وبعث به الى الناشر في امستردام فعرض عليه هذا وظيفة محرر في جريدة العلماء فرفض بقوله « لقد كنت أعلم أن امتيازي في الكتابة راجع الى حرارة في النفس تحسن ما أعالجه من المواضيع وانه حب العظيم والحق والجميل هو الذي يحرك عبقريتي ٠٠ لكنهم ظنوا أني أستطيع الكتابة بالحرفة كما يكتب سواي من الادباء ٠٠ والحق أني ما كتبت الا تحت دافع شهوة الكتابة والفكرة » ٠

وفي ربيع ١٧٥٩ سكن في القصر الصغير الملحق بقصر الدوقة دو لوكسمبرج Duchesse de Luxembourg في طرف الغابة بناء على الحاحها وساعدته الاقامة هناك على الاتصال بالمارشال زوجها وبها وبجميع أصحابهم وأصدقائهم من الكبراء وأكسبه هذا الاتصال هناء داخليا كان منبته المتواضع يكبره في عينه ٠

وأما ثالث انتاجه في تلك الفترة فهو كتاب اميل Emile انتهى منه وأودعه المطبعة ثم سقط مريضا في خريف عام ١٧٦١ وكان شديد القلق على مصير ذلك الكتاب يخشى أن يتلفه أعداؤه وكأنما كان يستطلع الغيب ٠

وصدر بعد ذلك كتابه «العقد الاجتماعي» Le Contrat Social وكان قد بدأ كتابته منذ خمسة عشر عاماً ٠٠ واذا كانت هلويز الجديدة هي حلم الفرد في الحب والسعادة فان العقد الاجتماعي كان حلم المواطنين جميعاً في العدالة والسعادة ٠٠ يقول فيه : « ان ثمة عقداً بين أعضاء المجتمع هو العقد الاجتماعي ،وقد ولد الانسان حراً وهو مع ذلك يرسف في القيود في كل مكان ، فلابد للشعوب من رفض الاذلال ، فليس لرجل من سلطان على آخر بالقوة فالقوة ليست حقاً، واذا استغنى الانسان عن حريته فانه بذلك يستغنى عن صفته كانسان فيضيع حقوقه وواجباته ، والسلطة التي تنبعث عن حب الشعوب هي أعظم سلطة » ٠

ويعرج روسو على الدين فيقف في وجه النظريات المسيحية جمعاء يناصب الكنيسة العداء قائلا : ان الناس كانوا سعداء متساوين قبل حلول الاديان ٠٠ وأما الديانة الحقة فهي التي بين الخالق والمخلوق وعنها يخدم الاخير الاخلاق ويخدم الوطن ٠٠

كان روسو جريئاً ثورياً في كتابته وهو وان كان في ذهنه اذ ذاك أن يكتب من أجل جنيف وحكومة جنيف الا أنها صادفت فترة في فرنسا طابعها الاستبداد والمظالم وكانت حرية الكتابة معدومة، لذلك اهتزت جنبات القرن الثامن عشر وارتعدت حين نهض ذلك الكاتب الجريء مطالباً بالحرية متعرضاً للحكم وللكنيسة وكان ذلك الكتاب ضمن ما مهد لثورة فرنسا عام ١٧٨٩ من أمور ٠ قال فيه ميرابو (١) Mirabeau « لقد علم روسو المبادىء النظيفة في الحرية » ٠

أما كتاب « اميل » Emile أو « انجيل المعلمين » كما سماه الشاعر الالماني الكبير « جوته » Goethe فهو حلم الكاتب في تربية سليمة مثالية للطفولة ٠٠ ويعتبره بعض النقاد تكفيراً عن الجريمة التي ارتكبها روسو في حق أطفاله ٠٠ وسخر منه آخرون مستنكرين من روسو أن يعلم ويهذب ويكتب في التربية وهو الذي لم يحظ من كل ذلك بشيء وهو الذي أهمل أطفاله فأودعهم في قسوة « ملجأ اللقطاء » ٠

وأياً كان الجواب فان الانسان كثيراً ما يستفيد من الاخطاء التي ارتكبها في حياته والا فما فائدة العقل والضمير اذن ؟٠ والكتاب في خمسة أجزاء يتتبع فيها الطفل من ساعة ولادته حتى زواجه ٠٠ ويعنى في شتى المراحل من حياته بوضع أسس طبيعية يهتدي بها المربون ٠٠ ولعله بقوله

(1) Edmé Champion : J.J. Rousseau et la Révolution Française

فى مستهل الكتاب الاول منه « ان كل شىء يخرج خيرا من يدى مبـــدع الأشياء ولكنه يفسد ويشوه بين يدى الانسان » لعله بقوله هذا يلخص طريقته تلك فىالتربية.. تلك الطريقة التى تعتمد علىالعودة الىالطبيعة والبساطة والفضيلة ..

ولم يكن روسو أول من كتب فى التربية فقد سبقه من قبل مونتانى Montaigne وفنلون Fenelon الذى كتب فى تربيــة الفتيـــات ، ذلك فى القرن السابع عشر وأما الجديد هنا فى كتاب روسو الأمر الذى ألب عليه الحكام ورجال الدين وكان كما يقال « القشة التى قصمت ظهر البعير » فهو ما كتبه فيه عن الناحية الدينية فى تربية الطفل اذ ألحق بالكتاب جزءا هو «اشهار عقيدة كاهن من سفوا» تناول فيه معجزات الرسل بأسلوب مشكك ، وكذلك « مسالة الاديان الثلاثة » ومسئولية البشر جميعـــا فى الأخذ بواحد منها دون الآخر ..

طبع الكتاب فى هولنده فى شهر يونيه ١٧٦٢ وظن الكاتب بذلك أنه بلغ هدفه .. ولكن نائبا بالبرلمان صرح بأن الكتاب خطر وأنه لا فائدة من احراق الكتب وانما يجب أن يحرق مؤلفوها .. فلم يكترث روسوفى مبدأ الأمر اذ ظن أنه فى حماية الدوق دو لوكسمبرج Duc De Luxembourg ولكن صديقا معجبا هو البرنس دو كونتى P rince de Conti حذره بعد ذلك بأن من الجائز اصدار قرار بالقبض عليه ومحاكمته .

وفعلا أوقظ من نومه فى ليلة ٩ من يونيو ليتمكن من الهرب اذ كان القرار قد صدر فىاليوم نفسه وأصدرت حكومة جنيف أمرا مماثلا فى ١٨ من يونيو ١٧٦٢ وصادرت السربون La Sorbonne الكتاب وطعن فيه رئيس كهنة باريس وطعنه قرار من البابا وقضى عليه بأمر صادر من حكومة هولندة .. كل ذلك بحجة « نشر آراء تخالف العقيدة المحترمة فى المملكة » وساعد عليه وضع اسمه على الكتاب الذى نشر تلك الافكار فيه ولو أنه لم يضع اسمه عليه لما مسه أحد بسوء ولا تعرض له القانون .

هربه :

ركب روسو حتى الحدود وتغافل عنه الجنود الذين بعث بهم للقبض عليه ومر بباريس ونزل من عربته بعد أن عبر الحدود ثم قبل تربة بلاده سويسرة بعد غيبة عشرين عاما فى فرنسا دخلها شريدا يسعى وراء العيش وخرج منها طريدا بعد أن بلغ قمة الشهرة وأجيز عليها ... وحسب أنه عاد الى وطن الحرية ولكن وطن الحرية نبذه بل وأصـــدر أمره بحرق

« اميل » لانه ضد الدين وكذلك اتلاف « **العقد الاجتماعي** » لانه ضد الحكم ٠٠ فلم يكن الوطن أبر به من فرنسا ٠٠ وطلب اليه الرحيل عن البلاد فسافر الى جبال انجورا Jura وكتب يناقش الكثلكة وينقد البروتستانتية ومن بين كتبه ما سماه « **رسائل من الجبل** » Lettres de la Montagne كان ذلك في موتييه ترافير Motiers-Travers بعد طلب الحماية من فردريك الثاني Fréderic II وكان الفضل في ذلك يرجع الى صديق لروسو يعرف باسم ميلور مارشال Milord Maréchal وكان من أشد المعجبين بروسو وأكثرهم تفانيا في عونه ٠٠ وافق فردريك الثاني على ايواء روسو كلاجيء اضطهدته حكومة لويس الخامس عشر Louis XV ولو أنه لم يكن يتفق معه في أفكاره بل على العكس كان الملك من المعجبين بفولتير Voltaire نقيض روسو في كل شيء ٠٠ وأراد ملك بروسيا أن يتعهد روسو بعدم العودة الى الكتابة ٠٠ لكن هذا أبى في أنفة وعزة نفس ، انما وعد فقط باحترام « القوانين والملك والنبلاء وكل ما تمليه عليه واجبات الضيافة »

ولكن قدر روسو كان له بالمرصاد فعلى أثر مشادة له مع الراهب مونمولين Montmollin هجم الفلاحون المتعصبون على بيته فرجموه بالحجارة فهرب الى جزيرة « سان بيير Saint-Pierre » في قلب البحيرة من أراضي سويسرة وذلك سنة ١٧٦٥ .. وكان المقام في هذه الجزيرة ملهما للجولة الخامسة من « **احلام يتقظة جوال منعزل** » فقد قال في مستهلها : « لم تكن هناك من بين الديار التي أقمت فيها ــ وكانت لي من بينها ديار بديعة ــ واحدة أسعدتني حقا وخلفت في نفسي تلك الحسرات المرهفة سوى جزيرة سان بيير « Saint-Pierre » انه لم يسمح لي قط بأن أقضي سوى شهرين في تلك الجزيرة وكنت أستطيع أن أقضي بها عامين بل قرنين بل والى الأبد دون أن ينال مني السأم لحظة واحدة ٠٠ »

حقا فان روسو المسكين الذي كتب عليه التشرد والملاحقة وعدم الاستقرار ، صدر ضده من مجلس شيوخ جمهورية برن Berne مرسوم طرده من تلك الجزيرة الساحرة التي ود لو ترك فيها بقية العمر ٠٠ كان ذلك في شهر أكتوبر عام ١٧٦٥ ٠٠ ولم يقدر له أن يرى ثانية وطنه الجاحد منذ ذلك التاريخ ٠٠

توجه روسو بعد ذلك الى ستراسبورج Strassbourg ووصل باريس في ١٦ من ديسمبر من العام نفسه ليمكث فيها أياما قليلة ضاق فيها بفضول الباريسيين الذين كانوا يحضرون ليشاهدوا الطريد المشهور فغادرها في أوائل يناير عام ١٧٦٦ الى انجلترا حيث استضافه الفيلسوف الانجليزي دافيد هيوم David Hume ولحقت به تريز وكتبه ٠٠ أعجبه

المقام فى بادىء الامر فلبث فيه ثلاثة عشر شـــهرا يستعشب وينسخ الموسيقى •• ويكتب ذكرياته •• وهى سـجل حيـــاته « **الاعترافات** » Les Confsession يصور فيها مآسى حياته الكثيرة وأفراحها القليـــلة ويكشف عن نفسه لا يخفى عيبا ولا ضعفا بل يسردها جميعـــا فى جرأة وشجاعة مذهلتين •

ولكن روسو ما لبث ـ بما جبلت عليه طبيعته من عدم اســـتقرار ـ أن مل طبيعة انجلترا •• تدفع بالكآبة الى نفسه بسـمائها يحجبهـــا الضباب •• وبردها وأشجارها العارية •• اللهم الا بعض زهور البنفسج •• كما ذكر ذلك لصديق له فى شهر مايو ••

كما أنه ما لبث أن اختصم مع هيوم Hume صـــديقه ومضيفه ولا عجب ، فقد ظل دائما فى خصام مع الفلاسفة ، ثم غادر انجلترا عائدا الى فرنسا وانتحل اسما مستعارا ، وظل شريدا مدى ثلاث سنوات تارة ضيفا على أصدقائه وتارة فى عزلة •• وعقد فى تلك الاثناء على تيريز أمام شـــاهدين مصححا علاقته بها •• فكافأ تلك التى تشردت بتشرده •• وقاسمته الحياة والمصير مريرا قاسيا •• وبعـــد ذلك الزواج أول زواج مدنى فى فرنسا ، وكان ذلك بعد خمسة وعشرين عاما من تعرفه بها ••

العودة الى باريس :

وبعد أن هـــذه الترحال •• عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ليقطن فى شارع بلاتريير Platrière الذى حمل اسمه منذ ذلك الحين ••

بلغ روسو ذروة التعاسة •• ولا عجب فقد توالت الضربات على أم رأسه بلا هوادة ولا رحمة •• فغدا يظن العالم غاصا بأعدائه ، يحيكون له المؤامرات ويدبرون الخطط للقضاء عليه •• وأحس بالظلم الفادح عليه وبرغبته فى الدفاع عن نفسه فما أن انتهى من كتابه «**الاعترافات**» حتى أخذ يتنقل من بيت الى بيت ومن صالون الى صالون •• يقرأها على مجموعات قليلة من الناس لعله يكذب ما يشاع عنه وليستدر عطف من يستمعون اليه •• ولكنه لم يلق آذانا صاغية بل حرمت عليه القراءة فقد كان صريحا جريئا فى « **اعترافاته** » فذكر ضمن ما ذكر أسماء الناس وبخاصة السيدات اللواتى كانت له معهن حادثات •• فخاب أمله وزاد عـــذابه •• واعتزل الناس فى يأس •• ينسخ الموسيقى •• ويهتم بالنبات ••

ولكنه مع ذلك لم يكف عن التفكير فى الحال التى انتهى اليهـــا ••

وفى الناس وكيف ان « الاعترافات » التى قال فى أولها « ٠٠ لقد صورت نفسى على حقيقتها : فى ضعتها وزرايتها ٠٠ وفى صلاحها وحصافة عقلها وسموها ٠٠ تبعا للحال التى كنت فيها ، لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسي كما كنت أنت تراها أيها الخالد السرمدى ٠٠ فاجمع حولى الحشد الذى لا حصر له من أبناء جنسي ودعهم يصغون الى اعترافاتي فيرثون لخستي ويخجلون لمثالبى ٠ ثم ادع كلا منهم الى أن يكشف بدوره ـ وبعين الصراحة ـ أسرار فؤاده عند قوائم عرشك وليقل ان جرؤ « لقد كنت خيرا من ذلك الرجل » كيف أن هذه الاعترافات لم لم تكف لاقناع الناس بصلاحه وبأنه المظلوم المفترى عليه ٠٠ لذلك فكر فى طريقة أخرى ٠٠ علها تكون أصوب وأنجع ٠ ٠ فأنشأ حوارا Les Dialogues أو « روسو يحاكم جان جاك » Rousseau Juge de Jean-Jacques وهو حوار وهمى يجرى بين رجلين هما جان جاك وفرنسى هو عدو لجان جاك دون أن يقابله مرة واحدة أو يقرأ سطرا واحدا مما كتب ٠٠ أما روسو نفسه فيجهد فى أن يتبين الحقيقة وألا يكون متحيزا ٠٠ وانما كان جل همه ـ كما أسلفنا ـ أن يبرر مسلكه وأن يغدو انسانا خيرا صالحا فى أعين معاصريه ٠

كان يعتز بهذه المحاورات وكان كذلك لا يثق بأصدقائه ويتشكك فيهم حتى بأقربهم اليه فكتب منها نسخا عديدة من المخطوط ثم عن له أن يودعه مذبح كنيسة النوتردام Notre Dame فى ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ ٠٠ ليرفعه الى العناية الالهية ويؤكد أنه ظلم فى كل شىء قال فيه : « يا حامى المظلومين يا اله العدالة والحق تقبل هذه الوديعة التى يضعها على مذبحك غريب تعس، وحيد من غير سند ولا نصير على الارض، معذب مضطهد ٠٠ » وما أن تقدم ليضع المخطوط حتى ارتد على أعقابه وقد انتابته لوثة هى أقرب ما تكون الى الجنون ٠٠ اذ اصطدم بالحاجز وقد أوصد ٠ فظن أن ذلك من عمل الله ٠٠ غير راض عن فعلته ٠٠ فخرج هائما على وجهه فى الطرقات طيلة النهار يقسم أن لن يطأ الكنيسة ثانية ما عاش ٠٠

ثم كتب مقالة يوزعها على من يصادفهم فى طريقه بعنوان « **الى كل فرنسى لا يزال يحب العدالة والحق** » A tout Français aimant encore la justice et la vérité ولكن أضحكه أن المارة رفضوها بحجة أنها موجهة الى سواهم ٠

وهنا تحدث المعجزة ٠٠ فيشاء الله لهذه النفس المعذبة أن تهدأ بعد ثورة وأن تذعن لمشيئته بعد ثورة هي الى الجنون أقرب ٠٠ وروسو عندئذ كالجندى ألقى السلاح بعد أن أبلى وناضل ومل الكفاح ٠٠ ومن قمة التمزع

والهذيان الى سكينة مطلقة سـاقته اليها فكرة طرأت له وهى أن الله جلت قدرته انما أرادبعدم ايداع روسومخطوطه فى النوتردام Notre Dame ان ينقذه من أيدى أعدائه المتربصين •

كتابة أحلام اليقظة :

وحينئذ وفى استسلام تشوبه مع ذلك المرارة أخذ روسو يســجل « أحلام يقظة جوال منعزل » وفيها يجتر الذكرى اجترارا ويعيش فيها وبها ويسلم أمرة للقوى المنتقم الجبار •

تلك الخطرات هى آخر ما كتب اذ أنه بعد أن ترك مسكنه بشــارع بلاتريير Plâtrière لعدم ملاءمته لصحته عام ١٧٧٧ استضافه مســيو دو جيراردين M. De Girardin في ارمنفيل Ermenonville فىمنزل بديع له بالريف يحيط به الماء والخضرة •• الطبيعة التى أحبها روسو وعاش لها •• ولكنه لم يستمتع بمقامه هذا طويلا اذ ما لبث أن قضى فى الثانى من يوليه عام ١٧٧٨ غريبا فقيرا •• مريضا ، ودفن بارمنفيل فى جزيرة الحور L'Ile des Peupliers وهى جزيرة ســاكنة يلفها الهدوء الذى كان يحبـه فى حياته •• حيث زار قبره الزائرون ومن بينهم الملوك والعظماء والادباء ورجال الدين •

نقل رفاته :

حتى كان يوم ١١ من أكتوبر سنة ١٧٩٤ فنقلت رفاته الى البانثيون Panthéon فى احتفال كبير ـ فدفن أخيرا فى مدافن العظمـاء ليحج اليه الناس من أقاصى المعمورة فيحيون ذكرى ذلك الكاتب العظيم •• رســول الانسانية والداعى الى حريتها وخيرها •• مما أحله مقــاما عاليا بين من أسدوا الخير للبشرية •

هل الاحلام تتمة لـ « الاعترافات » و « الحوار » ؟

كانت قراءات روسو للروايات من كل نوع ولبلوتارك Plutarque بخاصة فى طفولته أثرها فى حذق ذلك العالم المثالى الذىعاش فيه روسو طيلة حياته فجعله عاجزا عن تقبل الواقع يرنو دائما نحو آفاق عاليــة تتجاوزه • ولقد سجل روسو على أول البطاقات (١) التى كان يدونعليها

---

(١) Henri Doddier : Les Rêveries du Promeneur Solitaire, P. XXI

خواطره « لم تكن حياتى كلها سوى حلم يقظة طويل تقسمه الى فصول جولاتى اليومية » .

والواقع أن كتب روسو جميعا كانت أحلاما ... كان روسو حساسا والانسان الحساس لا تترجم انفعالاته الى أعمال ولكنها تولد عنده طائفة من الخواطر والتأملات والاحلام وهذه — على ضوء ما يقوله ويبنيه لوسن René Le Senne (١) تولد فى الروح طموحا الى الرفعة واستنكارا للاوضاع مما يجعله دائب البحث عما يبرر شعوره ذلك . وفى الواقع أن روسو الذى وصفه « لوسن » بأنه حالم حساس استخدم طموحه فى الدفاع عن هذا العالم الخيالى المثالى الذى كان يعيش فيه منذ طفولته محاولا اشراك معاصريه فى هذا الحلم جاءت كتاباته كنتيجة لذلك تستهدف المثالية وتدعو اليها واذن فانه يمكن القول بأن أحلامه لاتنقسم الى فصول بل الى كتب كل منها ثمرة لسلسلة من الجولات والقراءات . واذا نحن أخذنا مثلا حديثه فى « عدم المساواة بين الناس » أو حديثه عن «العلوم والفنون ودورها فى تطهير أو افساد الاخلاق» أو «العقد الاجتماعى» Le Contrat Social أو «اميل» Emille نجد أن روسو فيها جميعا ينشد مثالية عالية فهو اذ يحلم بالقضاء على الظلم ويحلم بالعودة الى حالة الطبيعة الأولى التى تكفل وحدها اسعاد الانسان وتطهير روحه ويحلم بمجتمع سليم يقوم بناؤه على أسس صحيحة متينة من الاخاء والمساواة والمحبة ويخلو من تفاوت الطبقات ثم يحلم أخيرا فى « اميل » بتربية مثالية للطفولة تلك التربية التى حرم منها وحرم أولاده منها فكفر عنها بهذا الحلم الطويل لاسعاد الاطفال جميعا .

وأما فى « هلويز الجديدة » La Nouvelle Heloise فهو يحلم أيضا ، يحلم بالحب العنيف الصادق الذى لم يكن له منه فى واقع الحياة نصيب، فان روسو لم تكن له مع النساء جولات حقة لان طبيعته غير المستقرة وعدم قدرته على تنفيذ ما يصبو اليه فى حياته بعد أن يكون قريبا منه جعله دائما عاجزا عن تحقيق ذلك الحب الذى صوره فى « هلويز الجديدة » والذى يعتبر حلما من أحلامه الرائعة .. والانسان الخيالى الحالم يتحمس دائما لكل شيء جديد ولعل ذلك كان دافعه الى تحويل تعليم الموسيقى باستعمال طريقة رقمية .

الاحلام تتمة للاعترافات والحوار :

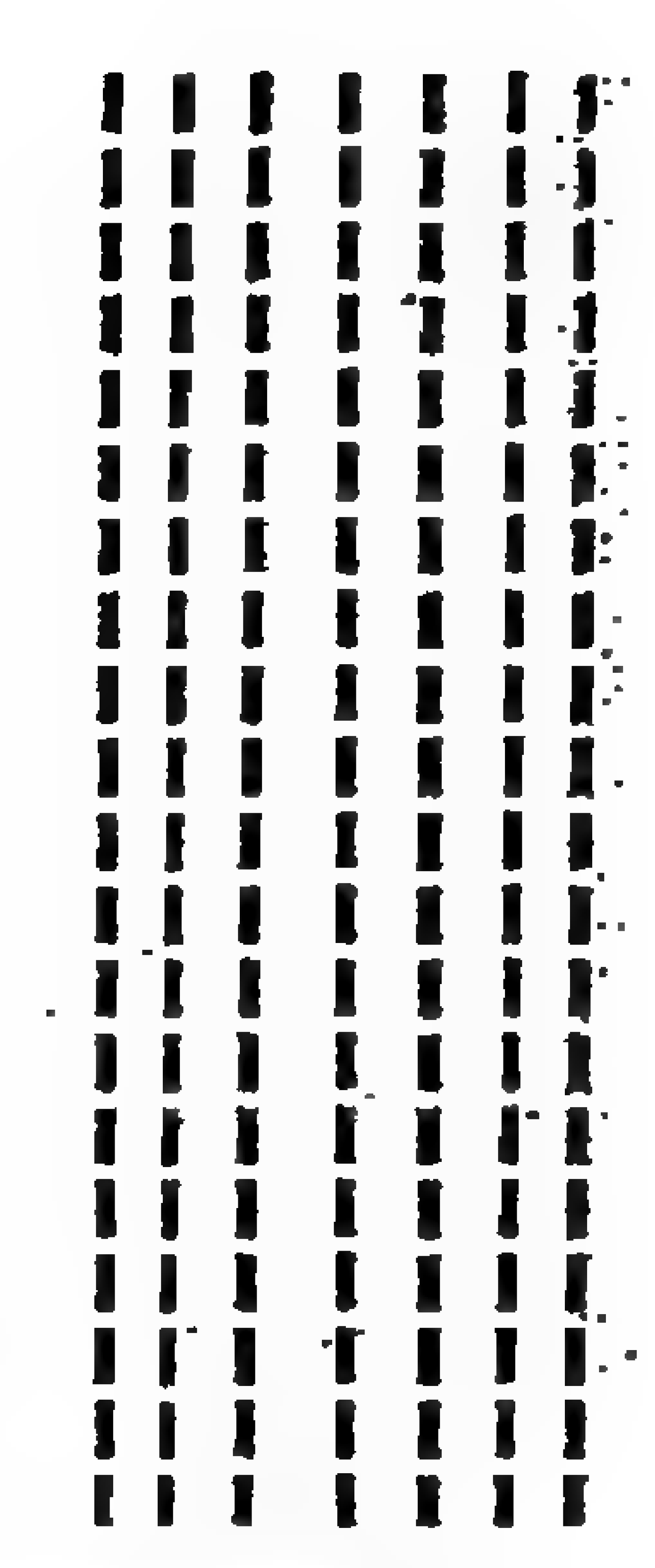
كانت الظروف جميعا مهيأة لاسعاد روسو الا ظرفا واحدا .. فقد كان يظن انه محاط بأعدائه يتابعون فى عناد مؤامرتهم ضده .. ولهذا كتب

(١) Traité de caractérologie : Presses universitaires de France, 1945, pp. 269 - 76 et 779 - 88.

« **الاعترافات** » و « **الحوار** » و « **الاحلام** » ليتخلص من تلك الفكرة التى استبدت به ،ذلك لان هجمات أعدائه ـ بالاضافة الى هجمات بعض أصدقائه القدامي ـ ولدت الشك فى نفسه ولو انه كان يحس فى قرارة نفسه بالرغبة في التأكد من ذلك الشك فكان يقول « انني أخشى أن أكون مذنبا فى قرارة نفسى » فى خطاب له الى « دافيد هيوم » Hume .سنة ١٧٦٦ .

هذا ولم تجعله كتابة « **الاعترافات** » يعيش طفولته وشبابه فحسب بل أنها أعطته شيئا من الثقة بنفسه وبمستقبله الملك يصيح فى مستهلها قائلا « فليكشف كل بدوره عن قلبه عند قوائم عرشك وبنفس الصراحة أسرار فؤاده وليقل ان جرؤ : لقد كنت خيرا من هذا الرجل » ولقد كان مقتنعا اذ ذاك بأن هذا الكتاب سوف يقشع الغيوم التي جمعها أعداؤه من حوله وبلغ اعتقاده حدا جعله يفكر في شيء واحد هو العودة الى باريس تحت رعاية البرنس دوكونتى Prince De Conti آملا أن يدافع عن نفسه عن طريق اعترافاته .. ولما كان قد تعب من حياة كلها عدم استقرار منذ عودته من انجلترا فقد فكر أن يعيش فى بلد بعيد ولكن رأيه استقر أخيرا على الاقامة فى باريس اذ كان يأمل أن ينتصر على أعدائه فيستعيد هدوء نفسه . وفى ربيع ١٧٧٠ عاد الى باريس لينتصر على المؤامرة التى كان يعتبر نفسه ضحية لها .. فقام بقراءات خاصة لـ « **الاعترافات** » وكانت الستة الاولى منها لا تحوى تعريضا بأحد فمرت بسلام أما الكتب الستة الاخيرة فقد تناولت بعض ذوى المكانة من أمثال مدام داپناى بالتعريض وسعت هذه لدى السلطات المختصة لايقاف تلك القراءات وكان لهذا المنع عواقبه الوخيمة على نفسية روسو فأسلمته الى أزمة طويلة .. كتب خلالها **الحوار** .. بعد أن فقد الأمل فى تعريف الناس **بالاعترافات** فى حياته.. وهكذا نراه يلجأ الى طريقة أخرى يظهر بها انه ضحية ظلم صارخ .. فتخيل ذلك الازدواج الذى كان يبرز جانبا من شخصيته فى « **الحوار** » ... وهذا العمل الادبى الطويل ليس ـ **كالاعترافات** ـ سردا متصلا لتاريخ حياته بل هو يعرض ثلاث محاورات من جان جاك بين رجل فرنسى وروسو تشير الى أن هذا الفرنسى برغم أنه لم ير الكاتب فى حياته ولم يقرأ له فانه يكرهه لا لسبب الا لانه يثق ثقة تامة فى الفلاسفة وافتراءاتهم اما الآخر ولو ان اسمه روسو فانه ليس روسو تماما بل هو عقل مستقل متزن لايعرف عن روسو سوى كتبه ويريد مع ذلك أن يدرس روسو نفسه .. وخلاصة الأمر أن روسو يحلل نفسه وأن روسو يحاكم جان جاك ويستمر الحوار حتى يبدو جان جاك نقى الصفحة طاهرا فى نهاية الامر . وفى هذا شفاء لغليله عن تلك الصورة المشوهة التى صوره بها اعداؤه ..

ويتضـــح من ذلك أن كلا من « **الاعترافات** Les Confessions ومن « **الحوار** » Les Dialogues كانتا تستهدفان تبرير تصرفاته وتوضيح موقفه وكذلك كانت « **الاحلام** » ومن ثم فأن « **احلام اليقظة** »Les Rêveries تعتبر بحق متابعة لهما وتتمة ·· انها تبدأ حيث انتهتا ·· وهو يشير أكثر من مرة فى « **الاحلام** » الى ذلك كما يشير الى صدق « **الاعترافات** » أو يحاول تصحيح بعض وقائعها أو يعتذر عن بعض اخطاء جاءت بها معللا اياها بضعف ذاكرته ·· لقد جهد روسو فى أن يهرب من مخاوف الاضطهـــاد وقد نجح الى حد كبير فقدت له بعد ذلك سذاجة الاطفال وبراءة مباهجهم ··· كان ميالا بفطرته الى العزلة فطغى هذا الميل على نفسه حتى غدا غير صالح للحياة فى المجتمع ·· بل ان مخالطة الناس أضحت بالنسبة اليه شيئا كريها يحرمه أحلى المتع وهى التأمل فى الطبيعة والانفراد بنفسه ·



تقديم للجولات

« احلام اليقظة » Les Rêveries هي آخر اعمال روسو الادبية اذ كان لا يزال يكتب مستهل الجولة العاشرة في الثاني عشر من ابريل عام ١٧٧٨ قبل مغادرته باريس للمرة الاخيرة بزمن قليل ٠٠ ويرى بعض النقاد أن الفكرة الاولى في تسجيل « احلام اليقظة » ترجع الى خريف عام ١٧٧٦ بعد مضي بضعة شهور على الحالة الصحية والنفسية التي استبدت به وغدا فريسة لها حين حاول أن يودع مخطوط الحوار Les Dialogues في كنيسة نوتردام Notre Dame ولكنه لم يفلح اذ حالت الحواجز دون ذلك ٠٠

وكان يعلم ان احلامه في سبيل الافول اذ كان يحس « بالبرودة تسرى فيها » وأنه كان يقترب من النهاية ٠٠

وقد كتب السبعة الاولى منها في خط صغير وان كان مقروءا ٠٠ وشاء كرم صديقه المركيز دوجيراردين De Girardin ـ الذي استضافه في آخر حياته بارمونتفيل Ermenonville حيث مات ـ أن يجمع في حرص وعناية كافة الأوراق التي خلفها روسو وسهل للناشرين بعد وفاة الكاتب الكبير نشر ثلاث جولات أخرى استخلصها من مسودات مجموعة في كراسة تشبه الاولى تماما .. هذا بالاضافة الى سبع وعشرين ورقة من أوراق اللعب مودعة في مكتبة نيوشاتل Neuchatel

بسويسرا كان يسجل عليها روسو افكاره خلال جولاته وتعد مرجعة للاحلام كذلك .

ولقد تدرج روسو خلال أعوام حياته في مختلف الحرف والاعمال.. واحتفظ لهذه الاعوام الطويلة بذكريات مريرة قاسية .. ثم أنتج خيرة ثماره العقلية .. وكانت له شهرة واسعة لها دوى .

كان ينسـخ الموسيقى وكان يكتب وكان يربط الاوراق بشرائط جميلة وكان يرتب النباتات بعناية كان يحيا بحواسـه ولكنه الآن في اخريات العمر أصبح يعيش على لون جديد من الحياة لم يمارسه في عمق من قبل وان اعتاده .. بدأ يحس احساسا قويا بالاصوات الرائعة والسماء الجميلة والريف البديع والبحيرات الفاتنة والازهار والعطور والعيـون الساحرة والنظرات الحلوة البريئة .. انه لا يزال يذكر زوايا مماثلة من ماضيه البعيد .. تنتابه الحسرة أحيانا على فواتها ويشده الألم أحيـانا اخرى لانه لم ينهل منها بقدر ما يطيق أو لانه لم يدركهـا الا بعد فوات الأوان ..

كانت الاستثارة الحسية تسلمه الى نشوة عاطفية .. وكانت الطبيعة تبدو له وكأنما هى كائن حى يزخر بالجنان فيرتمى بين احضانها ليجد أجمل العزاء .. كان الخيال فى صغره يلعب الدور الهام من حياته ، أما بعد ان تقدمت به السن فلم يعد له سوى أن يستسلم للذكريات .

ولئن تخللت هذه الذكريات بعض مظاهر الشذوذ العقلى فانه كان يستشعر فيها الهناء المطلق .. كان يحسه فى هذه اللحظات القصـار التى يجمعها فيها كما كان يحسها فى أعماق عقله الباطن تتصاعد فجأة فى لذة غامضة تستدعيها أمور عدة ..

ولئن قصر خياله أحيانا فانه أدرك كيف يحيى الذكريات أحيـانا أخرى .. ولئن ضاعت الاحداث فى غمار النسيان بفعل الزمن فان تداعى المعانى وبعض صفات معينة وبعض مظاهر الحرارة والضوء كانت كفيـلة باعادتها الى ذهنه . والواقع ان « **احلام يقظة جوال منعزل** » هى فى مجموعها مذكريات :

أهى ذكريات شيخ لماض بعيد غير كثيرا من نواحى الصورة فيه حتى لتمتزج الاسطورة والخيال بالحقيقة ؟

أم هى اعتذار عن بعض أخطائه ومحاولة لتبريرها أو الدفاع عنها ؟

أم هى تفسير لبعض ما مر به ؟ أم هى تسجيل لخواطر وخلجات هى ثمرة تجارب وتفكير رجل قدر له أن يفرض نفسه على الفكر الانسانى ؟٠٠

لقد كان يلذ لروسو أن يستمد من آلامه متعة وكان يردد أنه يعيش حقا فى « أيام الاضطراب والقلق » ان أشد الساعات ألما تحل فى النفس أعمق الآثار ومع الزمن تغدو ذكراها وهى تحمل فرحا لاذعا ٠٠ وتعاسة مع ذلك » ٠

- ومن عجب أن ذاكرة روسو تتوقف كذلك طواعية عندأيامه السعيدة وليس فى شيخوخته سعادة أكثر من الشهرين اللذين قضاهما فى جزيرة سانت بيير Saint-Pierre وكذا فى الشارميت Les Charmettes

لقد كف روسو بعد كتابة « الحوار » Les Dialogues عن الدفاع عن نفسه أمام مهاجميه وأعدائه فاستسلم لقدره ٠٠ ثم مال ٠٠ كعادته٠٠ الى العزلة ٠٠ الى الهدوء والاعتكاف ٠٠ كان يعلم أنه يقضى أيامه الاخيرة٠ مستشعرا دنو أجله ٠٠ فظل ينتظر الموت فى وقار ، يتجهز له ويعد ، للمرة الأخيرة حسابا يمثل به أمام الله ويستعيد ماضيه بما تخلله من لحظات سعيدة فيعيشها بذلك مرتين .

عاد اذن يمسك القلم ويعاود الكتابة دون ان يكترث بالناس ودون أن يهتم بما يدبرون بعد أن اعتزلهم الى عالم هو عالمه وحده لانه من خلقه ٠٠ فسطر بذلك صفحات رائعة فى موضوع جديد يتفق أولا ومزاجه الطبيعى ويعد أخيرا خيرة انتاجه قاطبة ٠

بل ان عنوان هذه الصفحات التى أتناولها بالترجمة والتعليق تكشف عن روحه تماما . . ان فيه لوما وعزاء . . لوما يوجهه الى من اكرهوه على الانفراد والعزلة . . وعزاء له فى تلك الاحلام الحلوة يحلق فيها فى حله وتجواله فتعوضه فى سخاء عما حرمه منه معاصروه من هناء وراحة .

لقد ضاق المسكين بقسوة الناس فاعتزلهم وباعد ما بينه وبينهم وراح يضرب فى الخلاء منفردا بنفسه ، مستمتعا بالطبيعة مدركا للخالق مستغرقا فى أحلام طويلة يسترجع بها بعض أحداث ماضيه ، مناقشا اياها فى ضوء الهدوء الذى يلفه والسكينة التى تحيط به ٠٠٠ لقد أعادت هذه الذكريات الشيخ الى نفسه فكانت تعبيرا عن حقيقة حياته ٠٠ وهى حياة حواسه وقلبه ٠٠ أما الاحداث والعالم الخارجى فلم تعد بعد شيئا مذكورا بالنسبة له ، انها لم تعد سوى فرصة للاستمتاع ووسيلة للتفكير ٠٠ وهكذا

تحققت له اخيرا الحياة المثالية التى طالما تاق لتحقيقها وهى العالم الذى صاغه لنفسه .. خياله ..

فالاحلام على هذه الصورة ليست موضوعا واحدا بل هى مجموعة من الخواطر والخلجات ترابطت أحيانا وتباعدت احيانا أخرى شأنها فى ذلك شأن الخواطر دائما حين تقوم على نبش بعض أحداث الماضى البعيد .

وهاك الجولات مرتبة كما جاءت فى مختلف المراجع أقدمها معلقةعلى فحواها :

الجولة الأولى

تعد هذه الجولة مقدمة للكتاب كله ٠٠ فيها يبدو روسو راضخا لحكم الأقدار وقد عادت اليه السكينة والهدوء ـ وهما نسبيان اذا ما قورنا بما كان عليه من اضطراب ويأس ٠٠٠ سيدافع مرة أخيرة عن نفسه ويبررها أمام مضطهديه ويدرس نفسه . وهو يسجل احلام يقظته التى تعرض له أثناء جولاته المنفردة ٠ ولكنه يقرر هنا أنه انما يكتب رغبة فى الكتابة ورغبة فى قراءة مايكتب فيما بعد فيجد متعة فى ذلك ويحيا بذلك مرتين ٠٠ لا من أجل أجيال قادمة وفى ذلك تختلف فى اعتباره عن الاعترافات Les Confessions وعن الحوار Les Dialogues ولو أن الاحلام Les Rêveries تعتبر ملحقا للأولى ٠٠

« هاأنذا وحيد فى هذه الدنيا لم يعد لى أخ أو قريب أو صديق أو صحبة سوى ذاتى » : بهذه الكلمات التى تفيض حسرة وألما بدأ روسو بناء مؤلفه وهى تكاد تكون عتابا يوجهه الى الانسانية التى الجأته الى الانفراد والعزلة ٠٠ انها صرخة نفس معذبة جريحة يتنازعها الألم والكبرياء ٠٠ ولكنها الآن

في سكينة لم تخل تماما من آثار العاصفة ، فان تلك السكينة لم تمنعه من أن يتحسر على مصيره ومن أن يتذكر المحن التي قاستها نفسه المرهقة .. أما وقد انفصل عن الناس رغما عنه فهو يسـائل نفسه « من أكون انا نفسي ؟ » أي انه عن طريق اعدائه يود التوصل الى معرفة ذاته ..

ماذا كان ينشد لدى الناس ؟ لقد كان ينشد في كل منهم أخا واذا لم يوجد هذا الأخ فقريب والا فصديق أو على أقل تقدير صاحب .. وهو اذا فقد كل أمل في الصلح مع الناس يذعن ويرضخ للأقدار ولكن تتخلل هذا الاذعان ذكريات أليمة تعود به خمسة عشر عاما الى الوراء ، ولما كان روسو يكتب هذه الجولات عام ١٧٧٧ فهو اذن يشير الى عام ١٧٦٢ أي الوقت الذي أحرق فيه كتابه اميل Emile وحكم بالقبض عليـه والى ما كان من رجم بيته وهربه بعد ذلك وعدم استقراره .. وهي مرحلة كلها خوف وقلق وآلام واذلال لايستطيع أن ينساها هنا .. هو الذي يريد أن ينسى الناس وشرورهم .. لقد جعلوا منه سفاكا وقاتلا وأهالوا عليه كافة ألوان المهانات والاذلال .. هو من خلق أشد الناس حبا للناس .. ولكنهم بذلك استنفدوا كل حيلهم دفعة واحدة ولم يعد لديهم من مزيد .. لذلك هو مطمئن ما داموا « قد فعلوا كل شيء » بل انه سيهزأ بهم ومن بغضائهم .. فلا سلطان لهم عليـه بعد .. ولكن من هم مضطهدوه ؟ أولئك الذين جعلوا الحياة في عينيه سوداء قاتمة .. وهل كان هناك حقا اضطهاد قبل روسو ؟ في الواقع انه اذا ما كان للخيال نصيب في هذا الاعتقاد فان نصيب الحقيقة فيه كبير فـلا يجب أن ننسى ديدرو Diderot وتدبيراته ، وجريم Grimm ومدام دابنـاى Mme d'Epinay التي انساقت له والتي رمت روسـو بالجحود والانانية ، وفولتير Voltaire الذي كان ينتهز المنـاسبات لغمزه والتنـدر بآرائه والتشـهير به .. والكنيسـة في جنيف Genève ومجلس شيوخ برن Berne والأطبـاء الذين عرض بهم في كتاب اميل Emile . والسلطات التي حـرمت الاسـتمرار في قراءة الاعترافات .. كل ذلك بذر الشك في نفسه من ناحية كل من يحيطون به حتى أصدقائه .. وجعله يرى من حوله مؤامرة عريقة محبوكة الاطراف لهدمه والقضاء عليه ..

وهو يشير في هذه الجولة الى أنه ـ فيما مضى ـ كان يأمل في الناس ولكن قضى على هذا الأمل منذ شهرين حادث مؤسف غير متوقع .. مشيرا الى محاولة ايداعه مخطوط الحوار في الكنيسة .. وفشله في ذلك مما

أسلمه للهياج والاضطراب . ثم أخيرا ، وبما يشبه المعجزة ، الى الهـــدوء والســـلام بعد أن أقنع نفسه أن الله تدخل لمنع وقوع مخطوطه في أيدى أعدائه المتربصين به ··

ولكنه يمضى فى انفصاله عن الناس فيقول : « لم يعد هناك ما آمله أو اخشاه فى هذه الحياة ؛ كائنا مسكينا تعسا لكن صامدا كالاله نفسه » أى انه فى غروره يشبه نفسه بالله تعالى ·· وهو بعدئذ يشير الى الهدف من كتابته ·· السجل الذى يتقدم به يوم الحساب الى الله ··· وهو فى ذلك يختلف عن الفلاسفة الملحدين ·· انه يؤمن بالله وباليوم الآخر وهو « يكتب لنفسه ليعيش مرتين » ولكن أصحيح ما زعم ؟ اننا اذا سلمنا أن **أحلام اليقظة** Les Rêveries هى المتعة الحقة لروسو وأن التخيل سـلوته الوحيدة لكان من الممكن أن نرى روسو يكتب يوميا ·· كتابة ينقصهـــا هذا التكامل والجمال والموسيقية التى امتازت بها **الاحلام** ·· ولما كان هناك الحذف والكشط والتصحيح ووضع كلمات مكان أخرى كما وجـد المخطوط الأصلى **للأحلام** بنيوشاتل بسويسرا ، ولكنها الرغبة المستترة التى دفعته الى الدفاع عن نفسه وتبرير مواقفه هى التى وجهته الى هذه الناحية ·· انها تكملة للاعترافات ولكنه لن يستطيع أن يعطيها العنوان نفسه لانه لم يعد لديه ما يعترف به ومن يعترف اليه ·· وقد انقطعت صلاته بالناس جميعا · لا · بل انه سيجرى التجارب على نفسه ويسبر أغوارها بعناية ويدرسها ويعمل مثل مونتانى Montaigne ولكن «مونتانى» كان يكتب للآخرين أما هو فلنفسه ·· وهو أخيرا لن يهتم بمصير هذا المخطوط **الاحلام** ·· كما اهتم بمصير **الاعترافات** Les Confessions والحـوار Les Dialogues حينما أراد أن يخفيهما عن أعدائه ومضطهديه .

وهكذا نجد فكرة الاضطهاد ترد على لسان روسو مرات كثيرة فى هذه الجولة . أن فيها من **الحوار** Les Dialogues الكثير ، تتردد فيها نفس المعانى والافكار ·· تلك حالة روسو النفسية فى هذه الجولة : أن الكاتب الذى اعتزم أن يقضى بقية أيامه فى عزلة ووحدة والذى يؤكد أنه يكتب هذه المرة لنفسه لا يستطيع أن يمتنع عن أن يبحث عن أسانيد وأسباب تبرر هدفه .. وهو الذى بالرغم من جهوده فى مخالجة نفسه وعزمه ·· لاتفتأ ذكرى الناس وصور حقدهم تعاوده وتشقيه ·

ومما يجعل **للاحلام** وبخاصة فى هذه الجولة هذه اللهجة المؤثرة هو امتزاج الدفاع فيها بالتحليل النفسانى وبالذكريات ·



وأهمية هذه الجولة كبيرة لامن ناحيـــة قصة حادث منيلمنتان ـ وهو محورها ـ فحسب بل من ناحية الحـالة النفسية لروسو على أثر الحادث ٠

أثناء عودة روسو من احدى جولات الاستعشاب اصطدم به كلب دنموركي كبير بجميع جسمه وهو يجرى فى سرعة فائقة فوقع روسو على الارض وأصيب اصابات جسيمة فى وجهه ويديه ٠

كان ذلك الحادث فى٢٤ من اكتوبر سنة ١٧٧٦ فى ضاحية منيلمنتان Menilmontant من ضواحى باريس ٠ أما هـــذه الجولة فقد كتبها فى ديسمبر أو يناير ذلك لان زوننو ينوه بما كتب عنـه فى كوريـيــه دافنيون Courier d'Avignon فى يومى ٣ و ٢٠ من ديسمبر أى بعـــد الحادث ، بعد فترة نقاهة وبعد أن انقضت أسابيع طويلة لكنها مع ذلك ليست بعيدة جدا عن الحادث فهو يستطيع أن ينقل الينا الحوادث بدقة

كما أنها بعيدة عن الصدمة نفسها بما يكفي لان يحلل روسو الانطباعات التي خلفتها وترتيبها وتنظيم كتابتها في هدوء ٠

بدأها من حيث تنتهي الأولى ٠٠ بمقدمة طويلة يصف لنا مدى استعداد نفسه للمشروع الذي عرضه في الجولة الاولى وهو ملاحظة نفسه « علميا » اذ يثبت « البارومتر » على أعماقها ولكنه يأسف اذ لم يفطن الى عمل ذلك من قبل ، قبل أن تختفي ملكته الخالقة وبعد أن بات يحس « بروح الحياة تذوى فيه تدريجيا » فهو يدرك أنه شارف تلك السن التي يضعف فيها التخيل لتقوى الذاكرة فالانسان يعيش اذن على رصيده من الماضي لعجزه عن أن يتجدد وأن يخلق ٠٠ وهو يتحدى أعداءه ومضطهديه بل يمضي في سخريته بهم فيقول : انه لولاهم لما استمتع بتلك اللحظات من السعادة ومتعة التأمل وبالتالي لما نسى تعاسته وشقوته وهو يبدو هنا وكأنما يقول لهم « موتوا بغيظكم لن تنالوا مني بعد ولن آبه بكم » ٠٠

ولكن لئن ترتب على ذلك الابتعاد عن الناس والاحساس بالهدوء بعيدا عنهم شيء من السكينة وشعور بالانتصار فان فرحته بهما تمنعه من أن يلاحظ حالته النفسية كما أراد وعجزه عن الخلق والتجديد يجعله عاجزا أيضا عن أن يحلل نفسه ٠ وهو يصف لنا تلك الحالة بدقة في جملة واحدة فيقول : «واني اذ أريد أن أسترجع أحلاما حلوة أراني أستسلم لها مرة أخرى بدلا من أن أصفها » وهو في ذلك يشبه رجلا يريد أن يسجل آثار الكحول عمليا مثلا فيشربه حتى لا يعود يتذكر شيئا بالمرة » ٠

ولكن الجديد هنا هو تحليله لآثار الحادث واشارة الى بعض ما قيل عنه بعده وما انعكس من ذلك على حاله المعنوية ٠ انه يذكر كل شيء في كثير من الدقة ، يذكر خط سيره ويذكر التاريخ كما لاينسى أسماء الزهور وفصائلها ولا الانطباعات المختلفة التي سبقت الحادث والتي أعقبته وفي كل ذلك شيء من التعارض مع ماقرره لتوه من عجزه عن الملاحظة الذي يشكو منه ٠

ان حادث اصطدام روسو بكلب كبير ، نتجت عنه بعض الاصابات ؛ حادث عادي في ذاته لكنه ولا شك يحتل حيزا كبيرا هاما في ذهن انسان كروسو يحس اضطهاد البشر له فيعذبه ويظلم حياته ٠٠ ولعل مالابس تلك الحادثة من قصص وأقوال وكثير منها ان دل على شيء فانما يدل على روح شامتة ساخرة مما يزيد الطين بلة اذ يبلغ تشكك روسو ذروته فلا يعود يثق بأحد حتى بأولئك الذين يودون أن يقدموا له الخدمات ، فقد

أشيع انه مات ، وقيل انه أحسن اذ فعل كنا اختلفت الآراء في تفاصيل الحادث نفسها ولعل بعض الشامتين الساخرين كانوا أولئك الذين ينتظرون في قلق بالغ ظهور مؤلفه « الاعترافات Les Confessions وفيها الكثير مما يكشف نواحي يحرصون على اخفائها .

نشرت جريدة الكوريه دافنيون Douvier d'Avignon في ٣ ديسمبر عام ١٧٧٦ خبر الحادث فقالت « لقد أوقع كلب دانمركي روسو منذ بضعة أيام وهو مريض جدا نتيجة لسقطته » وفي العدد التالي كانت تكتب عن موته قائلة « لقد عاش فقيرا ومات حقيرا » ثم تصفه ككاتب فصيح لا يجب أن يتكلم الانسان عن مواهبه لانه « أساء استعمال تلك المواهب » .

قد تثير هذه الكلمات أكثر الناس هدوءا فما بالنا بروسو وقد زادت صدماته واحدة بفضل كلب يملكه أحد الاغنياء .

أرسل له من يدعى مسيو لنوار M. Lenior يعرض عليه خدماته عن طريق سكرتير له ومعجبة هي مدام دورموا Mme D'Ormoy بعثت اليه كتابا يتضمن مديحا لشخصه فرفض عروض الاول وكانت القطيعة بينه وبين الثانية .

وقد كان من الجائز أن تتغير نظرته للناس ولو قليلا لو انهم أبدوا نحوه في تلك المناسبة شيئا من الود والعطف والرعاية فهو انسان حساس طيب القلب ، ولكنهم لم يشاءوا الا أن ينفروه بقسوتهم عليه . انه يتألم ولكنه يتقبل الألم تقبل المؤمنين بالله فيقول «ان الله عادل ولكنه يريد أن أتألم وهو يعلم أني بريء» .

- ومع ذلك فقد كتب روسو لنا تلك الجولة المرتبة في أفكارها الصادقة في تحليلاتها اذ تعد نموذجا للانشاء القوى البديع المنظم .



كما ان هناك فكرة تصل الجولة الاولى بالثانية ، هناك واحدة تصل هذه بالثالثة مما يجعل من هذه الجولات الثلاث موضوعا يكاد يكون مترابطا تماما .. وعنوان هذه الجولة «انى أشيخ ولا أزال أتعلم» يشير بذلك الى بعض ماجاء بها .

ونحن اذ نجد فى نهاية الثانية هدوءا لم يصل اليه روسو من قبل ولكنه انتهى اليه فى احساساته وذهنه واستمده من استسلامه لكل أنواع الاضطهاد ولمشيئة الله نرى هنا الهدوء الفكرى والنفسى الذى استقر عليه نتيجة لاعتناقه بعض المبادىء الاخلاقية ولصلاحه لنفسه ووضع أسس لعقيدته وسلوكه .. ومن هنا كانت هذه الجولة على قدر غير يسير من الاهمية .

يستهلها بمقدمة هى تأمل فى الشيخوخة عموما وفى شيخوخته خاصة وفى نوع المغانم الفكرية أو المعنوية التى تلائم تلك الشيخوخة ويشفعها بحقائق عادية لكنها تغدو هامة اذ يطبقها روسو على نفسه فتتخذ بذلك طابعا شخصيا ..

منها أن الانسان يتعلم معرفة الناس متأخرا فهو لذلك لا يفيد من تلك المعرفة ، وانه يجدر به حتى يسعد فى حياته ان يجهل ما قد يحزنه ، وان الوهم خير من حقيقة رهيبة ، وأن علم الحياة تهيئة للموت ·· وأخيرا أن الشيوخ يتعلقون بالحياة أكثر من تعلق الشباب بها ·

تلك الوقائع وان كانت عادية كما قلنا الا أنها تلقى الضوء على فلسفة روسو فى الحياة ·· انه يرى أن الشيخوخة هى وقت تعلم أشياء مفيدة هادفة ، فلا يترجم بعضهم مثلا كتابا أو يقوم بأبحاث فى الرياضة · انه هو ذاته حين يمارس جميع النباتات فلأنه يطبق ذلك تطبيقا مفيدا ويتريض فى الهواء الطلق فى الوقت نفسه · وهو اذ يرى فى سعادة الانسان جهله بما قد يحزنه يطبق ذلك على نفسه فيقول : «لقد كنت مغفلا وكنت ضحية لهم لكنى كنت أظننى محبوبا منهم وكنت أستمتع بتلك المحبة التى أوحوا بها الى» ·

واذا ماقال ان الوهم خير من حقيقة رهيبة نحس أنه لابد وقد بذل جهدا كبيرا ليقول ذلك هو الذى يقرر أنه أشد الناس حبا ومراعاة للحقيقة مهما كانت. وندرك مع ذلك تألمه البالغ لتلك الحقيقة وعمده الى الهروب منها ··

وأما الحقيقة الرابعة فهى تنطبق عليه الى حد كبير فانه برغم ايمانه العميق يلاحظ بنفسه أن فكرة موته لاتحتل الا حيزا صغيرا من تأملاته ·

والحقيقة الخامسة مصداق لما يفعله روسو نفسه فى هذه « الجولات » انه يحاول العودة الى الماضى يستعيده «ليحيا بذلك مرتين» كما يقول ·

ثم هو يتناول بعد ذلك ثلاث مراحل من حياته مرحلة قبل اصلاحه لامور نفسه وأخرى خلاله وثالثة حين تم ذلك الاصلاح ·

فهو يتكلم عن نشأته بين أناس يدينون بالتقوى أى أسرته ومعلمه (مسيو لامبرسيية M. Lambercier) ثم مدام دوفواران Mme de Warens التى أنارت له طريق المعرفة وملأت قلبه بمشاعر الود والتقوى · والواقع أن تلك النشأة لم تكن دائما تسليمة لاتشوبها شائبة فنحن نعرف أباه وكيف أنه علمه كيف يقرأ القصص والروايات قبل الكتب الجادة وهو لما يزل طفلا صغيرا ثم لم يلبث أن هجره ، وأما القس لامبرسييه Lambercier فلم يكن دائما فوق مستوى الشبهات ومع أنه علم الطفل تعاليم الدين

البروتستانتي الا أن هذا سرعان ماتحول الى الكاثوليكية في يسر على يدى مدام دوفوارازMme deWarens التى كانسحرها وعطفهاأقوى لديهاذ ذاك من كل دين فنجده يقول في «الاعترافات» Les Confessions «وقلتفي نفسي ان دينا يدعو اليه مثل هؤلاء الرسل لابد مؤد الى الجنة » .

وهنا عبارة تستحق التفسير انه يقول : «لقد تحولت الى كاثوليكي ولكني بقيت مسيحيا» لاريب أنه يعني هنا بالمسيحية الايمان أى انه لايجد تفرقة بين الكاثوليكية والبروتستانتينية . وعلى ذلك يمكن القول ان ديانة روسو كانت في قلبه فحسب وهى دين طبيعى لا يتقيد بمراسيم ومظاهر ولا يهم فيه أن يعتنق مذهبا بعينه .

يقول روسو أنه كان قد حدد سن الاربعين كمرحلة لاصلاح حال نفسه خارجيا وداخليا ، ولما كانت تلك الفترة من حياته هى التى تلى حديثه عما «اذا كانت العلوم والفنون قد ساعدت على تطهير العادات» فقد أحس ضرورة تطبيق آرائه على نفسه أولا ليكون متمشيا معها وحتى لايبدو أمام الناس متناقضا مع مايكتب .. فتخلى عن كل زينة «فلا ساعة ولا سيف ولا حلى ذهبية بل رداء سميكا من الصوف» ولكن للاسف لم تزد تلك الخطوة الفلاسفة الا دهشة وتعجبا بل انهم اعتبروه مجنونا وبخاصة ديدرو Diderot اذ يبدو على تلك الحال من التقشف وهو على أعتاب الشهرة .

وكان ذلك أحد أوجه الخلاف بينه وبين الفلاسفة الذين يسميهم بـ «السفسطائيين» والمعروف أن السفسطائيين Sophistes وهم قوم اشتغلوا بالفلسفة قديما كانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء وينادون بأنه يجب أن يتحرر الانسان من القانون الاخلاقي وأن يساير الطبيعة وهى عندهم الشهوة .. ثم جاء من بعدهم سقراط Socrate وافلاطون Platon وارسطو Aristote الذين هاجموا تلك الطبقة من السفسطائيين . وكان الأخير ــ اى أرسطو ــ يعتبر الانسان عقلا وحسا ؛ وعلى العقل أن يسيطر على شهوات الحس والجسم وأن يضع القانون الخلقي الذي ينبغي أن يسير بمقتضاه سلوك الانسان ولعل روسو هنا وقف من فلاسفة عصره موقف أرسطو من السفسطائيين قديما .

لقد أحس فى تلك الفترة بثقة فى نفسه جعلته يؤمن بمواهبه فى الكتابة وكانت العزلة بعيدا عن صخب المجتمع ضرورية لتنمية تلك المواهب ومساعدته على التفكير فى هدوء وتأمل فابتعد عن الناس واعتكف .. ولكن أثار ذلك فضولهم لمعرفة سر اختفائه . ولقد بين لنا روسو فى «الاعترافات» Les Confessions الظروف الخارجية لهذا الاصلاح الخلقى فقال : انه كان

يعيش طيلة الوقت في الغابة « كنت أبحث فيها وكنت أجد فيها صورة العصور الاولى التي كنت أسجل في فخر تاريخها .. وكنت أقارن بين الانسان صنعه الانسان ، والانسان صنعته الطبيعة » .

وفى تلك الاثناء كتب حديثه عن عـــدم المســـاواة بين النـــاس
Discours sur l'inégalité parmi les hommes.

كانت الطبيعة والعزلة عنده مصدرا للفضيلة وعن طريقهما يلتقى بالله وبضميره .. ولكن كان هناك أيضا ميله الى العزلة اذ ذاك لانه كما قال هنا « بدأت أحس (بالمؤامرات تحيط بى) تدريجيا » .

ولكننا هنا حيال نفسية معقدة هى نفسية روسو التى أســهم فى تعقيدها البشر والاقدار على السواء لذلك كان من العسير سبر أغوارهـا وتبين دوافعها الخفية فى وضوح .

وأما نتائج ذلك الاصلاح فقد ضمنها كتابه «اشهار عقيدة كاهن من سفوا» La Profession de foi du Vicaire Savoyard ولكن على أى أساس اقام تلك العقيدة ؟.. « انها مبادىء يمليها على روسو احساسه الذاتى . هذا الحس المستتر فيه ، ذلك الالهام الذى ينبعث من أعماق قلبه والذى طبعته الطبيعة بحروف لاتمحى » .

انه يعتقد فى وجود اله منظم للكون وفى أن الانسان حر واذن ففى امكانه أن يذنب وان يجلب الفوضى والاضطراب فى عالم كان كل شىء فيه مهيأ لسعادته .

وهو يعتقد فى خلود الروح ويفترض أنها لاتموت فيقول « ما دام ذلك الافتراض يعزينى ولا يتضمن شيئا من عدم التعقل فماذا أخشى من تسليمى به » ولذلك يتعلق بأهداب عقيدته تلك التى تقول له « كن عادلا تكن سعيدا» .

وعنده أن الوازع الأخلاقى لا ينفصل عن العقيدة الدينية وهو لا يؤمن بالوحى ولا بالمعجزات .

وهكذا نجد روسو فى حاجة الى أن يعتمد على احساسه الذاتى وعلى منطق قلبه حتى تتكامل أركان عقيدته .

وفى نهاية هذه الجولة نجد روسو وقد عاد الى الفكرة الاولى التى

استهلها بها ٠٠ انه يكرس اخريات أيامه لدراسة أكثر فائدة وأكبر قيمة هي دراسة نفسه والتزامه لفضائل يساعده عليها تجرده من جسده الذى يغشى عينيه عساه أن يخرج من الحياة بميتة هادئة طيبة تكفر عما قاساه فى أيامه من شقاء ٠

ولكن هذه الثقة وهذا الهدوء نراهما وقد اعتراهما بعض القلق والاهتزاز فى الجولة التالية الرابعة ٠٠ حيث يعرض مسألة الكذب ٠

الجولة الرابعة

فى هذه الجولة جدال طويل حول الكذب والحقيقة وهى تقل عن سابقاتها فلسفة وعمقا ولكنها تعكس مع ذلك حالة روسو الذهنية المعذبة • انه لايزال يخاف عـــذاب الله فهو يحاول أن يبرر اخطاء له فحواها الكذب فى قالب دراسة أخلاقية • ولهذه الجولة ــ كما لمعظم الجولات ــ نقطة بداية هى فى هذه المرة كتاب تلقاه من الاب روزييه L'Abbé Rozier وترجع الصلة بين روزييه وروسو الى عام ١٧٦٨ « قام معه بجولات استعشاب طويلة كان من شانها تقوية الروابط بين هذين الفيلسوفين»(١) • لما بينهما من توافق فى الطبــاع والميول • بدأ روزييه هذا الكتاب بفقرة جاء فيها : «الى الرجل الذى يكرس نفسه للحقيقة» وبدلا من أن تمر هــذه الفقرة ببساطة يرى روسو فيها هزءا وسخرية به وتعريضا بشخصه ومنشأ ذلك بلا ريب هو الشك الذى استولى على نفس روسو فى السنين الاخيرة من ناحية أصدقائه جميعا • ولكنه لايتشكك فى روزييه Rozier فحسب بل يعتبره عدوا له • وهو فى

---

(1) M. Mongiond : Vies Préromantiques, p. 87—88.

هذا يلجأ الى كتاب من أوائل الكتب التى قرأها فى طفولته يقول : انه لا يزال يتـــابع قراءته فى أواخـر أيامه ٠٠ وهـو بلوتارك Plutarque الذى كتب عن « طريقة افادة الانسان من أعدائه » ٠

وهو ـ على ضوء ما فهمه من كتاب الاب روزييه ـ يبدأ بفحص نفسه من ناحية الكذب ٠ ويروى هنا حادثا وقع له فى صباه سبق أن رواه كذلك فى الاعترافات Les Confessions هو حادث سرقة الشريط واتهامه ظلما الخـــادمة ماريون Marion ذلك الحادث الذى ظلت ذكراه تؤرقه طيلة حياته ٠ وهو هنا أيضا يصفى نفسه من بعض ما جاء مخالفا للحقيقة فى « الاعترافات » من ناحية التاريخ مثلا أو بعض التفصيلات الصغيرة معللا ذلك بأنه لم يكن يبغى الكذب عامدا وانما صدر ذلك عن ضعف فى ذاكرته جعله يضع بعض التفصيلات التافهة موضع تفصيلات أخرى مثلها ٠

ولكن لم كان روسو يولى مسألة الكذب كل هذا الاهتمام ؟ لانه على مبدئه فى الحياة وهو «تكريس نفسه للحقيقة» يترتب تصديق كل ماجاء فى دفاعه عن نفسه فى « الاعترافات » وفى « الحوار » و « الاحلام » كذلك ٠

والواقع أن روسو فى الاعترافات وفى الحوار أيضا لا نراه يكذب الا فى القليل النادر وفى أمور صغيرة أو لاقيمة لها ٠٠ بل انه فى منازعاته مع الفلاسفة مثل فولتير Voltaire وديدرو Diderot وغيرهمـا كان يلتزم الصراحة المطلقة بل كان يلتزم الجانب المضاد لصالحه أحيانا ومثال ذلك مسلكه من مدام دابناى Mme d'Epinay نفسها حين أبى أن يصحبها فى سفرها وما تلا من خروجه من عندها وحرمانه من العزلة التى كان يهواها فى الأرميتاج L'Ermitage ويعزى ذلك الى حاجته الى الصراحة دائما من ناحية والى انه يجب أن يكون مستقلا حرا من ناحية أخرى ٠

ثم يستمر فى تأملاته فيتابع جدلا منطقيا حول الكذب يتناول فيه تفرقات وتقسيمات وتدبيرات على جانب من الابهام أحيانا ٠٠ وفى رأيه أن الانسان لايجب أن يكذب فى أشياء ذات أهمية ولكن يمكنه أن يفصل ذلك فيما لاقيمة له وفيما لايترتب عليه ضرر بنفس الشخص أو بغيره ٠ ومع ذلك فالحقيقة عموما هى الفضيلة الاولى يجب اتباعها فى كل الاحوال ٠

وروسو فى هذه الجولة ليس مسوقا برغبته فى ايجاد تعريفات مختلفة للكذب وظروفه فحسب بل انها الرغبة الخفية فى تبرير تصرفاته والتخلص من تأنيب ضميره هى التى تدفعه دائما اليها ٠

وهو يقارن كذلك بين من يسمى نفسه الانسان الصادق .. وهو الفيلسوف .. وبين الانسان الذى يعتبر فى نظره هو صادقا ومخلصا حقا ، الشغوف بالحقيقة والصدق .. انه يحاول هنا التخلص من خطاياه بالقائها على الفلاسفة وهو يواسى نفسه بقوله : ان العدالة والحقيقة فى ذهنه مترادفتان وهو عادل يتوخى العدالة . واذن فهو صادق يتوخى الحقيقة أيضا .

ولكنه برغم كل هذه الجهود يحس أن سكينته ليست كاملة فهو يقول : «ولكن لا أزال أحس ان قلبى ليس راضيا عن هذه التفرقات لدرجة أعتقد معها انى غير مذنب» ولكن يعزى نفسه بالفكرة التى استهل بها الجولة الثالثة كما اختتمها بها وهى أن الشيخوخة هى وقت استكمال الفضائل .. فهو اذن ماض فى اكتساب تلك الفضائل حتى آخر يوم له فى الحياة .

وهكذا نجد أن هذه الجولة الرابعة متاهة منطقية مليئة بالتخريجات واللف والدوران وتنم عما يعتمل فى قرارة نفسه من ندم وأحساس بالذنب يلاحقه ويؤرقه .

وكأنما تعب من تلك الحيرة فنجده يطلع علينا بالجولة الخامسة يستعيد فيها أياما سعيدة . قضاها فى جزيرة سان بيير Ile de Saint-Pierre معتزلا للناس بعيدا عن التفكير الذى يضنيه ويرهقه .

الجولة الخامسة

قد تكون هذه الجولة أهم الجولات جميعا سواء من ناحية الوصف الرائع لجزيرة سان بيير Saint-Pierre أو من ناحية فلسفة جان جاك روسو لفكرة السعادة .

وقبل أن نبدأ في تناول ماجاء بها نقدم بملاحظة صغيرة على أن هذه الجولة من ناحية موضوعها تماثل تماما شطرا من «الاعترافات» Les Confessions (الجزء الثاني ـ الكتاب الثاني عشر) اذ يتناول تقريبا المعلومات التي ترد هنا بل وغالبا نفس الالفاظ ولو أنه سرد ذلك في «الاعترافات» بنظام يختلف تماما . ولكن لم فعل ذلك ؟ أهو جدب في تأملاته وتخيلاته ما جعله يعاود كتابة ما سبق أن أورده في أماكن فينقل عنه وعن نفسه مرة اخرى؟ ونحن نعرف أن روسو لايحب أن ينقل شيئا سبق عرضه ، سواء كان له أو لغيره .. اذ نراه يسرد أحيانا أقوالا لكتاب آخرين بشيء من التحريف معتمدا على ذاكرته دون أن يلجأ الى أصل ماكتب ذلك الكاتب لا لشيء الا لأنه لا يحب النقل والتقليد .. ألم يكن يجدر به أن يحيا في

نفسه ذكريات أخرى سعيدة لم يطرقها من قبل ؟ من هنا يتضح لنا عمق الأثر الذى خلفته فى نفسه اقامته فى تلك الجزيرة الحبيبة الى نفسه بطبيعتها وعزلتها وهدوئها ·· انه لم يعد يذكر عنها الا الخير والهناء ·· فى حين أنه فى « الاعترافات » يسوق وصفها فى اطار من التنقل والاضطهاد الذى يميز تلك المرحلة من حياته ·

واذن فالهدف من هذه الجولة الخامسة هو تعريف السعادة التى استمتع بها مستخلصا من وصفه للمكان الذى استشعرها فيه - وفى الجزء الاول من هذه الجولة يصف الكاتب الجزيرة وطبيعة الحياة التى كان يحياها فيها ·· اما فى الجزء الثانى فخواطره وآراؤه عن السعادة ومعناها ·

وهو يستهلها لا مستذكرا جزيرة سان بيير Saint-Pierre فحسب بل اماكن أخرى بديعة عاش فيها · ولا ريب أنه كان يفكر اذ ذاك فى الشارميت Les Charmettes عند مدام دوفوران Mme de Warens والأرميتاج L'Ermitage عند مدام دابناى Mme d'Epinay بمونتمورنسى Montmorency عند الماريشال دو لوكسمبرج Maréchal de Luxembourg وفيها جميعا ذاق جمال الطبيعة ومفاتنها واستمتع بشبه عزلة ارتاحت لها نفسه ·· ولكنه يتوقف مأخوذا بسحر جزيرة سان بيير وهى جزيرة لم تكن معروفة تماما حتى في سويسرا ولكن ريشة الكاتب الساحرة وجهت اليهما الانظار وجعلتها مهبط السياح من كل فج منذ ذلك الوقت · والجزيرة بموقعها وسط بحيرة بيين Le lac de Bienne كانت مهيأة لحالة روسو النفسية اذ ذاك ·· انها « تبدو كأنما جعل موقعها خصيصا من أجل من يحب الإنطواء على نفسه » ·· وهل كان هناك من هو فى حاجة الى العزلة والانطواء أشد من روسو فى ذلك الوقت بعد أن طورد ورجم منزله وذاق عذاب السفر والترحال ؟

وهو يبدأ وصفه بمقارنة بين شواطىء جزيرة سان بيير وشواطىء بحيرة جنيف Genève وفى جنيف قضى روسو مرحلة طفولته وعلى مباهج البحيرة تفتحت عيناه وتيقظت أحلامه ·· فالاولى تمتاز عن الثانية بالنظرة الرومانتيكية وكلمة romantique هنا تثير الدهشة فى ذلك الوقت من القرن الثامن عشر وهى كلمة انجليزية من أصل ألمانى لم تستعمل فى اللغة الفرنسية الا منذ ذلك القرن · ولا ريب أن روسو استعملها هنا لانه كان بحاجة الى التعبير عن احساس جديد وجدها تترجمه تماما أو بالاحرى لينبىء بطريقة أدبية جديدة فى التعبير ، وبعهد جديد هو عهد الرومانتيكية Le Romantisme وكان المترجمون الفرنسيون فى منتصف القرن الثامن عشر لا يزالون

يعبرون عن كلمة رومانتيك romantique بـ pittoresque أو romanesque أى يميل الى الشاعرية والخيال . ولعل المعنى هنــا ينطبق عليه تعريف فينلون Fénelon في «حوار الموتى» Dialogues des morts (١٧١٢) حيث قال «هذه أبدع صحراء يمكن أن يراها المرء.. ان الطبيعة هنا تبدو موحشة رهيبة ولكنها تثير الاعجاب وتحمل على أن يحلم المرء فى استمتاع » .

ولو أن روسو هنا يستعمل أيضا كلمة Romanesque فى نفس هذه الجولة وهكذا فتح روسو الطريق أمام هذه الكلمة فاستعملها فيما بعد كتاب وشعراء مرددين كلمة Romantique

ويتحسر روسو لانه لم يمكث فى تلك الجزيرة ســوى شهرين . والواقع أن روسو بأعصابه المتعبة ونفسيته المرهقة وميله الدائم الى العزلة كان يود لو انه «سجن هناك بقية حياته» سجنا اراديا اختياريا يتفق أولا وقبل كل شيء مع ميوله وحاجته الى الراحة .. ولكن مجلس شيوخ برن Berne أصدر أمره بنفيه من الجزيرة فخرج منها مكرها مغلوبا على أمره .

والآن فيم كانت سعادته فى تلك الجزيرة ؟ انه كما يقول : « كانت هناك صاحبتى (أى تيريز لوفاسور) والمحصل وزوجه وخدمة وكلهم فى الواقع أناس طيبون ولا شيء أكثر من هذا» ، اذن لم يكن روسو اذ ذاك فى عزلة مطلقة .. كما انه لم يكن كذلك متعطلا عن العمل تماما فلم يكن الفراغ الكامل من ميول ذلك الكاتب ، بل كان يحب أن يتخلله عمل مثل ما وقد سبق أن بين ذلك فى «الاعترافات» (الكتاب الثانى عشر) . وكان يملأ حجرته زهورا وأعشابا جافة «لاننى كنت اذ ذاك فى بدء ممارستى لدراسة النبات تلك الدراســة التى غرس دكتور ديفرنوا D'Ivernois فى نفسى اليها ميلا أصبح شغفا» . ثم هو يصف لنا بعد ذلك حلمه فوق صفحة الماء انه يهرب خلسة من رفاقه فى الجزيرة «ليستلقى فوق زورق يبحر به وسط البحيرة وقد أدار عينيه نحو السماء» ، وهو يحلل حلم اليقظة هنا تحليلا له أهميته البالغة لانه الاول من نوعه قبل أن يصف الرومانتيكيون اندماج الانسان فى الطبيعة .. وهو يبين عناصر هذا الحلم :

أولا ـ ضرورة وجود حركة تؤدى الى اختلاجات النفس (وهى هنا مد الماء وجزره) .

ثانيا ـ الحالة التى ينتهى اليها ، أى البساطة الكافية للاحساس بالوجود « كان ذلك كافيا ليجعلنى أحس بلذة وجودى دون أن يرهقنى التفكير» .

ثالثا ـ استدعاؤه بعوامل خارجيـة ، فلا أستطيع أن انتزع نفسي منها دون مشقة ».

ثم ينضم الى الجماعة فيلهون ويتحدثون ويتضاحكون ولا عجب فهو يحب البساطة في كل شيء : البسطاء من الناس والبسيط من اللهو كما يحب الأغاني الخفيفة والموسيقى الايطالية المليئة بالاحساس والعـاطفة ويفضلها على موسيقى جـلوك Gluck ورامو Rameau المعقدة في نظره .

من كل تلك الذكريات يستخلص روسو نظريته في السعادة :

« ليست السعادة في اللحظات القصار من المتع الشديدة والهوى ولكنها حالة بسيطة دائمة » .

ولا ريب أن الصدمات التي لقيها روسو في حياته في المجتمع وفي حياته العاطفية جعلته يجد السعادة في الهدوء الذي يحاول أن ينقله الينا هنا أي في حياة تسمح لخياله بأن يحلق ويخلق ، والتي تتفق تماما هنا وحالته النفسية والعقلية من جهة وسنه المتقدمة من جهة أخرى .. اذ كيف نستطيع أن نسمي سعادة «حالة عابرة تتركنا والقلب منـا خال فارغ» أليست تلك هي الرومانتيكية بقلقها وحيرتها ؟ ثم هو يستمر في سرد خصائص وظروف ومراحل تلك السعادة الكاملة وقد تجمعت كلها في جزيرة سان بيير بل ان تلك الاحلام الصغيرة السعيدة يمكن تحقيقها في سجن الباستيل مثلا مادام المرء هادئا بعيدا عن المنغصات ولو أنها حينئذ تكون أقل متعة منها في «جزيرة خالية حدودها طبيعية لاتعرض للنظر فيها الا صور ضاحكة» ...

ولكننا نراه أخيرا في هذه الجولة وفكرة الاضطهاد تلح عليه .. انها تلاحقه حتى في أجمل ساعاته وأسعدها فيتمنى أن يعود ليقضي بقية عمره في تلك الجزيرة «ولكن الناس لن يدعوا لي مثل ذلك الملاذ البديع حيث رفضوا أن يتركوني» .. ولكنهم مع ذلك لم يمنعوه من أن ينتقل اليها على أجنحة الخيال .. في أحلام يقظته « حيث تنفلت الأشياء من حواسي أثناء نشوتي » وهو هنا في هذه النشوة يكاد يشبه شرقيا متصوفا في لحظة اشراق .

ثم تأتي أخيرا الصرخة المتحسرة « وأسفاه ! » آسفا على لحظات يرى نفسه ماضيا في سبيل الابتعاد عنها حيث يتمنى أن يعيشها من جديد .

الجولة السادسة

لئن كانت هذه الجولة أقل امتاعا من سابقاتها الا أنها لاينقصها أن تكون على شيء من الأهمية لما تلقيه من أضواء على استعدادات روسو من ناحية عمل الخير وحبه لاسعاد الناس وهي تشبه الجولة الرابعة من ناحية انها تعالج احساسا من أحاسيس روسو في تعامله مع الناس.. وهذه الناحية ترددت كذلك في « الحوار » ومررنا بها كذلك في الجولة الثالثة حين تكلم روسو عن اصلاحه لنفسه .

يعود بنا روسو هنا الى باريس.. حيث «وبالامس فقط، كان ذاهبا للاستعشاب على ضفة نهر ال « بييفر » Bièvre في ناحيـــة « جنتيني Gentilly واذا به ينعطف متحاشيا المرور بـ «بوردانفير d'Enfer (أي باب جهنـــم) على غـــير عادته فيتساءل لم أراد أن يتحاشى الزاوية ؟. انه يذكر أن ذلك كان بسبب طفل صغير لطيف لكنه أعرج دأب على تحيته يوميـــا وكان يسره ذلك في مبدأ الامر ولكنه أصبح يضيق به في النهاية ويفسر ذلك في السطور الاولى من تلك الجولة اذ يقول

« ليست هناك حركة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا فى قلبنا اذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بآحثين عن ذلك التعليل » ومن ذلك ندرك كيف كان روسو يميل الى طبقة الشـــعب البسيطة وكيف كان يتوجس خيفة من المقابلات المنتظمة كما كان يخشى كذلك أن يتعرف الناس عليه ٠٠ ولقد ســبق ذلك فى « الحـوار » فهو يظن دائما أن أعداءه يرسلون من يتجسسون عليه ويطلعون على أحواله الخاصة ٠

« ولقد تحولت ـ ولست أدرى كيف تحولت ـ هذه المتعة التى غدت عادة بالتدريج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه » ٠

من هنا تبدأ سلسلة تأملاته التى تسلمه الى تحليل خاصية فى طباعه هى الخوف والهروب من كل مايلزمه أدبيا ٠٠ انه يحب عمل الخير وان يسعد الناس ولكن ما ان يحس انه أصبح مقيدا بواجب حقيقي أو مفروض وعندما يعتقد أن أحدا ينتظر منه تكرار خدمة ما حتى تثور الحرية فيه ويعمل جاهدا للتخلص من سلطان الناس عليه ، ولكن سرعان مايجد لنفسه ظروفا مخففة فهو يقول انه طالما عمل الخير ولكنه كان ينقلب ويفسر ضده وهو اذ يتكلم عن «مغامرين كانوا يأتون للتسلط عليه وارغامه» يردد ماقاله سابقا فى «الحوار» وخاصة فى «الحوار الثانى» ٠ وهو يقول : «اننى وان لم أكن فاضلا الا أنى رجل طيب القلب» وهو يردد هنا أيضا ماقاله من قبل فى الجـولة الثالثة» ٠

واذن فقد انتهى الى أن الامتناع عن عمل الخير خير من التعرض لتسلط الناس عليه وهو فى صراعه مع ضميره الذى يخزه يلقى اللوم أيضا عـلى أولئك الذين تغيروا منذ عشرين سنة أى منذ القطيعة التى كانت بينه وبين مدام دابيناى Mme D'Epinay فهو حين يشعر انه خدع لايستطيع أن يتغلب على نفوره ولا يستطيع بالتالى أن يقدم على عمل الخير فيعتبر «أى عمل صالح يقدم له كأنما هو شرك جديد ينصب له» ٠

ولكن روسو يخطىء اذ يقرر انه فى الوقت الذى يكتب فيه لم يكن له أصدقاء من بين الناس منذ عشرين سنة ، حقا انه أبعد الكثيرين عنـه ولكن كان له مع ذلك أصدقاء مثل ديكلو Duclos وبرناردين ذو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre وديفرنـوا D'Ivernois وهو الوحيد تقريبا الذى لم يجد ما يعتب عليه به حتى مات ٠

كما انه ليس صحيحا أنه لم يصـادف فى العشرين سنة الاولى الا أشخاصا كرماء شرفاء يعملون دائما لصالحه فكثيرا ماقابل منهم من تسببوا

له في أذى مادى أو معنوى كالحفار الذى كان يعمل عنده ويسيء معاملته والقس الذى عرفه بسر بعض الانحرافات الخلقية والشبان المغامرين القامدين الذين قابلهم في شامبرى Chambery وفي الشارميت Charmettes والذى كانت مدام دفو ران تحاول التفرقة بينهم وبينه .

وأخيرا ــ وكعادة من يهيمون في الخيال فيستحوذ عليهم ويغريهم بالابتعاد عن الواقع بأساليب خرافية ــ يتمنى روسو لو أنه أوتى خاتم جيجيس Gygis (الذى ذكره سيسرون واذن لفعل كل ما يحلو له دون أن يراه أحد .. فهو ينعى شهرته التي ألبت الناس عليه ومنعته من اسداء الخير جهرا .. ولكنه يعود فيخشى لو انه امتلك ذلك الخاتم أن يغريه سلطانه بارتكاب مغريات لا قبل له على الصمود أمامها .. ولكن سيسرون ينتهى إلى القول بأننا يجب أن نفعل الخير ولو انه ليس هناك من يرانا .. وروسو يحب أن يرى السعادة ترفرف على الجميع ، واذن لما لم يكن مخدوعا من أحد فلن يسيء استعمال الخاتم .. انه يتغنى بطيبتـــه وبنواياه الحسنة نحو الناس .. ولكنه لن يكون غير مرئى فحسب بل سيستطيع أن يقرأ خفايا قلوب الناس واذن فلهـذا الحلم السـعيد نتائج : منها أنه سيكون رأيه متعقلا متزنا عن الطبيعة الانسانية «انني اذ أقرأ في يسر مافى قلوبهم قد ألقى منهم بعضـــا ممن يستحقون محبتى وبعضـــا آخر ممن يستحقون بغضائى» .

ومن نتائج استعمال ذلك الخاتم أيضا انه قد يستطيع اتيان المعجزات وان يقيم العدالة السمحة الرحيمة بين الناس بدلا من العدالة المتزمتـــة القاسية .. وهو يشير هنا الى معجزات القديسين كزيارة قبر سان ميدار Saint Médard (وكانت باريس كلها سنة ١٧٢٨ تؤمن بذلك وتتسابق اليه ليشفى المرضى من الناس) .

وأخيرا .. ان الجسد ضعيف .. وهناك احتمال اتيان حماقة ما .. واذن «فبعد تأمل الأمر مليا .. اعتقـد أنه من الخـــير أن أطوح بخاتمى السحرى قبل أن يتحتم على الاقدام على حماقة ما» .

وتنتهى به هذه الاحلام الحـلوة الى أنه يكون «مخطئـــا لو انه تأثر بالطريقة التى يرونه بها .. اذ لست أنا الذى يروننى على هذه الصورة ، وهذه الراحة في التفكير .. هى شأن الخياليين المصابين بالشيزوفرانيا (الفصام) ــ ومن بينهم روسو ــ الذين يعودون من حلم خيالى حلو لاصلة له بالواقع على الاطلاق وهم فى أحسن حالاتهم النفسية .

وينتقل روسو بعد ذلك الى فكرة أخرى يعزو عن طريقها عدم تقبله لحياة المجتمع الى ميله الى الاستقلال ثم هو يورد تعريفا للحرية فيقول : «لم أعتقد أبدا إن الحرية من شأنها أن يعمل المرء مايريد ولكنها فى ألا يعمل ما لايريد » •

ثم هو يقابل بين هذه الحرية وبين تعصب الفلاسفة الذين يكرهون الحرية فى الآخرين ولا يريدونها كذلك لانفسهم •

ثم يعود الى التغنى بقلبه الخير فيقول : «أما عن الشر فلم يكن لارادتى منه نصيب فى حياتى وانى أشك أن هناك انسانا فى هذه الدنيا ارتكب منه أقل مما فعلت» •• فهو يضع القدم هنا وهو مطمئن الى أنه أراح ذهنه وضميره مرددا أنه وان لم يكن أفضل الناس فهو أحسنهم بل هو ربما — فى رأي نفسه — كان أقرب الى الملائكة منه الى البشر •

الجولة السابعة

تبدا هذه الجولة بجملة تجعلنـا نعتقد أن روسو كان بصدد كتابة مؤلف أكثر اهمية « لم يكد يبدأ سجل احلامى الطويلة ولكننى أحس أنه مشرف على نهايته » واذن فمن الجائز أن يكون روسو قد توقف عن الكتابة وهو لا يزال فى الربع أو الثلث الاول من مؤلفه لانه كان ينوى المضى فى كتابة « سجل طويل » .

والجولة ذات موضوع جديد أصيل ولو أنها مثل الأخريات من ناحية كونها تأملات خاصة محورها روسو نفسه .. انها ـ الى جانب هذا ـ دفاع عن روسو نفسه .. وان لم يكن دفاعه هنا فى حرارة الدفاع الذى جاء بالجولات الرابعة أو الخامسة أو السادسة مثلا ..

فهى تتناول موضوع الاستعشاب ودراسة النبات ولابد أن يجىء دفاع روسو عن نفسه امام من يهاجمون هذا اللون من العمل أقل حرارة من غير شك من دفاعه عن نفسه ضد من كانوا يتهمونه بالكذب أو بكراهيته للناس مثلا ..

وليس روسو أول من دعا الى دراسة النبات وحبذها فقد سبقه فنلون Fénelon وبوفون Buffon (الذى كتب عن « التاريخ الطبيعى ») ولو ان كتابه كان لايزال فى مرحلة الاعداد للنشر حين كان روسو يمارس الكتابة فى النبات اذ لم يتم نشره الا فى عام ١٧٨٨ أى بعد وفاة روسو بعشر سنوات • وكانت دراسة النبات من الدراسات التى شاعت بفضل لينيه Linné الذى أعجب به روسو كثيرا فى أول الامر (ولو ان اعجابه به فتر بعد ذلك) وكان يقوم بهذه الدراسة جماعة من العلماء المتازين مثل آل جوسيو Jussieu (الذين أورد روسو ذكرهم فى الجولة التاسعة)• ومنذ منتصف القرن الثامن عشر كانت ترد بالصحف عبارات مثل «التاريخ الطبيعى هو من بين العلوم جميعا العلم الذى يمارس بعناية بالغة فى عصر مستنير مثل عصرنا » • واذن فان روسو وجهوده فى هذا المضمار لا تمثل سوى دور العضو فى جماعة الدارسين والباحثين وليس فيهما فضل القيادة أوالتوجيه - ويشير مورنيه M: Mornet فى كتابه عن علوم الطبيعة(١) الى دور روسو بقوله «ان روسو يبين أن دراسة العلوم الطبيعية واجبة ومفيدة لا فى ميدان جمال العقل فحسب بل فى جمال العاطفة » •

ويحدد روسو فى هذه الجولة بدء هوايته ••• لقد تلقى الانطباعة الاولى لحب الطبيعة فى سويسرا حيث تفتحت عيناه على الخضرة والريف البهيج ثم هو يذكر الدكتور ديفرنوا D'Ivernois الذى طالما صحبه فى جولات استعشاب طويلة والذى امتدت صلته به وصداقته له حتى نهاية العمر ثم ينتقل بعد ذلك مباشرة الى أول محاولة للدفاع عن نفسه فى هذه الجولة •• ولا عجب فان هذا الانسان المنعزل عن المجتمع يحس دائما بحاجته الى أن يذود عن نفسه جميع الاتهامات التى تنهال عليه منه فتراه فى « الحوار» Les Dialogues مثلا يبرر هوايته لنسخ الموسيقى أما هنا فهو يبرر ميله لدراسة النبات •• وهكذا كانت آراء الناس تشغله دائما ولا تفتأ تساوده وتطارده حتى وهو هائم بين ربوع الطبيعة ••

وهو يعلل عدم قدرته على التفكير وضعف خياله عن التحليق فى أجواء الأحلام انسياقه الى التأمل الدقيق فى مشاهد الطبيعة •• وهكذا يقابل مابين نفسه وبين أولئك الذين لايحسون بالطبيعة ولا يرون فيها سوى مورد للعقاقير والوصفات الطبية •• بل ان الطبيعة ــ الى جانب ذلك ــ تلهيه عن الكراهية وعن الرغبة فى الانتقام وهكذا « ينتقم من

---

(1) M. Mornet : Les Sciences de la Nature, p. 165.

مضطهديه على طريقته » اذ يغدو سعيدا على الرغم منهم وهو ما سبق أن أورده في الحوار Les Dialogues في الجولة الثانية من الاحلام Les Rêveries وبرغم هذا الميل لا نراه يستهدف نفعا دنيويا بل ان هذا الميل يدفعه الى التقرب الى الله والتأمل فيه (ولعل في ذلك ردا على ما قرره من اتهـــام أعدائه له من قبل في « الحوار » Les Dialogues من أنه يجمع الاعشاب ليصنع منها العقاقير) كما يجعله يزيد من معرفته بنفسه .. تلك المعرفة التى كرس لها أيامه الاخيرة .

انه يحب الطبيعة ويتعشقها .. تلك الطبيعة الخضراء التى تكسو الارض كحلة زاهية فلا شيء يوحش النفس أكثر من مشهد ريف مقفر عار»

ولقد وجد نفسه ـ في هربه من الناس وميله لاعتزالهم وفى عجزه عن التفكير العميق ـ مضطرا الى أن يشغل بما يحيط به وماذا هناك أجمل من الطبيعة تحتو عليه وتلفه وتحيط به . ووجد ذلك في مملكة النبات لان مملكة المعادن تبدو شاقة منفرة ولان مملكة الحيوان تتطلب عمليات التشريح التى تثير الاشمئزاز وخاصة بالنسبة للنفوس المرهفة الحساسة . وهو يعدد مزايا الدراسة التى فضلها على غيرها ولا يفوته أن يظهر عدم ثقته بالاطباء وكراهيته لهم فيقول .. « انني الدليل الحى على بطلان فنهم وعدم جدوى علاجهم » وينتقل بعد ذلك الى الذكريات فيذكر استعشابا قام به في ناحية روبيلا Robaila (وهو جبـــل يسمى اليوم Robela على مسافة فرسخ من موتييه في مقاطعة نيوشاتل) وهو يذكر أســـماء النباتات هنا باللاتينية بعد أن ذكرها من قبل في هذه الجولة بالفرنسية ولا ريب أنه وجد هذه المفردات في مؤلف «لينيه» الذى كان روسو معجبا به .. وفى جولته فى ناحية روبيلا يصور لنا خيبة أمله اذ كان يظن نفسه وحيدا وأنه أوغل في عزلته الى حد تخيـــل فيه أنه كريستوف كولومب ونحن نقول ـ الى جانب ذلك ـ بل روبنسن كروزو (الذى أوصى بقراءته في اميل) حيث يقول « لا شك انني أول مخلوق توغل حتى هذا المكان ».

ويشير هنا الى تذكره استعشابا آخر من النوع نفسه قام به خلال اقامته في جرينوبل Grenoble وكان يصحبه مسيو بوفييه Bovier (محام في الاقليم) الذى كان يلازمه ويســـهر على سلامته ويروى قصة فحواها : أنه أكل من فاكهة انبهه أحد المارة الى أنها سامة ومع ذلك فلم ينبس مسيو بوفييه بكلمة .. فروسو هنا ـ وان لم يتهم بوفييه اتهاما

صريحاً — يدخل فى روعنا مع ذلك رغبة الاخير فى تركه يموت مسموماً . وأغلب الظن أن روح الشك والريب التى تسلطت على روسو فى أعوامه الاخيرة وجعلته لا يثق حتى فى أصدقائه المخلصين هى التى صورت له المسيو بوفييه على هذه الصورة ويؤكد ذلك أنه لم يجرؤ على إتهامه فى صراحة أو أنه بعد تاريخ الحادث (عام ١٧٦٨) جعل يخلط بين ذكرياته بعد أن ضعفت ذاكرته — كما يعترف هو بذلك .

الجولة الثامنة

كان من الممكن أن تصبح هذه الجولة ذات أهمية بالغة لو أن الجولات بدأت بها .. وهى تكمل الجولة الخامسة من حيث التعبير عن السعادة لدى روسو وتكمل السادسة كذلك من حيث تبرير صلاته بالناس ولو أنه هنا لا يبرر وجود تلك الصلات بهم بل يفسر انقطاع هذه الصلات بينه وبينهم انه يتغنى هنا بالسعادة فى العزلة والوحدة ..

كانت فكرة اعتزال الناس تهيمن على روسو وتلاحقه.. وكان ذلك سببا من أسباب مهاجمة الفلاسفة له .. أما هو فكان يحس انه محوط بمؤامرات تحاك له فى الخفاء .. وظل ــ كما يقول برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint Pierre (١) « ظل روســو يمتدح مزايا العزلة حتى آخر لحظة من عمره لقد قال كاتب ــ ويقصد به هنا ديدرو ــ أن الشرير هو الذى يعيش وحيدا ولكن ماذا كان يمكنه أن يصنع فى العزلة ؟ تعس هو ذلك الذى لا يعرف آلامه الخفية » .

(1) Bernardin de Saint-Pierre : La Vie et les Ouvrages de Rousseau (Edition Souriau, p. 84).

ولقد دافع روسو من قبل فى « الحوار » عن تلك العزلة وهو هنا يبسط المشكلة ويدرسها مفصلة : فهو يبين أولا التعارض بين سعادته فى الوحدة وتعسه وضيقه بالناس حين يكون بينهم وهو يدهش عندما يسترجع الساعات التى كان يظن نفسه سعيدا خلالها اذ يجد انها لم تترك له من حلو الذكرى ما تركته تلك التى ذاق فيها ألوان الآلام .. واذن فقد كان ذلك هناء عابرا لا يمكن أن يسمى سعادة .. وهو فى ذلك يؤكد ما أورده فى الجولة الخامسة « كيف يمكن أن نسمى سعادة حالة عابرة تتركنا والقلب منا خال فارغ ؟ » وهو يقارن هنا بين هناء ظاهرى وتعس حقيقى فى ماضيه ، وبين تعس ظاهرى وهناء حقيقى فى حاضره .. ويكشف عن لون من الغرور حين يقرر أنه يفضل أن يكون هو نفسه بكل شقائه من أن يكون « واحدا من هؤلاء الناس بكل ما هم فيه من نعيم » وهو يتساءل : كيف وصل به الامر الى هذا الحد ؟ وكيف غدا غير مبال وسط ما يحيط به من شرور ؟ وكيف اكتشف المؤامرة فقلبت كيانه كله رأسا على عقب؟ انه يشير بذلك الى خصومته مع مدام دابناى Mme D'Epinay وهو يقص ذلك أيضا فى **الاعترافات** Les Confessions (فى نهاية الكتاب التاسع ومستهل العاشر) ولكن فى ثبات وهدوء أكثر مما يفعل الآن .. ولا ريب أن حالته النفسية التى ساءت بعد « **الاعترافات** » جعلت تلك الذكريات أشد سوادا واضطرابا .

ولقد حاول العثور على رجل عاقل يفهمه ويتوسط بينه وبين أعدائه ولكن عبثا فقد كانت المؤامرة شاملة .. واذ ذاك ـ بدلا من اليأس القاتل ـ وجد السكينة والهدوء .. بل السعادة ..

ولعلنا نتساءل : أية سعادة تلك التى يحاول أن يقنعنا بها أو يقنع بها نفسه .. تلك التى يذكرها وسط تلك الاوصاف والملابسات من اليأس والألم والاضطهاد والعذاب وجو المؤامرات . انه يصف عذابه فيجعلنا نحسه معه وكأنما حدث له للتو .. أفكان المسكين سعيدا حقا ؟ أم أنه تعب من الألم وتعب من تصاريف الاقدار معه فهو يمثل أولا على نفسه ويمثل ثانيا على الناس ليبدو ـ وذلك ما يناسب غروره ـ وقد انتصر على كل ذلك .

وهو يحتقر الآلام المادية ويبحث عن مصدر لآلامه فيجدها فى كبريائه . وفى « **الحوار الثانى** » يتناول روسو تلك الفكرة وتقريبا بنفس الالفاظ التى يكاد يسردها بها هنا . واذن فليخنق تلك الكبرياء مادامت تنغص عليه حياته وتمنعه حتى من الاستماع الى عقله حين يوصيه بتقبل

الاقدار كما هي والمصائب كما تحل دون معاندة أو اصرار وعندئذ يمكنه أن يرى « الغنى والفقر والصحة والمرض والمجـد والمهانة .. كلهـا بلا مبالاة » وهو اذ بلغ هـذه الحال من عدم المبـالاة يرجع الفضل الى أعدائه لا الى حكمته وفي ذلك بعض التكفير عن كل ما سببوه له .

انه يعيش منذ الآن مع كائنات من خلقه هو لا يخونونه ولا يسببون له حزنا .. كائنات من خلق خياله لا يخشى منهم ضرا أو هجرا ...

وبعدئذ يشرح روسو الحالة النفسية التي يكتب عنها فيقول « ولما كانت حواسي مسيطرة على نفسي فاني لم أستطع أبدا أن أقاوم انطباعاتها» وهذا هو الشرح الذي يقدمه عن خلقه وطبيعته في « **الحوار الثاني** » وهو يلاحظ انه عن تجربة متكررة يجد نفسه سعيدا في الاماكن التي لايصادف فيها انسانا ولكنه يعود فيذكر انه لا يستطيع أن يصمد أمام أمر يسبب له ألما فان « كلمة ، اشارة ، نظرة بغضاء ألمحها أو كلمة مسمومة أسمعها تكفي لان تجعلني أضطرب أشد الاضطراب » وهو يقارن ثانية بين اليوم والأمس .. اليوم حيث يحس السعادة في عزلته عن الناس والأمس ـ أي عندما كان يعاشر المجتمع ـ حيث كان يحس بالضيق وعدم الراحة .

ولتحليل روسو هذا أهميته : فهو تطبيق للنهج الذي أعلنـه في الجولة الاولى حيث يريد أن يدرس نفسه بعناية ومعرفة ودراية .

من هذا كله .. ومن مكابرته اذ يقول انه «سيد نفسه يفعل مايشاء» يتبين خوفه الدائم وقلقه .. فهو هنا كانسان يخاف الظلمات فيغني عساه يشجع نفسه على تحملها .

وخلال هذه الجولة كلها نحس بروسو وهو يحـاول أن ينفي عن نفسه تهمة « الشرير هو الذي يعيش وحيدا » ويحاول أن يرد على ذلك الاتهام ويؤكد انه سعيد ويحـاول أن يثبت تلك السعادة فيؤكدها مرة أخرى ليقنع نفسه انه كذلك .

ولهذا كله وللحالة النفسية المضطربة الهادئة حينا الثـائرة أحيانا كانت هذه الجولة البديعة مؤثرة حقا تمس شغاف قلوبنا .

ترى أكان روسو صادقا ؟ أم انه أحسن الدفاع فحسب ؟

الجولة التاسعة

وهذه الجولة مثيرة جذابة يرجع ذلك الى أنهـا تتناول موضوعا مؤثرا ، بل يكاد يكون رهيبا ، هو مسالة هجر روسو لأطفاله ، وكذلك الى تنوع فى موضوعها وخلوها من مناقشات مجردة أو عامة كما حدث فى الجولتين الرابعة أو الثامنة مثلا. انها اذن تتناول مسألة أطفاله الذين لازمه الاحساس بالذنب من أجل اهماله لهم حتى آخر حياته وكانت سببا فى انتقاد الفلاسفة والناس له وصبهم اللعنات عليه :

وفى هذه المرة تنبعث تأملاته من حادث غير ذى أهمية يرى فيه اصبع اتهـام يشير اليه ويعرض به فيثير ويثور ويهب مذعورا ليسـوق أدلته وبراهينه وليبرر مسلكه أمام نفسه وأمام الناس وتتسع تلك التأملات وتزداد اتساعا حتى لتنتهى الجولة على غير ما بدأت به .

أما الحادث الذى أثار اهتياجه فهو مجىء السيد/ب عنده ليريه فى تحمس بالغ مديحـا من سبع صفحات فى شخص مدام جيوفرين Mme Geoffrin وجهه لها الفيلسوف دالامبير

M. d'Alembert وأما مدام جيوفرين فصديقة للفلاسـفة كانوا يجتمعون فى صالونها حتى لكان ديدرو Diderot يناديها « ماما » .

وأما الفقرة التى لم تعجب روسـو فهى أن مدام جيوفرين « كانت تجد متعة فى رؤية الاطفال والتحدث اليهم » وكان ذلك كافيا كى يهيج روسو معتقدا أن دالامبير يخزه فى موضع الالم ويعرض به .. وخاصة وان دالامبير كان عدوا له منذ عام ١٧٥٧ وانه وضع تلك الفقرة عامدا متهما روسو بعدم حبه للاطفال عامة مادام قد أودع أطفاله ملجأ اللقطاء . وينبرى روسو ليذود عن نفسه الاتهام مستشهدا بحوادث صغيرة تبرهن على حبه للاطفال ورعايته لهم وحدبه وعطفه عليهم .

وقد ناقش روسوهذا الامر طويلا فى «الاعترافات» Les Confessions وعلق عليه فى « الحوار » Les Dialogues ثم تناوله كذلك بطريق غير مباشر فى « الجولة العاشرة » حين سألته احدى السيدات وكانت حاملا عما اذا كان قد رزق بأطفال ـ وكان فولتير قد أثارها أيضا قبل ذلك باثنى عشر عاما تقريبـا حـين كتب عن « مشـاعر » مواطنى جنيف Les sentiments des citoyens de Genève ويقال ان مدام دابناى والدكتور ترونشان Docteur Tronchin هما اللذان أخبراه بذلك كما أن روسو نفسه فى كتاب « اميل Emile » اعترف ضمنا بذلك وكان يعتقد أن ذلك الاعتراف كان كافيا لان يوفر عليه لوم الناس ... وأما فى « الاعترافات » فقد ساق تبريرا واهيا فحواه أن الشبان فى ذلك الوقت كانوا يتباهون بمغامراتهم التى كانت ثمارها تودع ملجأ اللقطاء ببساطة مما جعله يفكر أنه « ما دامت تلك عادة البلد التى يعيش فيها فلاحرج من اتباعها » .. كان يتكلم اذ ذاك وكأنما تركه لأطفاله أمر طبيعى .. أما هنا فهو متوتر الاعصاب ثائر يتلمس مهربا من ضميره .

وأطفاله هؤلاء انجبهم ـ كما نعلم ـ من أم جاهلة هى تريز لوفاسير Thérèse Levasseur تمت الى الطبقة الدنيا بصلة وثيقة اذ كانت تعمل خادما تغسل الملابس وتقوم بكيها فى منزل بباريس وكانت ـ باعتراف روسو ـ غبية لا تحسن القراءة أو الكتابة ولا عد الارقام ولا تعرف الشهور أو الوقت أما أمهـا فكانت امرأة شريرة نغصت على روسو حياته لفترة طويلة ويقال انها كانت تتآمر مع الفلاسفة على روسو وتمدهم بالمعلومات المختلقة عنه .

ويبرر روسو اهماله لأطفاله بقوله انه لا يستطيع أن يقوم بنفسه على تربيتهم وأن تنشئتهم وتربيتهم كانت تتم على أسوأ الصور لو أنه عهد بهم الى تيريز وأسرتها ٠٠ بل انه يرتجف اذ يفكر في المصير الذى كان ينتظرهم ٠٠ وهو يسوق هنا مثلا ل « محمد وسعيد » وان ما كان ممكنا ان يصنعه أولاده معه هو ما صنعه سعيد بأبيه اذ حرضه محمد ضد أبيه فقتله ٠٠ ونحن لا ندرى مصدر الفرية التى يوردها هنا روسو على سبيل الاستشهاد ٠٠ وأغلب الظن أن مسرحيات فولتير فى ذلك الوقت ـ وكان يتناول فيها شخصيات دينية من الشرق مشوهة من غير شك ـ هى مصدر المثل الذى يورده روسو ٠٠ ويتم ذلك عن جهل بالديانة الاسلامية السمحة والاحداث التى تمت ابان الرسالة الاسلامية ويعزى ذلك الى أن أوربا فى القرن الثـــامن عشر لم تكن قد نالت قسطا كافيـــا من المعرفة بالشرق ودياناته ٠٠ أو أن ذلك كان نقصا فى معلومات روسو نفسه عنها ٠٠ وعلى اية حال فالمقارنة هنا لا محل لها اطلاقا فان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يحرض شخصا يدعى سعيدا على قتل أبيه أو غير أبيه ٠

والاسباب التى يوردها روسو هنا تتلخص فى أنه كان يحب الاطفال فى شبابه ويلهو معهم ولم يكن لديه وقت لدراستهم ٠٠ أما الآن فيستطيع أن يجد متعة فى ذلك ٠٠ ثم انه من غير المعقول أن يكتب روسو كتاب **«اميل»** Emile و **«هلويز الجديدة»** La Nouvelle Héloise ثم يتهم مع ذلك بعدم حبه للاطفال ٠٠ ومن المعروف انه أبدى فى « **اميل** » رعاية وعناية فائقتين بالطفولة عامة ٠٠ وفى « **هلويز الجديدة** » لوحة من أبدع اللوحات العائلية أظهر فيها روسو اهتمام الابوين وشغفهما وتضحيتهما من أجل الأبناء ٠٠ ويمضى روسو فى دفاعه عن نفسه فيقول انه لا يتصل بالاطفال اليوم لانه لايعرف كيف يحادثهم والى أنه قد يخيفهم بمظهره بعد أن أمسى عجوزا ٠

ويروى روسو ثلاثة من الحوادث الطريفة برغم انها واهية فى الدفاع عن موضوع روسو نفسه وغريبة عليه ٠

أما الاولى ـ فتشير الى أنه تعرف على طفل فى كلينتكور Clignancourt وهى قرية صغيرة من ضواحى باريس ـ ولكن أباه بعد أن علم بذلك أبعد طفله عنه مما أسف له روسو وترك فى نفسه أثرا أليما ٠٠ وهذه لمحة من نواحى الاحساس بالاضطهاد لديه ٠

وأما الثانية ـ فهى دفاع عن مبدأ المساواة الذى كان ينادى به أكثر منه دليلا على حبه للاطفال ـ اذ يقابل ـ هو وزوجته رهطا من الفتيات فى

رفقة راهبة .. وتصادف مرور بائع حلوى فاشترى للجميع منهـــا وهو يحرص على المساواة بينهن فيما يحصلن عليه من حلوى ــ ويبين روسو كيف انه بنقود قليلة حصل على سعادة غامرة اذ أدخل السرور الى نفوس الصغيرات والراهبة .

وأما الثالثة فكانت فى الشوفريت Chevretteوهى تشبه الاولى قليلا وزع فيها تفاحا كانت تحمله بائعة فى سلة على مجموعة من الفلاحين من سفوا Savoie ويقابل هنـــا ما فعله هو بما يحدث فى بعض الاحتفالات حين يرمى علية القوم بعض الحلوى للفقراء الذين يتداهسون ويتضاربون لالتقاطها . وهنا تبدو كراهيته للأغنياء واحتقاره لهذه الطبقة المترفة .

أحب روسو دائما المتع البريئة البسيطة وكان يضيق دائما بوجوده بين علية القوم فى حفلاتهم بل انه كان يجد حرجا فى مجاراتهم حتى قال عنه « برناردين دو سان بيير(١)» «ان رغبة روسو فى أن تحذو فرنسا حذو سويسرا فى مباهجها الشعبية خلق من غير شك أسلوبا جديدا لها وساعد على اقامة الاحتفالات الثورية » .

ثم يعود روسو فيطرق موضوع العزلة فى صورة جديدة فيقول انه برغم اللذة التى يحسها اذ يرى الآخرين سعداء فان وجوده بينهم أيضا يسبب له فى كثير من الاحيان آلاما نفسية تجعل صحبتهم شاقة على نفسه وذلك اذا ما أحس من ناحيتهم بنظرة معادية أو احساس غير ودى ــ وقد ذكر مثل ذلك فى الجولة الثامنة حيث يقول انه يسرع بمغـــادرة المدينة حتى يتفادى وجودها ، فقد تعبر عن عدائها له وهو يسوق هنا على سبيل المثال المحـــاربين القدامى الذين كانوا يحيونه فى بشاشة فى مبدأ الأمر ولكنهم أخذوا يتجنبونه بعد ذلك لانهم ــ كما يظن ــ تعرفوا على شخصيته عن طريق زملاء لهم .

أما آخر واقعة يسردها فهى معاونته لواحد من هؤلاء المحاربين القدماء فى عبور البحيرة وتصدقه عليه فى لباقة بما قد يشترى به تبغـــا وينوه بالروح السمحة الودود التى لمسها فى ذلك الرجل مفسرا ذلك بجهل الاخير بشخصه وعدم تعرفه عليه بعد .

ثم يختتم موضوعه ــ بمدح لكرم الضيافة عموما ولا ينسى بهذه المناســبة أن يسخر من الهولنــديين الذين « يتقاضون ثمن ارشـــادك عن الوقت » .

---

(١) Bernardin de Saint-Pierre: La Vie et les Ouvrages de J.J. Rousseau, pp. 90, 93.

وهكذا أخذ روسو يبتعد ـ بسرده لذكرياته التى يتغنى فيها بكرمه وشهامته ـ عن نقطة البدء في هذه الجولة ٠ فنجد الصلة قد انقطعت بين موضوع حب روسو للاطفال خاصة وحبه للانسانية عامة ٠

ومع ذلك فهى هامة اذ تسوق لنا مشـــاهد حية وعادات من القرن الثامن عشر من ناحية وتلقى ضوءا آخر على مدى أسى الكاتب وندمه على ما اقترف فى حياته وقلقه البالغ وهو يستعد لملاقاة ربه من ناحية أخرى ٠

الجولة العاشرة

ننتهى « **أحلام يقظة جوال منعزل** » بعاشرة الجولات ٠٠ لم يقدر لصاحبها أن يكملها وكان من الجائز أن يكتب فيها أجمل ما سطر قلمه فى هذه الجولات ٠ ويحدد روسو تاريخها فيقول « اليوم » يوم عيد الفصح المزهر وقد مضى على معرفتى الأولى بمدام دوفوران Mme de Warens خمسون عاما ، كان ذلك فى الثانى عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ ٠

وانا لنحس بالأسف اذ لم يتم روسوهذه الجولة بالرغم من مرور ما يقارب ثلاثة شـــهور قبل أن ينتقل الى الدار الآخرة ٠٠ ذلك لان الصفحتين اليتيمتين فيهما هما ـ من غير شك ـ أكثر ما كتب فى الاحلام أصالة وسحرا ٠ واذا نحن تذكرنا ماقاله فى الجولة الاولى من أن هدفه هنا دراسة نفسه فحسب نجد أننا بعدنا كثيرا عن ذلك فى هاتين الصفحتين ٠

ومدام دوفورانMme de Warensهذه هى « فرانسواز لويز دولاتور Françoise Louise de la Tour » ولدت فى عام ١٦٩٩فى أسرة من طبقة النبلاء وفقدت أمها وهىطفلة فكفلتها

عمتاها .. ثم من بعدهما زوجة أبيها .. وبعد موت أبيها قضت عامين في معهد لوزان Lusanne حيث نالت قسطا من دراسة الموسيقى الى جانب ما كانت تطالعه من كتب من كل نوع وخاصة من كتب في الفلسفة والطب ثم تزوجت من أحد الاشراف وكان يكبرها كثيرا وكان وريثا لاقطاعية فواران Warens وهي تشبه في ظروفها روسو من نواحي كثيرة .. من حيث النشأة والثقافة .. بل ان هذه الظروف المتشابهة تكاد تفسر التفاهم العميق المتبادل بينهما .. ولقد كتب عنها في « **الاعترافات** » صفحات هي من أجمل ما جاء فيها فوصفها يوم وصوله الى أنسى Annecy قائلا « وأخيرا وصلت ورأيت مدام دوفواران رأيت وجهها ينضح رقة وعيونا جميلة زرقاء تشع حنانا ولونا باهرا وعنقا ساحرا » ولكن روسو هنا وقد أصبح فيلسوفا ورجلا ناضجا يصف المشاعر الحنون التى استشعرها كل منهما تجاه الآخر ويحدد الأسباب التى جعلت من ذلك اليوم يوما رسم له الحياة جميعا ... ثم يأخذه الحنين الى تلك الايام « الهادئة الحلوة » التى عاشها بالقرب من « أمه » والتى كانت حلوة كذلك حتى قبل أن تمنحه نفسها ... ثم يبين كيف أن عاطفة الأم والحبيبة معا مكنتاه من تكامل شخصيته فأصبح ماكان يريد أن يكون وكيف أن الحنان المتبادل بينهما ونزهاتهما سويا زادا من ميله للعزلة وللريف وبذا ألهمته كل ما أنتج فيما بعد من أعمال أدبية ... ثم يتنهد قائلا « آه لو انني ملأت قلبها كما كانت تملأ قلبي » ونسى روسو مغامراته النسائية في أسفاره من أنسى Annecy واليها .. نسى تلك العلاقات الصغيرة المتكررة مع ذلك والتى رواها في « **الاعترافات** » متغنيا برجولته وكيف أن النساء كن يتقربن منه وكيف أنه كان يجد العزاء دائما في الجنس الآخر .. ولكن للتنهد كذلك مايبرره فكثيرا ماعاد روسو من سفره الى مدام دوفواران ليجد انسانا ثالثا يحتل من السيدة مكانه أو يكاد ... وتمضى الايام بالثلاثة وروسو طائع صاغر سواء كان ذلك يرضيه أو لا يرضيه .

ولكن كأنما شاء عقله الباطن أن يسقط من ذكرى تلك العلاقة كل الشوائب التى كانت تعكر صفوها فلم يعد يختزن منها الا ناحية باسمة تبدو على البعد كشعاع فضى ينير له ظلام شيخوخته انه ينبش عن سويعات السعادة التى تناثرت على طول أيامه فيحلق فيها ويعظمها علها تكون زادا يعينه على احتمال واقعه الاليم .

ولعلنا نظلم الكاتب اذا ما نحن عتبنا عليه تغييره بعض الوقائع والتواريخ فهو أولا وقبل كل شيء لم يكن في حياته مؤرخا وانما نكون

منصفين اذا ما نحن قدرنا حاجته الماسة فى شدته كانسان حساس متوتر الاعصاب يعذبه اضطهاد وظلم يعتقد فى صدق أن الانسانية جمعاء توقعهما به الى أن يلوذ بماضى يضفى عليه دون قصـــد صورا باسمة هنيئة ...

ومع ذلك فان هاتين الصفحتين تعتبران نشيد عرفان وتقدير لتلك التى فتحت له بابها وقلبها وعوضته عن حنان الأم وأولته من الرعاية مالم ينله تقريبا من انسان آخر طيلة حياته .. انها تكليل لهذه الصفحات .. لهاته الأحلام التى جعلنا روسو نحلق معه فيها « كسيمفونية » رائعة متناسقة تحمل على التأمل فى الخالق وتسمو بالروح عن دنيا الشرور .

طباع روسو وحالته النفسية فى آخر حياته

عاش جان جاك روسو محروما فقيرا شريدا لعبت به أنواء الحياة وتجاذبته المحن وكان لكل ذلك أعمق الآثار فى طباعه وفى حاله النفسية التى صحبته حتى القبر • عاش محروما اذ فقد أمه قبل أن تكتحل عيناه برؤيتها ففقد بذلك حنانا لا يعوض أبدا وفقد أباه اذ اضطر هذا لهجره فانهار بذلك ركن يعتمد عليه الاولاد جميعا حتى يقووا على الوقوف فى تيار الحياة واذن فقد عاش تقريبا يتيم الأبوين يحس جوعا وعطشا الى الحنان لم يقدر له منه الا اليسير ولكن بعد حين •

وعاش فقيرا تنقل فى شتى الحرف واحترف الخدمة فى البيوت فذاق الذل وعرف الجوع وظل بعد ذلك يطرق أبواب الحياة خاوى الوفاض يلتمس لقمته فى عناء شديد • وعاش شريدا لم يعرف الاستقرار ولا طعم الاسرة •• فعاش وحيدا وقضى غريبا •••

وكان روسو مريضا عرف المرض وكان لم يبلغ الثلاثين بعد وقيل انه مرض عضوى أثر تأثيرا سيئا على نفسيته وكان سببا فى عزوفه عن المجتمعات لعجزه عن اطالة مكثه بين الناس •

أسهمت تلك العوامل جميعا فى تشكيل طباعه • فكان روسو حساسا مرهف النفس حار العاطفة طيب القلب محسنا خيرا خياليا حالما خجولا. وكانت له مع ذلك تصرفات تتعارض

مع تلك الميزات فقد كان أيضا مغرورا مسلوب الارادة متقلب الاهواء •

ولا ريب أن تلك الميول ، وتلك النزعات جميعا تظهر جلية واضحة « **أحلام يقظة جوال منعزل** » Les Rêveries du Promeneur Solitaire حيث تبدو نفسه على حقيقتها أصيلة بعيدة عن كل زيف •

فلانه كان حساسا نراه فريسة للانفعالات العنيفة فتبدو له الامور اما طيبة جدا واما بالغة السوء • فكان يتنازعه الاعجاب الشديد والحنان الشديد والغضب الشديد جميعا على السواء • كانت الكلمة الرقيقة تدفع الدموع الى عينيه والنظرة الشزراء تطيش صوابه وتؤلمه أشد الايلام •• وكان حار العاطفة عاش أيامه جميعا بقلب شاب متقد الاحاسيس فنراه يذكر « مدام دوفواران Mme de Warens في آخر « **الاحلام** » وكانما هو شاب نجح حديثا فى حبه فهو يزفر زفرة حرى غريبة على شيخ يسير بخطى حثيثة نحو السبعين •

وكان طيب القلب يميل الى عمل الخير •• كان حين يرتكب الخطا يظل يؤنب نفسه ويرزح تحت عبء ضميره ولو كان ذلك الخطا يسيرا • كان يحاسب نفسه حسابا عسيرا ويكشفها بعيوبها أمام الناس • وكانما ليؤدبها ويعاقبها عساها تكفر بذلك عما أتت •

كان محسنا متصدقا يعطف على الفقراء ويحب البسطاء من الناس وينفق برغم ضيق ذات يده ولكنه مع ذلك كان يحب أن يقدم الخير مختارا طائعا لا يستشعر فيه الزاما ولا اكراها •

ولعل أبرز لمحات شخصيته هى نزعته الشديدة الى الخيال •• ولعل عنوان آخر كتاباته « **أحلام يقظة جوال منعزل** » كان من الممكن أن يكون عنوانا لجميع مؤلفاته •• لم تكن الحقيقة تكفيه وتشبع رغبته فى الحياة فكان يلجأ الى الحلم عساه يسعده ويبعده عن واقعه الأليم •

ولانه كان خياليا نشد المثالية والكمال وبينما نراه نبيا يدعو الى الايمان والعدل والحق والشرف والمحبة تلمسه أحيانا وقد أتى شيئا يتعارض مع ما يدعو اليه فيعرض بكاتب مثلا أو يمجد مزايا العزلة • أو يسرف فى غروره بنفسه واعتداده بها حتى « ليكون صامدا راسخا كالاله نفسه » فى بعض الاحيان •

ولعل من دلائل غروره ما كان يردده من أنه « كان يفضل أن يكون

متسيا من الجنس البشرى كله على أن ينظر اليه كما ينظر الى انسان عادى ، كذلك ما كان من رفضه تلبية دعوة الملك حين أراد أن يكافئه على تاليفه لأوبرا **عراف القرية** Le Devin du Village ولا ريب أن هـذا الشرف لا يتأباه الا رجل من طراز خاص .

ذلك الاحساس بطيب عنصره وعظمة نفسه جعله يؤمن بطبيعته ومن ثم بالطبيعة عموما .. فجعلها أساسا للدين والسياسة والاجتماع والاخلاق .. وأحبها من بعد الله ...

وكان متدينا ينبع الدين من أعماقه يؤمن « بالرب الأعلى مبدع كل شيء » وكان يلتقى به فى الطبيعة الرحيبة التى ظل عاشقا لها مفضلا اياها على كل شيء آخر ..

ولكن كان خروجه من صومعته « الارميتاج L'Ermitage » نذيرا بحالة نفسية تثير الالتفات . بات يعتقد أن هناك عصبة تتآمر على سلامته وتستهدف تقويض سمعته .. وفى هذه المرحلة تولد لديه شعور بالاضطهاد ظل يتفاقم كلما زادت متاعبه وكثرت منغصات الحياة عليه .. وأصبح متشككا فى كل حركة وفى كل همسة ويرى فى كل ذلك دلائل المؤامرة الكبرى .. وزاد من محنته قرار طرده واحزاق كتبه ورجم بيته واضطراره الى الهرب من مكان الى آخر خائفا وجلا . خاب أمله فى الناس جميعا عندما أحس أنه ضحية مجتمع كرس حياته للدفاع عنه وأنه يلقى أسوأ الجزاء على ما ظنه خيرا قدمه اليهم من عصارة فكره وقلبه أحس عندئذ عدم جدوى الاتصال بهم فباعد مابينه وبينهم وعاش منطويا على نفسه يكتب « **اعترافاته** » و « **حواره** » وأخيرا « **أحلام يقظته** » وضع فيها جميعا ذاته هو وكرسها لدراسة نفسه هو ولعل فى ذلك أبلغ رد على جحود الناس وانكارهم لفضله ...

عاش فى عزلته اذن بعد أن اعتبر نفسه شهيدا وضحية وكان يزيد من آلامه حبه للناس وكراهيته لهم على السواء . فلم يكن روسو يكره المجتمع فى الواقع كما يشهد هو نفسه الا من أجل مايتطلبه من أعباء وواجبات كان يعتقد فى عجزه عن القيام بها ... وربما زاد من تعقيده ذلك المرض اللعين الذى ضاق به وجعل الدنيا مظلمة فى وجهه . ولكن عودته الى باريس فى أواخر أيامه أعادت الى نفسه بعض الرضا حين أدرك أن شهرته ذاعت فى أوربا اذ أخذ يتردد على داره الكتاب والأدباء والفنانون والموسيقيون من فرنسيين وانجليز وروس وايطاليين (١) من المعجبين به

---

(1) Henri Roddier: Les Rêveries du Promeneur Solitaire, p. 11.

المتحمسين لآرائه وممن ينشدون عونه في صياغة الالحان •

وتنفرد « أحلام اليقظة » بأنها تشير الى مرحلة القلق النفسي التي تجلت في « الحوار » Les Dialogues وبعده ثم انفثات هنا لأن فيها لوما وعتابا الى جانب ماتناولته من موضوعات ذلك لأنه يبدو أن روسو يئس من شرور الناس فعالجها بعزلة قلب كان حريا أن يملأه الحب لجيل اعتقد أنه « يلذ له أن يؤذه حيا » وهي سلسلة من الشكايات الطويلة التي تراود خياله وتلح على ذهنه حتى ترهقه أحيانا وحتى تدعوه للاستسلام أخيرا ما دام لايستطيع دفعا لأذى الناس وهو لم يكن لديه برغم ذلك أقسى من السكون الذي بدأ يلفه تدريجيا كأنما هو مؤامرة أجيد حبكها من الجيل الجديد تستهدف القضاء عليه •

أكان حقا مريضـــا ؟ أكانت تعـاوده « الشيزوفرنيا (الفصام) Schizophrénie فيحس من كل تصرفات من حوله اضطهادا يستهدفون من ورائه أذاه ؟

والشيزوفرنيا كمـا يعرفها الدكتور منكوفسكي Minkowski (١) اضطراب نفساني مظاهره عدم الانسجام وضعف الترابط في التفكير وقد أطلق العالم النفساني بلوويه Bleuer هذا الاصطلاح على الاضطراب العقلي المبكر الذي يصيب الشاب ثم يأخذ في التزايد حتى يفقده قواه العقلية •

وقد عمم اصطلاح « شيزوفرنيا » بعد ذلك حتى شمل حالات عديدة منها الـ Autisme وهي الحالة التي يكون فيها انسانا ما خاضعا لتأثير عناصر حيـاته الداخليـة أكثر من خضوعه لتأثير حياته الخارجية ومنهـا الهلوسة وهي حالة احساس المريض الذي يقوم على أمر وهمي ومنها أفكار الهذيان idées délirantes وهي الاضطراب النفسي الشديد الناشيء عن الانفعالات » •••• الخ

والفكرة الهذيانية عند هذا العالم النفســـاني هي عبارة عن فكرة خاطئة غير قابلة للتحول يتمسك بها المريض ويؤكدها في اعتقاد جازم برغم وجود عوامل أخرى تدحضها ومجموعة هذه الافكار تكون هذيان المريض وهي تنقسم الى ثلاثة أنواع : أفكار التعـــالي (مركب العظمة) وأفكار الاضطهاد والافكار السوداء بسبب الخسارة المالية أو الاحتقار أو التجاهل أو الاتهام ••

---

(1) Encyclopédie Française, T. VIII, pp. 8—54 — 12. (Article par EugèneMinkowski).

وهذه الافكار كثيرا ما تمتزج بالهلوسة وهي التي تسبب الاضطرابات في علاقات من يصاب بها مع بني جنسه والعالم الخارجي وتبين مدى الفرق بين المصاب والسليم ·

ويمكن أن تترجم الأفكار الهذيانية بأعمـــال خارجية تدل عليهـــا فالمضطهد على ذلك يتحول الى مضطهد حين ينهض للدفاع عن نفسه بمهاجمة مضطهديه ·· وهو هنا يصبح خطرا على المجتمع ·

ويختم أوجين منكوفسكي Eugène Minkowski مقاله بقوله ان المريض كثيرا ما يكتفي بالتعبير اللفظي عن أفكاره وان كان يكتمها في نفسه في أحيان كثيرة ··

من هذه الأعراض جميعا نكاد نعتقد بأن روسو كان مصابا بهذه الحالة ولعل العلامة المميزة لهذه الحالة من الاضطراب النفسي هي البساطة التي كان يضع بها أقرب أصدقائه موضع الشك ولم تسلم كثرتهم من ذلك ولذا كان أصدقاؤه المقربون يتجددون باستمرار ·

ولكن برغم ماكان روسو يعـانيه من اضطراب نفسي وذهني وبرغم ماعناه كذلك من تقلبات الزمن معه فان ذلك كله لم يؤثر على كتاباته عموما وبخاصة على « أحلام اليقظة » Les Rêveries التي سجل فيها صفحات خالدات هي من أجمل ماكتبه كاتب وفنان على السواء ·

أحلام اليقظة بين مؤلفات الكاتب الأخرى

لعل أول مايعرض عند قراءة الاحلام أنها تقدم لمحات عن حياة الكاتب ، على القارىء أن يتقبلها بحذر وبخاصة فيما يتصل بالاحداث البعيدة فى حياته وعلى أية حال فانها تمتاز بما يصحب الواقعة المعينة عند ايرادها من حالة نفسية تكيفها وتؤثر عليها . ومن دراسة الجولات وبعد تحليلها نستطيع أن نلمس صدق التطورات النفسية والذهنية التى كانت نتيجة لحالته العصبية فى السنين الاخيرة من حياته فهو يمر هنا بمرحلة هدوء نسبى يعرض فيها لكثير من النواحى التى جاءت بالحوار وكان فيها ثائرا مهتاجا ولعل الروح التى تصطبغ بها الجولات تكشف عن تطلعه الى تحقيق السعادة ومحاولته اقناعه نفسه بأنه قد حصل عليها أخيرا فعلا ..

والجولات الى جانب ذلك تختلف عن سابق أعماله الاخرى بأن عنصرا جديدا ـ يضغط عليه كثيرا فيها ـ هو تبكيت الضمير ومحاولة تبرير مسلكه أمام نفسه أولا وأمام الناس ومن هنا تبدو « **أحلام اليقظة** » ذات أهمية خاصة .

وأمر آخر يسترعى الانتباه فيها ويميزها هو أنها قد تبدو مفككة فى اهمال ، فى حين أنها فى واقع الأمر مترابطة أشد الترابط أحيانا ومنسقة على الاقل أحيانا أخرى .

ولعل القيمة الادبية فى « **أحلام اليقظة** » ترجع الى أننا نلقى صاحبها على طبيعته بغير ما تكلف أو تعقيد .. سواء أكان دافعه الى ذلك يأسه من الناس ومن المجتمع يأسا

لا رجعة فيه بحيث جرد نفسه من كل المظاهر التى يبدو فيها المرء وراء حقيقته أم كان دافعه تعلقه بالطبيعة البعيدة عن التكلف واندماجه فيها بحيث أراد أن يتشبه بها ، أم كان الدافع التقرب الى الله بالعودة الى طبيعة الاطفال .. الطبيعة الاولى .. أو طبيعة الانسان الفطرى الذى دافع روسو عنه فى رسالته الى أكاديمية ديجون ...

الواقع أن أعمال روسو كلها تعبر عن ذاته فهو لم ينس نفسه أبدا وبخاصة فى « الاحلام » التى تبدو وكأنما هى محور تفكيره وتأملاته التى يسبر أغوار نفسه عن طريقها ويصورها ويحلل أحداث ماضيه فى اعزاز ويحاول أن يعوض ذاته عن آلامها فيخلق لها جوا تسعد فيه وتنتشى .. عالما خاصا بها خلقت من أجله ...

وبرغم مايتخلل « الاحلام » من قلق تنبىء عنه وتردده بعض العناصر الادبية التى جاءت فى مؤلفاته السابقة ، الا أن المرء يحس فيها بنشوة تكاد تغير من شخصية صاحبها وتجعله أقرب الى أن يكون شرقيا متصوفا(١) ونحن نرى بذلك أنفسنا حيال انسان وشاعر جديدين .. والانسان هنا ذكى جذاب بفضل ذكائه .. كان النقد والهوى والهذيان تزعزع جميعا من قبل ثقته أما هنا فلا أثر لذلك كله .

وفى الجولات الاربع الاولى ـ كما فى الجولة السادسة ـ تحليلات جديرة بكاتب كلاسيكى . واننا لنجده فى هذه « الاحلام » وقد تحرر من عالم كان يشجع نواحي الضعف فيه ثم ينحو عليه باللائمة فيبدو ببراءته التى فطر عليها وبحسه المرهف وبعاطفته الجياشة وبحبه للاطفال والفلاحين ومشوهى الحرب والبسطاء من الناس . وهو فى الجولتين السادسة والتاسعة يبدو الى جانب ذلك ـ مثلهم ـ مرحا طاهرا مبرأ ألقى عن كاهله زيف الحضارة المصطنعة وعاد الى الطبيعة التى خلقت منه انسانا بكل ما فى الانسانية من سمو ورقة والجولتان اللتان خصصهما لاقامته فى جزيرة سان بيير Saint-Pierre (الخامسة) وميله للاستعشاب (السابعة) يبدو فيهما بوضوح تأثير العالم الخارجى عليه .. وكان كمال الطبيعة يؤكد لهذا المؤمن أن الاله الخالق الذى أبدع هذا الكون الرائع لا يزال يسهر عليه ولا يفتأ يجمله . والطبيعة عنده حية مثل روحه التى تحركها وتتفاعل معها ومن هنا تبدو إصالة « أحلام اليقظة » .

---

(١) م. ريمون يذكر هذا التشابه بين روح روسو وروح المسلمين وهو ما ذكره روسو نفسه في «حواره» .

Henri Roddier: Les Rêveries du Promeneur Solitaire, p. LXXXII.

ذلك لانه لأول مرة تلعب الطبيعـــة الدور الرئيسى فى مؤلف من مؤلفاته أو تلعب الدور الايجابى المباشر ، فهى ذات لها أحكامها وارادتها ووسائل اغرائها التى تمارسها على المخلوق الوحيد الذى يفهمها ٠٠ وقد لقى فيها روسو سلوته البريئة وعزاءه ومتعته التى تلائم طبيعته وأهدافه، وهكذا تحققت لروســـو فى آخر أيام العمر أعز أمانيه ٠٠٠ كان المزاج المسيطر عليه هو الاعتزال فى الريف على أن يخالطه التجوال وتلحق به الاخيلة والاحلام ٠ وهو يعلن فى سرور أنه « لم يفكر ولم يحس بكيانه ولم يدرك طعما لحياته ولم يعرف ذاته الا فى هذه الجولات التى تنقل فيها على قدميه فهو يقول «ان السير نحو شيء مايحيى أفكارى ويشحذها وانني لا أكاد أقوى على التفكير حتى يستقر بي المقام فى مكان ما ٠٠ يجب على جسدى أن ينتفض حتى يحتوى روحى ويستوعبها »

كان الله قد رزقه بالتفكير الحالم فى الطبيعة ، نشوة أنعشت روحه ورققت من مزاجه فغدا لايحس بوحدته برغم انفراده لانه كان يعيش مع ذاته وكانت الطبيعة تتجسد أمامه فغدا صفى أحلامه وخدن أخيلته ورفيق ذاته ثم مصدر مشاعره الداخلية٠٠ واحساساته الباطنة وعقائده ووساطة اتصالاته باللانهائية ثم خضوعه واذعانه للارادة الالهية فى نهاية الامر ٠

لقد كان روسو موسيقيا أو هو على الاقل اشتغل بالموسيقى وألف فيها وكانت هوايته نسخها حتى آخر أيامه والموسيقى هى أحسن مايترجم خلجات النفس وخواطرها فلا عجب أن جاءت **الاحلام** على هـــذه الصورة « سيمفونية » رائعة ٠ صدق « جوته Goethe » اذ شبهها بسيمفونيات « بيتهوفن Beethoven »

واذا كانت **الاعترافات** Les Confessions سردا لكافة الاحداث التى تخللت حياة الكاتب و « **الحوار** » Les Dialogues دفاعا ثائرا مضطربا عما اتهمه أو خيل اليه أن الناس اتهموه به فان«**أحلام اليقظة**»Les Rêveries تمتاز عن الاولى بالتحليلات النفسية العميقة وعن الثانية بكثير من الاتزان والتعقل وهدوء الخاطر نتيجة رضوخه للقدر واذعانه لمشيئة الله ٠

وأحلام اليقظة كذلك نافـــذة نطل عبرها على القرن الثـــامن عشر بفلاســـفته وأحداثه وعاداته ٠٠ الى تلك الحقبة من الزمان التى أنجبت مفكرين وأدباء عظام قد يكون كاتب هذه الاحلام أشهرهم وأقواهم تأثيرا فى الاجيال التالية ٠

أصالتها وأثرها الأدبي

ان القارىء لـ « احلام يقظة جوال منعزل » يدرك على التو أنها ابنة القرن الثامن عشر والابنة الصغرى لكاتب عظيم من ذلك القرن نفسه هو جان جاك روسو .

لقد قيل (١) : « ان روسو في فرنسا هو الداعي الى ثورة مزدوجة : احداها ثورة ١٧٨٩ في مجال الاحداث ، والاخرى الرومانتيكية Le Romantisme في المجال الفكري »

أما هنا فنحن لا تهمنا الا الثورة الثانية اذ أن الاولى (ثورة ٨٩) لا تهمنا هنا بقدر ما تهم الباحث في السياسة والآراء السياسية .

فيم كانت تلك الثورة ؟

في عصر أكثر ما يميزه أنه عصر الفلسفة ، كثر فيه المفكرون والباحثون والعلماء الذين يبنون أفكارهم وآراءهم على أسس وقواعد ومذاهب أساسها العقل والمنطق ، جاء جان جاك روسو ليرفع راية العصيان في وجه هؤلاء جميعا وليناصبهم العداء ولينفر من طريقة تفكيرهم وليقول لهم أخيرا « انكم منافقون ، فلسفتكم زائفة وآراؤكم عقيمة لا جدوى منها » ولا عجب فقد آمن روسو بالعاطفة قبل العقل وبالاحساس قبل الفكرة فكان ذلك الدين الذي سار على هديه وتعاليمه

---

(1) Lintilhac, Précis de la Littérature Française, T. II, Ch. X, p. 254.

طيلة حياته . فبينما كانوا يفكرون كان هو يحس ويستمتع ويتألم (١) وبينما كان غيره يصلون عن طريق التحليل الى فكرة الاحساس كان هو قد وصل الى حقيقة الاحساس عن طريق طبيعته ، كانوا يناقشون اما هو فكان يحيا .. ومن هنا تدفقت كل أعماله الادبية ، حتى كان آخرها **« احلام يقظة جوال منعزل »** .

اذن فقد كانت لهم فلسفتهم أما هو فكانت له فلسفة خاصة به وحده هي فلسفة القلب ان صح هذا القول .. لانها صادرة عن القلب .. وكانت هلويز الجديدة La Nouvelle Héloise هي النبع الذى تدفق منه سيل الحساسية والعاطفة .

كان للعاطفة في الإعمال الادبية قبل روسو نصيبها فهي احدى الصور المشروعة في الحياة لكنها ليست أهم ما في الحياة أو على الاقل هي ليست الرائد الوحيد للمرء فيها .. وقد كانت حين تدهم الروح وتسيطر عليها حدثا هو موضوع لرواية أو مسرحية فحسب دون أن تكون هدفا ومثلا أعلى أما بالنسبة لروسو فعلى العكس من ذلك كانت العاطفة هي العنصر العامل الوحيد في الروح بل ان قيمة الحياة في نظره مستمدة من مبلغ نصيب تلك العاطفة فيها ..

ونحن اذا تأملنا حياة روسو نفسها وجدنا أنه حقق بها حياة بطل رومانتيكي بكل ما في تلك الحياة من عدم تجانس وفوضى وهروب دائم من المجتمع ومشاعر متقدة وأحزان .. فقد كان لروسو حظ الحياة بعيدا عن المجتمع حتى ناهز الاربعين واذن فقد عاش حياة ابن الطبيعة وحياة الانسان الفطرى الذى لا يفقه من أصول الوجود في المجتمع شيئا قبل أن يكتب عن تلك الحياة وقبل أن يصفها في مؤلفاته .

وكان يحس وهو يكتب **«الاعترافات»** و **«احلام اليقظة»** أن روحه تنطوي على تألم لا يدرك كنهه وأن في قلبه فراغا لا يمكن أن يمتلىء .. فكانت العاطفة تسير مع الألم جنبا الى جنب والنفوس الحساسة يبعث تألمها القلق والاضطراب مما سمى بسأم القرن Le Mal du Siècle وهو من أكبر خصائص العصر الرومانتيكي . هذا ولو أن **الاعترافات** Les Confessions **وأحلام اليقظة** Les Rêveries لم تكونا وحدهما مبعث ذلك السأم والكآبة لأن قراء القرن الثامن عشر لم يعرفوهما الا في عامي ١٧٨١ و ١٧٩٠ . اذ انه لم يتم نشر هذين المؤلفين الا بعد وفاة الكاتب ــ ولكن كان مبعثه

Gustave Lanson : Histoire de la Littérature Française, p. 763. (1)

رواية « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloise» التى كان يتخاطفها الناس يقضون ليال بأسرها يقرأونها ويؤجرونهـا أحيـانا ويبكون مع روسو « وينتشون بلذة الاحساس(١) »

والخيال لدى روسو يسائد الاحساس ويذكيه انه كذلك يسلمه الى أحلام يحلق فيها مع « كائنات من خلقه » وفي « عالم خاص به لانه من صنعه » عالم يسعد به وينسيه شرور الحياة الدنيا ولذلك كانت أعمـال روسو الادبية جميعا محورها الخيال والمثـالية ، فتخيل مجتمعا سعيدا صحيحا ، وتخيل تربية مثالية لم يعرفها ولم يمارسها بنفسه ، وتخيل طريقة جديدة لوضع الموسيقى ، وتخيل حبا طاهرا سماويا حظ البشر منه قليل نادر ، وتخيل نفسه يحـاكم شخصا آخر لم يكن سوى روسـو نفسه ، وأخيرا ، وليس أدل على قوة ذلك الخيال الذى عاش روسو به وفيه طيلة حياته من العنوان الحالم الذى شاءه لآخر كتاباته أو بالاصح لآخر خيالاته وهو « **أحلام يقظة جوال منعزل** » •

واذن فقد كان روسو شاعرا ، وما هو الشعر ان لم يكن احساسا دافقا وخيالا متقدا رحيبا ؟ كان شاعرا فى عصر أحل الفكرة المنطقية الجافة محل انتفاضات العاطفة والقلب •

وناهيك اذا ما امتزج ذلك الاحساس وذلك الخيال بحب للطبيعة عظيم وتمجيد لما أبدع الخـالق ليس له نظير • لقد أحب روسو الطبيعة فصورها فى اطار جديد أجمل تصوير • أحبها كما يحبها انسان وفنان وحالم ومتعبد وعاشق فاسـتحق بذلك أن يكون « أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى آخر القرن الثامن عشر (٢) » حقا انه لم يكن للطبيعة فى الادب الفرنسى من قبل مكانة كبيرة ذلك لان الادب الفرنسى عامة هو أدب قوم يعيشون فى المدن أى أن هؤلاء القوم كانوا يفضلون متع المجتمع على مفاتن الطبيعة(٣) كان الناس يقدمون على السفر مكرهين وكانت الطبيعة الحلوة فى نظرهم هى فصـل الربيع وحده ذلك لان القرن السابع عشر أورث الثامن عشر النفور من الريف اذ كانت باريس تزخر بالمسارح تمثل عليهـا المسرحيات الجديدة ، وبمقاهيهـا الشهيرة حيث يتواعد الادباء والكتاب ، وبصالوناتها •• يجتمع بها عليـة القوم يلهون ويتناقشون ، حتى جاء روسو ليصيح فيهم أن عودوا الى الطبيعة وليصفها لنا فى صفحات بديعة خالدة من أجملها وصفه لجزيرة سان بيير Saint-Pierre وسط بحيرة بيين Lac de Bienne فى الجولة الخامسة من « **أحلام اليقظة** » ••

(١) D. Mornet : La Pensée Française au XVIIIème siècle, p. 140.

(٢) ، (٣) Louis Ducros : J.J. Rousseau, p. 57.

وكان روســو فريدا فى تفكيره ولم يكن يحب أن يقلد أحدا من السابقين فهو حين كان يريد مثلا أن يكتب فى التربية استلهمها من خواطره الخــاصة وكذلك اذا ما اراد أن يصف مشهدا طبيعيا لا يلجأ الى الكتب ولا يستعير الصور من غيره كما كان يفعل بعض معاصريه من الادباء ولكن كان يكفيه أن تعود به الذكرى الى حيث عاش بين ربوع الطبيعة سواء كان ذلك فى بوسى Bossey أو فى الشارميت Les Charmettes أو فى الارميتاج L'Ermitage وهـكذا كانت صوره صادقة تزخر بالحيــاة لانه لم يسافر فى عربة لاهيا يمل طول الطريق كما كان يسافر الناس فى ذلك الوقت لكنه كان يرتحل ضاربا على قدميه متأملا منتشيا بالطبيعة وسحرها الذى ينعش روحه يمتزج بها ويسعدها ويرتفع بها الى الله مبدع ذلك كله ..

والطبيعة التى تستغرق روسو هى الطبيعة الكبرى التى لم يفسدها الانسان بتعديله وتنظيمه كشواطىء بحيرة بيين Bienne مثلا وهو فى ذلك يختلف عن معاصريه فى حبهم للحدائق الانجليزية المنظمة .

ولانه فريد أيضا ، فانه كتب «**الاعترافات**» وكتب «**الحوار**» وكتب « **احلام يقظة جوال منعزل** » وضع فيها ذاته وكشف فيها عما تكنه من احاسيس ومشاعر مبينا عيوبه قبل فضائله ولم يحدث من قبله أن كتب كاتب بمثل صراحته وجرأته .. لم يحدث من قبل أن سطرت اعترافات بهذا الصدق وتلك الشجاعة ولم يحدث أن قام حوار بتلك الثورة ولا ذلك الازدواج الفريد فى الشخصية كمــا لم تكن أخيرا « **أحلام اليقظة** » نوعا أدبيا متعارفا عليه محدد المعالم .

لقد كتب فى مستهل «**الاعترافات**» Les Confessions : «انى أكون مشروعا لم يكن له من قبل نظير ولن يكون له مقلد » ، والواقع أنه فريد لم يقلد لا عند كتابة «تلك المؤلفات الاخيرة فحسب» بل فى كل أعماله الادبية على الاطلاق وذلك شأن من ينهج نهجا يمليه عليه قلبه وحده ويستمده من ذاته وحدها .

ولئن كان روسو فريدا أيضا بين كتاب عصره فبأسلوبه البــديع وجملته الموسيقية الجذابة وتعبيراته القوية وبلاغته ومنطقه (لان البلاغة والمنطق لا يصدران عن العقل وحده لكن عن القلب والشعور قبل العقل) لذلك قدر له أن يفرض جل آرائه على التفكير الانسانى وعلى القلب الانسانى وما صدر عن القلب حل فى القلب كما يقال ، بل انه كثيرا مايكون القلب أكثر اقناعا من العقــل . ولم يكن ينقص أسلوبه فى « **أحلام يقظة جوال منعزل**» Les Rêveries du Promeneur Solitaire سوى بعض قوافى الشعر

وأوزانه لتكون شعرا خالصا ، بل ان كثيرا من جمله لو انها نظمت كما ينظم الشعر لكانت قصيدا بارعا ليس له نظير وهذه الطريقة فى الكتابة هى التى جعلت من روسو .. ان صح القول : « أعظم شاعر فى القرن الثـامن عشر » كما انه ، عنها : يتعرف الانسان على روسو وشخصيته ونفسيته.

ولئن كان روسو لم يترك أولادا فقد خلف وراءه بنات أفكاره وأبناء عبقريته وهؤلاء هم الذين خلدوا ذكره عبر السنين فكان له فى حياته ومن بعده دائما معجبون ومتحمسون لافى فرنسا فحسب بل فى ألمانيا وانجلترا وغيرها من البلاد حيثما رق الاحساس وشفت الروح وظهرت الرغبـــة فى الهروب من مادية بغيضة كريهة هى وليدة الحضارة الزائفة .

ومن أكثر الكتاب الفرنسيين تأثرا بروسو وكتاباته « برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre » الذى كان صديقا حميما لروسو فى أواخر العمر فصــاحبه فى جولات كثيرة كانا أثنـــاءها يتحدثان ويجمعـــان الزهور والاعشاب ثم مات روســو فترك فى قلب صـديقه ذكرى عزيزة جعلتـــه يكتب « حياة ومؤلفـات جان جاك روســـو » La Vie et les Ouvrages de J.J. Rousseau وكذلك شاتوبريان Chateaubriand الذى يطلق عليـه « أب الرومانتيكيـة » باعتبــار روسو الاب الاكبر لها ثم مدام دوستايل Madame de Staël التى كتبت عنه تقول « لقد كان الخيال أولى ملكاته بل كان يطغى على ملكاته الاخرى ، كان يحلم أكثر مما يحيا وكانت أحداث حياته تدور فى رأسه أكثر مما تدور خارجها وعندما كان يرى بين الناس كان حب المرء له يقل ، ولكن عندما كان يرى مرة أخرى مع الطبيعة فان كل اختلاجات نفسه تجد صداها فى قلوبنا وتسمو فصاحته بمشاعر أرواحنا(١) » .

وكانت الكاتبة الكبيرة جورج صاند George Sand كذلك الابنة الروحية(٢) لروسو فقالت عنه «انى مخلصة له دائمـــا كما لو كان أبا أنجبنى لقد أورثنى كما أورث كل الفنانين المعاصرين لى حب الطبيعة » كما انها ــ كتلميذة محبة لروسو ــ كثيرا ماتمنت أن تكون مدام دوفواران أخرى(٣) .

وممن تأثروا بروسو الى حد كبير أيضا الكاتب سينانكور Sénancour اذ يقول على لسان بطل كتابه «الدومين Aldomen» : انى أعود فى قراءاتى دائما الى جان جاك روسو والى برناردين دو سان بيير وأدرس الطبيعـة

---

(1) Madame de Stael : Lettre sur les écrits de J.J. Rous- seau.
(2) ، (٣) Docteur Dorrya Fahmy : George Sand : Auteur dra- matique, pp. 358,861.

والانسانية مع الرجل الذى يعرفه عصره أقل مما يجب(١) وغيرهم كثيرون كان روسو لهم رائدا وملهما ..

وبعد .. فما أروع أن يصل المرء بجهده وحده دون معلم سوى الزمن وبلا هاد سوى فكره وقلبه !!!. نقول : « ما أروع أن يصل الى مراتب الخالدين !!!. » ان النفوس القوية لا تستطيع أن تخضع أمورا كبيرة لمشيئتها وتخضع الكون لفكرتها وتختار في حرية من الاماكن والعصور ما يتفق وطبيعتها .

ولئن كان روسو سياسيا بارعا ومصلحا اجتماعيا كبيرا ومربيا مثاليا فرض آراءه ومبادئه على الفكر الانسانى فتأثر به . فان الافكار تهرم وتشيخ ثم تموت طالت حياتها أم قصرت ودليلنا على ذلك تلك المدنية المتطورة ، المتغيرة أبدا ، فلنلتفت اذن الى ماهو باق ، الى ماهو خالد ، الى ماسوف تعجب به الاجيال القادمة مثلما نعجب نحن به .. الى ذلك النبع الغزير من البلاغة والنهر الفياض من الاحساس الرقيق ، الى ذلك النشيد الخالد الذى لن يطويه الزمان « **أحلام اليقظة** » نتاج شيخوخة أحاطت بها الموسيقى فترنمت بالعزلة وتغنت بالطبيعة في قصيد هو زهرتها وثمرتها . «حين أريد اقامة تمثال ل «يوليوس الثانى» أراد ميخائيل أنجلو أن يزوده بمفاتيح القديس بطرس فصاح البابا « لا .. بل بسيف » .

أما أنت يا جان جاك فاذا وضعنا **العقد الاجتماعى** أو **أميل** بين يديك لقلت : « لا .. ليس كتبا .. بل باقة من الزنابق » .

---

(١) Monglond : Vies Préromantiques, p. 133.

مسكين روسو ! لننظر اليه في صميم نفسه خلال كتاباته وفي دخائل أفكاره في كل مايند عنه من تناقض ومن صدق • فلو اننا أردنا ••• في سبيل الحكم عليه ••• أن نستمسك بفحصه على ضوء ما تجمع لتعاليمه من آثار وما نجم عنها من منازعات لاحصر لها لما التقينا به أبدا كما كان تماما •• فلننظر اليـه عن كثب كمن كان يقابله في شارع بلاتريير فما تزال هذه هي الوسيلة التي تتيح لنا أن نكون عنه فكرة دقيقة عادلة •

سانت ـ بوف

Sainte-Beuve

(Causeries du Lundi)

الجولة الأولى

هانذا وحيد فى الدنيا ، لم يعد لى من اخ او قريب أو صديق أو صحبة سوى ذاتى . ان اكثر الناس ميلا للمجتمع وأكثرهم حبا للناس قد اتفقوا جميعا على نبذه منها ، ولقد بحثوا ـ وهم يشحذون كراهيتهم عن ألم يستطيع ان يكون أشـــد قســـوة على نفسى المرهفة الحس ، فحطموا فى عنف كل وشيجة كانت تربطنى بهم . لقد كان من الممكن أن احب الناس بالرغم منهم ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يتسلوا من محبتى هذه الا حين كفوا عن أن يكونوا بشرا . فلا غرو أن اصبحوا جميعا غرباء مجهولين ثم نكرات بالنسبة لى ماداموا قد ارادوا ذلك لانفسهم. اما أنا وقد إعتزلتهم جميعا واعتزلت كل شيء ، فانني اتساءل ماذا عساى أن اكون ؟ ذلك هو السؤال الذى بقى على أن ابحث عن اجابة عنه . ولكن هذا البحث يجب أن يسبقه لسوء الحظ القاء نظرة على موقفى وهذه فكرة أرى لزاما على أن امر بها كى ينتقل الحديث عنهم الى .

منذ أكثر من خمسة عشر عاما (١) وانا فى هذا الموقف الشاذ الذى لايزال يبدو لى كانما هو حلم ، وأخال نفسى دائما كانما يعذبنى عسر هضم ، أو كأنما استسلم لنوم مضطرب واننى أوشك أن أستيقظ وقد زال منى الألم أو كاد لارانى بين أصدقائى . أجل مما لا شك فيه اننى وثبت وثبة سريعة ، دون أن انتبه الى ذلك ، من اليقظة الى النوم

(١) صدر قرار من برلمان باريس في ٩ يونيه ١٧٦٢ بحرق كتاب « اميل » Emile بعد أقل من عشرين يوما من خروجه من المطبعة في هولنده . وعلى اثر ذلك اضطر روسو الى الهرب الى سويسرا حين علم أن امرا صدر بالقبض عليه ، فلجأ الى مدينة ايفدون Iverdun وسرعان ما اصدر برلمان جنيف لم برن على التوالى قرارهما بادانة كتابى أميل والعقد الاجتماعى فاضـطر اخيرا الى أن يلجأ الى قرية موتييه ترافير Motiers—Travers بالقرب من نيوشـاتل Neuchâtel الخاضعة لسلطان فردريك الثانى ملك بروسيا .

أو بالاحرى من الحياة الى الموت • ولست أدرى بعد أن انتزعت من بين مجرى الاحداث كيف وجدت نفسي أهوى فى عماء لا يدرك كنهه حيث لا أتبين شيئا على الاطلاق ، وكلما أمعنت الفكر فى موقفى الراهن قلت قدرتى على ادراك مكانى .

وانى كان لى أن أتكهن بالمصير الذى كان ينتظرنى ؟ وأنى لى أن أدرك اليوم منه شيئا وقد اسلمت له قيادى ؟ أفكنت أستطيع باحساسى الفطرى أن افترض اننى فى يوم من الايام أنا الرجل نفسه الذى كنته والرجل نفسه الذى لا أزال أكونه ؟! • سيعدوننى بل سيعتبروننى من غير أدنى شك وحشا ، وسما زعافا وسفاكا ، واننى ساصبح موضع اشمئزاز الناس والعوبة فى ايدى الرعاع ، وأن كل تحايا المارة ستكون بصاقا على ، وان جيلا بأسره سيستمتع بدفنى حيا (١) • وحين تم ذلك التحول العجيب اضطربت فى بادىء الامر اذ أخذت على غرة ، وألقى بى اضطرابى وحنقى فى هذيان لم تكن عشر سنوات بالكثيرة عليه حتى يهدأ (٢) ، وخلال هذه المرحلة وأنا أقع فى هفوة بعد هفوة وخطأ بعد خطأ وحماقة بعد حماقة ، زودت — بعدم تبصرى — أولئك الذين يملكون زمام مصيرى بما يكفى من أدوات استخدموها فى مهارة لتحديد هذا المصير تحديدا قاطعا •

لقد جهدت طويلا فى ان أتخلص فى عنف من سلطانهم — بغير جدوى مع ذلك — ، ولقد أعوزتنى المهارة والحيلة والقدرة على المصانعة والحرص • كنت صريحا ، سليم الطوية ، قلقا ثائرا ، ولكننى حين كنت أحاول الفكاك كنت أزيد من القيود التى تكبلنى ، وكنت أيسر لهم باستمرار ان ينالوا منى فى نواحى الضعف التى لم يتوانوا عن استغلالها.

وحين ادركت فى نهاية الامر عدم جدوى ما أبذل من جهود وأننى أعذب نفسى بغير طائل سلكت السبيل الوحيدة التى لم يكن هناك مفر من سلوكها وهى الرضوخ لما كتب لى والكف عن معاندة الأقدار ، ووجدت فى هذا الاستسلام تعويضا عن كل ما نالنى من اذى وذلك بفضل ما

---

(١) جاء فى «الحوار الاول» lerdiaiogue المنشور فى: Oeuvres. Hachette. it IX. 156)
« لقد جعلوا من هذا التعس العوبة للعامة وسخرية للرعاع وموضعا لاشمئزاز الناس . انهم يحرمونه من كل مجتمع انسانى ويكممون أنفاسه فى الوحل ، ويستمتعون بدفنه حيا .

(٢) ينوه روسو هنا بمخاصمته للفيلسوف الانجليزى دافيد هيوم David Hume وبالشهور الاخيرة لاقامته بانجلترا .

اسبغ على هذا الاستسلام من سكينة لم تكن لتتفق والاستمرار في المقاومة المضنية العقيمة •

وهناك أمر آخر أسهم في هذه السكينة ذلك أن أولئك الذين كانوا يضطهدونني اغفلوا وهم يشحذون بغضهم امرا انساهم اياه حقدهم • ولقد استطاعوا عن طريق المضي في تلك السبيل تدريجيا ابقائي معذبا ثم تجديد آلامي عن طريق مداومة نيلهم مني — ولو انه كان لديهم من الحصافة ما يجعلهم يتركون لي شعاع أمل لبقيت حتى الآن تحت سلطانهم • لقد كانوا يستطيعون كذلك أن يجعلوا مني العوبة عن طريق وهم زائف ، ثم يعاودون ايلامي من جديد نتيجة خيبة آمالي المرتقبة ، ولكنهم كانوا قد استنفدوا كل حيلهم . وهكذا كان في تجريدهم لي من كل شيء حرمان لهم من كل شيء ، ولم يعد ما رموني به من افتراء وكآبة وعار مما يحتمل زيادة او تلطيفا حتى نال العجز منا جميعا ، فأصبحوا هم عاجزين عن أن يتمادوا وأصبحت أنا غير قادر على الخلاص. ولقد امعنوا في تجريعي كأس البؤس حتى الثمالة حتى لم تعد قوى البشر مجتمعة تساندها أساليب جهنم لتستطيع ان تضيف اليها شيئا ، بل أن العذاب الجثماني نفسه كان كفيلا بأن يلهيني عن الاحساس بآلامي ، بدلا من أن يزيدها ، فبانتزاع صراخي كان حريا أن يجتبني الانين كما كان تمزيق جسدي حريا أن يحول دون تقطيع نياط قلبي •

وبعد ، فماذا أخشاه منهم وقد انتهى كل شيء ؟ انه لم يعد في طاقتهم أن يثيروا مخاوفي لانهم لم يعودوا قادرين على الاساءة الى أكثر مما فعلوا • لقد جردوني نهائيا من القلق والخوف ، وفي هذا راحة لنفسي على أية حال . ان الآلام الحقيقية لا تنال مني الا قليلا ، واني لاتغلب في يسر على ما أستشعره وليس على ما أتوجسه منها ، ذلك لان خيالي الجامح يربط فيما بينها ويجددها ويوسع في مداها ويزيد منها ، بل ان ترقبي لها يعذبني مائة مرة أكثر من وقوعها ، فوقوع البلاء خير من ترقعه — ذلك أن المصائب اذا ما حلت فقدت هالة الخيال التي تحيط بها حتى تكشف عن صورتها الفعلية وعندئذ أراها أتفه بكثير مما كنت أتخيلها بل انه لايعوزني الاحساس بالراحة وأنا مغرق في آلامي•

أما وقد تحررت من كل المخاوف الجديدة ، و تخلصت من القلق الذي يساور الامل ، أحس أن اعتيادي ذلك كفيل بأن يجعلني يوما بعد يوم أكثر قدرة على احتمال موقف لا يمكن أن يزيد سوءا ، وكلما ازداد ارهاف احساسي بمرور الزمن لم تعد أمامهم وسيلة لاشعال

جذوته . هذا هو المعروف الذي اسداه الى مضطهدي حين استنفدوا الى ابعد حد ما فى جعبتهم من سهام بغض، وهكذا جردوا انفسهم من سلطانهم على وغدوت أنا بدوري أسخر منهم .

لم يكد يمضي شـــهران منذ نعم قلبي بسكينة مطلقة ، ذلك لانني منذ أمد طويل لم أعد اخشي شيئا وان كنت مع ذلك يملأني الامل ، ذلك الامل الذي كان يدنو مني مرة ويبتعد اخرى ظل هـدفا لم تأل آلاف العواطف المختلفة تستثيرني من أجله ، ولكن أمرا محزنا (١) وغير متوقع محا من قلبي هذا الشعاع الضئيل من الامـل ، وكشف لنـاظري عن مصيري وقد تحدد نهائيا والى الأبد في هذه الدنيا . ومنذ هـذه اللحظة رضخت بغير تحفظ حتى وجدت السكينة من جديد .

وما أن بدأت أتبين المؤامرة فى أوسع نطاق لها ، حتى تخليت تماما عن فكرة استمالة الناس الى صفي مادمت حيا ، وحتى ذلك الامر الذي لم يعد من الممكن أن أبادلهم اياه سيغدو منذ الآن عديم الجدوى ، ذلك لان أولئك الناس مهما جهدوا فى الرجوع الى فانهم سوف لا يجدون فى ما ينشدون ، كما أنهم بأثارتهم احتقاري اياهم تصبح صلتي بهم لا معنى لها ، بل انها تغدو عبئا ثقيلا . واني لاحس أنني أسعد حالا مائة مرة في وحدتي مني وأنا معهم . لقد انتزعوا من قلبي كل احساس بحلو المعاشرة الذي صار من العسير أن ينبعث من جديد في سني هـذه فقد بات ذلك متأخرا جدا فليحسنوا او يسيئوا الى بعد اليوم فسوف لا يعنيني منهم ذلك ومهما فعلوا فلن يكون لمعاصري من شأن لدي ابدا .

ومع ذلك فانني كنت أعول على المستقبل ، وكنت آمل في جيل أفضل يستطيع أن يتفحص الامور خيرا منهم ويصدر حكمه في صالحي ، ويستطيع بمسايرتي أن يتبـين زيف قادته حتى يشـهدني على حقيقتي – ان ذلك الامل هو الذي دفعني الى أن أسطر «حواري»(٢) Dialogues بل هو الذي أوحى الى بأن أقوم بألف محاولة جنونية لاقدمها للاجيال الصاعدة – ان ذلك الامل – وان كان بعيدا – هو الذي جعل روحي تستشعر الاضطراب نفسه الذي كان ينتابها حين كنت أبحث خلال القرن

---

(١) من المعـــروف انه حاول دون أن يوفق ايداع مخطوط الحوار les Dialogues كنيسة نوتردام Notre-Dime في ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ .

(٢) روسو يحاكم جان جاك Rousseau Juge de Jean-Jacques ثلاث قطع من الحـوار كتبتا فيما بين ١٧٧٢ ، ١٧٧٦ وقام بنشرها دي بيرو Du Peyrou في ١٧٨٩ .

من قلب عادل ــ أما أمانى التى حاولت عبثا التطويح بها فقد جعلت منى كذلك موضع سخرية معاصرى ·

ولقد ذكرت فى «حوارى» الاساس الذى أقمت عليه ترقبى ولكننى كنت مخطئا ، وأدركت ذلك لحسن الحظ فى وقت مناسب لاجد ــ قبل أن تحل ساعتى ــ فترة هدوء شامل وراحة مطلقة · وقد بدأت هذه الفترة فى المرحلة التى أتحدث عنهـــا ، وأحسب أنها لن يعترضها شىء بعد الآن .

وما كادت تمر الايام قليلة حتى أكدت لى خواطر جديدة مقدار خطئى حين اعتمدت على عودة النـــاس ولو فى زمن آخر ما داموا ــ على الاقل فيما يتصل بى ــ ينساقون وراء مرشدين يتجددون باستمرار فى الهيئات نفسها التى أمعنت فى النفور منى · ان الافراد يموتون ، وأما الجماعات فلا تموت أبدا · ان المشاعر نفسها تخلد فيهـا كما أن حقدها المتقد ، الخالد كالشيطان الذى يوحى به ، فيظل له دائما الاستعمار نفسه وحين يموت كل أعدائى من الافراد ، سيكون الاطباء والوعاظ على قيد الحياة ، وحين لا يبقى من بين مضطهدى سوى هاتين الطائفتين فيجب أن أكون على يقين من أنهم لن يكونوا بعد موتى أكثر رحمة بذكراى مما كانوا خلال حياتى ·

ان الاطباء الذين اسأت اليهم فى الواقع قد تهدأ ثائرتهم بمرور الزمن ، ولكن الوعاظ الذين كنت أحبهم وأقدرهم والذين كنت أودعهم ثقتى المطلقة والذين لم أسىء اليهم أبدا ·· ان الوعاظ رجال الكنيســـة انضاف رجال الدين سيظلون دائمـــا متعنتين لان جورهم جعـل منى مجرما فى نظرهم ، وهو أمر لن تغتفره لى كرامتهم أبدا ولكن الجماهير الذين يوالون اشعال جذوة حقدهم ضدى باستمرار لن تهدأ ثائرتهم كذلك .

لقد انتهى كل شىء بالنسبة لى فى هذه الدنيا ، ولن يستطيع أحد بعد آن يفعل بى خيرا أو شرا . لم يعد امامى ما آمل فية أو ما اخشاه فى هذه الدنيا ، وهاأنذا مستكين فى قرار الهاوية بشرا فانيا منكودا ولكن صامدا كالاله نفسه .

اننى ساعد منذ الآن كل مالا يتعلق بى غريبا عنى فليس لى بعد فى هذا العالم من قريب أو اقران او اخوة ــ فأنا على الارض كما لو كنت فى كوكب غريب وسقطت عليه من كوكب كنت أعيش فيه ، ولئن

تعرفت من حـــولي على شيء فانما أتسرف على الحزن الممزق لقلبي من الامور ، ولست استطيع ان يقع ناظري على ما يؤثر في وما يحيط بي دون أن أجـد فيـــه دائما موضعا لزراية تثيرني ، أو لألم يمضـــني . فلأجرد ذهني من كل ما يؤلمه مما قد يشغلني في أسى وغير طائل على السـواء ـ وما دمت ساظل وحيدا بقية أيام حياتي حيث لا أجد السلوى والامل والسلام في غير ذاتي فلست أريد ولا يجب علي أن أهتم الا بها .

وفي حالتي هذه سأتابع من جديد الفحص العسير الصادق الذي أسميته من قبـل « اعترافاتي » . انني اكرس أيامي الاخـيرة لدراسـة نفسي ، ولاعد مقدما الحساب الذي لن أتواني عن تقديمه عنها . فلاتجه بكليتي الى لذة التحـــدث الى نفسي ما دامت هي اللذة الوحيـــدة التي ليس في مقـــدور النـــاس انتزاعهـــا مني . فلئن استطعت من وراء أعمال الفكر في كوامن نفسي التسامي بهـا واصلاح ما يكون قد ترسب فيها من ألم ، فان تأملاتي عندئذ لن تكون عديمة الجدوى تماما ، وبرغم انني لم اعد اصلح لشيء في الحياة ، فانني لا أكون قد أضعت تماما أيامي الاخيرة . انني طالما شـغلت فراغ جولاتي اليوميـة بتأملات رائعـة يؤسفني أن ذكرياتها شردت مني (١) ، وسـأسـجل كتابة بعض ما يحضرني منها ، وكلما عاودت قراءتها تملكني من وراء ذلك السرور . سوف أنسى آلامي ، كما سوف أنسى أولئك الذين اضطهدوني وكل ما أذلني وأنا أفكر فيما كان يستحقه قلبي من مثوبة .

ان هذه الاوراق لن تكون في الواقع سوى يوميات غير متناسقة لأحلام يقظتي ، وستشتمل الكثير عني لأن انسانا منفردا يفكر لابد وأن يشغل كثيرا بأمر نفسه ـ وصـفوة القول ان كل الافكار الغريبة التي تمر بخاطري خلال جولاتي سيكون لها مكانها في هذه اليوميات وسأسجل ما فكرت فيه كما يرد على ذهني تماما دون أن يكون فيه من الروابط الوطيـــدة ما يكون عادة بين افكار الأمس الدابر وأفكار الغـــد . ولكن

---

(١) جاء في الخطاب الثالث الى مالزيرب Malesherbes المؤرخ في ٢٦ من يناير ١٧٦٢ :
« اي الاوقات ترى يا سيدي انني أذكرها كثيرا جدا وفي ارتيـــاح كبير في احلامي : انها ليست البتة متع شبابي ذلك لان هذه كانت شديدة الندرة تمتزج بها المرارة بقدر كبير ولانها تأت اليوم عني بعيدا جدا ، انها أوقات اعتزالي ، انها جولاتي المنفردة ، انها تلك الايام السريعة الحلوة التي قضيتها بأكملها مع نفسي وحيدا في رفقة مدبرة شئوني الطيبة الساذجة ومع كلبي المحبوب وقطتي العجوز ومع طيور الريف وغزلان الغاب ومع الطبيعة جميعها وخالقها الذي لا يرى » .

ستكون من ثمار ذلك دائما معرفة جديدة لطبعي ولمزاجي بفضل الصلة التي ترتبط بين مشاعري وأفكاري والتي هي الزاد اليومي لعقلي في الحالة الغريبة التي أمر بها . وعلى ذلك فهذه الاوراق يمكن أن تعد ملحقا لاعترافاتي ، ولكنني لا أستطيع أن أعطيها العنوان نفسه ، اذ أنني لم أعد أحس أن هناك ما يمكن ان يقال مما يستحق ذلك العنوان . لقد تطهر قلبي في بوتقة المحن وأكاد في عسر أتبين فيه ، وأنا أتحسس أغواره بعناية ، بقية من ميول تستحق اللوم .. وبعد فماذا لدى هناك من اعتراف وقد انتزعت منه كل المتع الدنيوية . لم يعد هناك ما يجعلني أزجي المديح الى نفسي ، أو ألومها عليه . انني منذ الآن صفر لا وجود لي بين الناس ، وذلك هو كل ما يمكن أن أكونه وقد انعدمت صـــلتي الفعلية ومعاشرتي الحقه لهم .

ولما لم يعد في مقدوري أن أقدم خيرا دون أن ينقلب الى شر ، أو أستطيع التصرف دون الحاق الضر بانسان أو بنفسي ، أصبح واجبي الوحيد أن أغدو سلبيا ، وأن أؤدي هذا الواجب تماما كما أحس به . ولكن برغم توقف جســـدي عن العمل فان روحي ستظل نشطة تتبعث منها أحاسيس وافكار وتبدو كذلك وكأنما انبسطت حياتها الداخلية والمعنوية بزوال كل المصـــالح الدنيوية أو العرضية ، وليس جســدى بعد اليوم سوى حائل وعقبة أسعى جهدى مقدما للتخلص منه .

ان وضعا فريدا كهذا يستحق بالتأكيد أن يدرس وأن يوصف ؛ واني لأكرس أوقات فراغي الاخيرة لهذه الدراسة ، ويتعين علي ضمانا لنجاحها أن أنهج نهجا منظما رتيبا ، ولكني غير قادر على القيام بهذا العمل بل انه قد يبعـــدني عن هــــدفي وهو أن أتبين تطورات نفسي وكيف تتابعت هذه التطورات . وسأجرى على نفسي ــ الى حد ما ــ التجارب التي يجريها علماء الطبيعة على الجو لمعرفة حال الطقس اليومية . سأطبق البارومتر على روحي ، وسوف تستطيع تجاربه ، اذا ما أجيـــد توجيهها وتكررت طويلا ، أن تقدم نتائج مؤكدة كتلك التي يقدمها علماء الطبيعة ثمرة لبحوثهم . ولكن ليس في نيتي التوسع الى هذا الحد فيما أقوم به . وسأكتفي بتسجيل تلك التجارب دون محاولة الخروج منها بقاعدة. انني أقوم بما قـام به « مونتساني » Montaigne (١) وان كنت

---

(١) مونتـاني Montaigne هو كاتب فرنسي (١٥٣٣ ــ١٥٩٢) ، اهتم بدراســـة الاخـلاق ، وبدأ في عام ١٥٧١ في كتابة المقـــالات les Essais ، صـور فيهـا نفسه من خلال المتناقضات التي كان يلمسها في طبيعته ، وروسو هنا يبعـد عن نفسه ما قد يعتقد من انه يقلد مونتاني فيما كتب .

استهدف شيئا مضادا لهدفه ، وذلك لانه لم يدون محـــاولاته Essais الا للآخرين في حين اني لا أدون أحـــلام يقظتي لغيري . ولئن بقيت في شيخوختي المتقدمة وأنا على وشك الرحيل .كمـا آمل في وضعي نفسه اليوم ، فستذكرني قراءتهـــا باللذة التي اتذوقهـــا وأنا أكتبها لأنها ستجعلني أحس بماضي وقد بعث من جـــديد ، وهكذا أعيش بفضلهـــا مرتين ، كما يقولون ، وأتذوق برغم الناس سحر المجتمع وساحيا شيخا مهدما مع نفسي في عصر آخر كما لو كنت أعيش مع صديق يصغرني .

لقد كنت اكتب أولى « اعترافاتي » Confessions و « حواري » Dialogues ، وهمي الـــدائم البحث عن الوســـائل التي تمكنني من اخفائها عن أيدي مضطهدي الباطشة حتى أسـلمها ، ان كان ذلك ممكنا ، لأجيـــال أخرى ولكن القلق نفسه لا يساورني بالنسبة لما أكتبه هنا لانني أدرك أنه لا جدوى من ذلك ، وأن الرغبة في أن تزيد معرفة النـاس بي ، وقد تلاشت من نفسي ، لم تخلف سوى عـدم الاكتراث الشديد بمصير كتاباتي الحقيقية وآثار براءتي على السواء ، التي ربما تم القضــاء عليهـــا الى الأبد . فليرقبوا ما أفعل وليتوجسوا خيفـة من هذه الاوراق ليستحوذوا عليها أو ليقضوا عليهـــا أو ليزيفوها ، فان كل ذلك سواء لدى منذ الآن . انني لا أخفيها ولا أظهرها فلئن سلبوني اياها في حيـاتي فلن يستطيعوا حرماني ممـا شعرت به من سرور عند كتابتها ولا من ذكرى ما اشتملت عليه ، ولا من تأملات الوحدة التي هي ثمرة لها والتي لن ينضب لها معين الا بصعود روحي الى بارئها . لو انني عرفت منذ أن حلت بي أولى المصائب كيف لا اقاوم قدري وأن ألتزم الجانب الذي التزمه اليوم ، لما استطاعت جهود النـــاس ولا خططهم الفظيعة أن يكون لها أثر علي ولما استطاعوا اقلاق راحتي بكل ما يدبرون أكثر مما يستطيعون منذ الآن بكل ما أصابهم من توفيق . فليستمتعوا كيفمـا شاءوا بما لحقني من اذلال ولكنهم لن يمنعونني من الاستمتاع ببراءتي ومن قضاء أيامي الاخيرة في سلام بالرغم منهم .

الجولة الثانية

اما وقد عولت على وصف الحالة التى اعتادتها نفسى فى أعجب موقف يمكن أن يصادفه مخلوق ، لم أجد من وسيلة أيسر واضمن لتنفيذ هذا المشروع الا عمـــل سجل صادق لجولاتى المنفردة ولأحلام اليقظة التى تشغلها ، عندما أطلق لفكرى العنان وعندما تتابع خواطرى مرقاها دون مقاومة او صعاب . ان هذه الساعات التى تنقضى فى وحدة وتأمل هى الساعات الوحيدة من اليوم التى اكون فيها انا نفسى ولنفسى دون شاغل أو حائل وحيث يمكننى بحق أن اقول اننى ماشاءت الطبيعة ان اكونه ، وسرعان ماأحسست اننى ابطأت اكثر مما يجب فى تنفيذ هذا المشروع . اما وخيالى أقل نشاطا فانه لم يعد يتوقد كما كانت الحال من قبل عند تأمل مايثيره ، كما اننى لم اعد أنتشى كما كنت افعل بحرارة احـــلامى بل ان فى نتاجها منذ اليوم من الاستعادة أكثر مما فيها من ابداع . ان وهنا فاترا يحط من قواى جميعا ، وسر الحياة يذوى فى تدريجيا ، ولم تعد روحى تنطلق خارج غلافها البالى الا فى عسر ، ولن أستطيع أن أحيــا على غير الذكريات مادام ليس هناك أمل فى الحالة التى ارنو اليها لأننى أشعر بحقى فيها — وهكذا رغبة فى تأمل ذاتى قبل افولى — ارى لزاما على أن ارجع القهقرى بضع سنوات على الأقــل الى تلك الفترة حين فقدت كل أمل فى الحياة ، ولم اجد غذاء لقلبى فى هذه الدنيا فأخذت أعود نفسى تدريجيا على أن أزوده بخلاصته باحثا فى ذاتى عن زاده كله .

وقد غدا هذا النبع الذى تنبهت اليه متأخرا من الغزارة بحيث سرعان ما كان كافيا لتعويضى عن كل شىء ، كما جعلنى اعتياد الرجوع الى ذاتى ، أفقد فى نهاية الأمر الاحساس بآلامى بل أفقد ذكراها تقريبا . وهكذا تعلمت عن طريق تجربتى الخاصة أن مصدر السعادة الحقة كامن فى نفوسنا وأنه ليس من شأن الناس ان يشقوا حقا من يريد أن يكون سعيدا .

وقد اعتدت منذ أربع أو خمس سنوات أن أتذوق هذه الملاذ الكامنة التى تلقاها الارواح المحبة الرقيقة عن طريق التأمل . ان هذه المسرات والنشوة التى كنت احس بها أحيانا وأنا أتجول هكذا وحيدا ، كانت متعا أدين بها لمضطهدى : اذ انني لولاهم لما اكتشفت مطلقا او ادركت الكنوز التى كنت احملها فى نفسى . وكيف يتاتى لى أن احتفظ بسجل أمين وسط هذا الثراء ؟ اننى حين ارغب فى تذكر احلام يقظتى الحلوة ، اراني مستغرقا فيها من جديد بدلا من أن أتناولها بالوصف ، وهذا هو مايؤدى اليه تذكرها وهى حالة سرعان ماتختفى حين يتوقف الاحساس بهـا .

وقد شعرت تمـاما بهذا الاثر خلال جولاتى التى تبعت مشروع كتابة تتمة «اعترافاتى» ، وبخاصة خلال الجولة التى سأتناولها بالحديث والتى قطع حبل افكارى فيها حادث مفاجىء وجعلها تتخـذ لفترة من الزمن مجرى آخر . ذلك أنه فى يوم الخميس الموافق للرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٧٧٦ سرت عقب تناول العشـاء فى الطرق حتى شارع « شيمان‌فير « Chemin-Vert ومن ثم الى مرتفعات «منيلمنتان» Ménilmontant ثم‌سرت فى‌الدروب والمراعى خلال‌الكروم مخترقا حى «شارون» Charonne الريفى البهيج الذى يفصل مابين هاتين القريتين ثم عرجت لأعود مارا بالمراعى نفسها ولكن عن طريق آخر . وكنت أسرى عن نفسى بتجوالى خلالها بتلك المتعة وهذا الاهتمام اللذين طالما بعثتهما فى نفسى المنـاظر الجميلة . وبتوقفى أحيانا لأمعن النظر فى نباتات معينة منبثة فى الخضرة وقد لمحت من بينها نوعين ندر ان رأيتهما حول باريس ولكننى وجدتهما بوفرة كبيرة بهذا الإقليم .. أما أولهما فهوالحوذان Picris-hieracicides من فصيلة المركبات وأما الآخر فهو (أذن الارنب Bupleurum falcatum من نباتات الفصيلة الخيمية ombellifères (١) .

وقد سرنى ذلك الاكتشاف واسعد نفسى فترة طويلة ، كما ادى الى اكتشاف نبات آخر أشد ندرة أيضا خاصة وهو فى اقليم مرتفع هو المعروف باسم الحشيشة المائية Cerastum aquaticum الذى ـ برغم الحادث الذى وقع لى فى اليوم نفسه ـ وجدته فى كتاب كنت أحمله معى وقد وضع فى معطفى .

وفى النهاية بعـد أن فحصت تفصيليا أنواعا كثيرة أخرى من

---

(١) من المعجم المصور للنباتات : تاليف ارمناك . ك. بديفيان . القاهرة ١٩٣٦.

انباتات كانت لاتزال مزهرة وكان مظهرها وترتيبها ـ وهو أمر مألوف لدى ـ يدخلان الى نفسى السرور مع ذلك دائما ، وأخذت أتخلى شيئا فشيئا عن هذه اللاحظات الدقيقة لأستسلم الى انطباعة لاتقل عنها لذة وان كانت أشد تأثيرا ، أضفاها على ذلك كله .

كان جنى الكروم قد تم منذ بضعة أيام وكان أهل المدينة من المتنزهين قد عادوا أدراجهم ، وكان الفلاحون قد هجروا حقولهم حتى يحل عمل الشتاء ... وأصبح الريف الذى كان لايزال مخضرا ضاحكا ـ وان تعرى من أوراق أشجاره جزئيا ـ يعرض فى جميع انحائه صورة للعزلة ومقدم الشتاء .

كان منظره على هذه الصورة مزاجا من الانطباعات الحلوة والمؤسية بلغت من الشبه بأيامى وحظى حدا لا يسعنى معه الا أن أراها تطابقها تماما .

كنت أرانى فى مغيب حياة بريئة تعسة ونفسى لاتزال مليئة بمشاعر حية وروحى تكللها بعض الازهار ، وان أسقمها الحزن وأذبلها الملل .. كنت أحس وأنا وحيد مهجور ببرودة الثلوج الأولى ، وكان خيالى الآخذ فى النضوب لايستطيع أن يملأ فراغ وحدتى بكائنات صيغت وفق هواى كنت أقول لنفسى وأنا أتنهد « ترى ماذا اقترفت فى هذه الدنيا ؟ لقد خلقت لأحيا ولكن هأنذا اموت دون أن أكون قد عشت » .

أن هذا ليس على الأقل ذنبى ، ولئن لم استطع ان أقدم الى بارىء كيانى قربانا من صالح الاعمال التى لم أمكن من أدائها ، فاننى سأقدم على الأقل ضريبة من نوايا طيبة ومن مشاعر طاهرة جعلها الناس عديمة الجدوى ، ومن صبر على محنة احتقارهم اياى .

كنت أحس بحنين لدى هذه الخواطر وكنت أستعيد خلجات نفسى منذ شبابى وفى سن نضوجى ، ومنذ أن ابعدت من المجتمع الانسانى وطوال فترة الانعزال الطويلة التى فرض على أن أقضى فيها أيامى الأخيرة ... كنت أسترجع فى رضا غامر عواطف قلبى جميعا وميوله الرقيقة ، العمياء مع ذلك ، وخواطرى التى كان جانب العزاء فيها يطغى لى مابها من هم دفين والتى كانت غذاء لفكرى منذ بضع سنوات خلت وكنت أعد نفسى لتذكرها بالقدر الذى يمكننى من تناولها بالوصف بلذة تكاد تعادل اللذة التى كنت احسها حين استسلمت لها . وانقضت فترة مابعد الظهيرة فى هذه التأملات الهادئة ، وكنت عائدا بالغ السعادة من يومى

عندما انتزعنى من غمار حلم يقظتى الحادث الذى بقى على أن ارويه .

كانت السادسة وانا اهبط طريق منيلمنتان Ménilmontant فى مواجهة « جالان جاردنييه» Galant-Jardinier تقريبا عندما شهدت جماعة من الناس – كانوا يسيرون أمامى – يتفرقون فجأة ، وسرعان ما انقض على كلب دانمركى ضخم قفز سريعا أمام عربة فلم يكن لديه من الوقت مايكفى لان يتوقف أو يحيد عندما لمحنى .. ووجدت أن الطريقة الوحيدة لتجنب وقوعى على الارض ، هى القفز الى أعلى بحيث يمر الكلب من تحتى ، وانا معلق فى الفضاء . هذه الفكرة وقد مضت فى ذهنى بأسرع من البرق بحيث لم يكن لدى من الوقت مايسمح بتدبرها او بتنفيذها ، كانت آخر ماعن لى قبل وقوع الحادث حتى لم أحس بالصـــدمة ولا بسقوطى على الارض ولا بما تلا ذلك حتى اللحظة التى افقت فيها .

كان الليل قد أرخى سدوله تقريبا عندما عاد الى رشدى ، ووجدت نفسى مستندا الى أذرع ثلاثة أو أربعة من الشبان قصوا على ماحدث لى ، فذكروا أن الكلب الدانمركى اصطدم بساقى أثناء عدوه حين لم يستطع الحد من اندفاعه فصدمنى بجمـاع جسمه وسرعتـه حتى أوقعنى أرضا وراسى الى الامام . وكان فكى العلوى الذى حمل ثقل جسمى كله قد اصطدم بأرض الطريق البالغة الخشونة ، فقـد كانت السقطة من العنف بحيث جعلت راسى فى مستوى ادنى من قدمى . وكانت العربة التى ينتمى اليها الكلب قادمة فى اثره وكادت تمر فوق جسدى لو لم يكبح الحوذى فورا جماح خيله .

كان هذا ماعلمته من رواية اولئك الذين انهضونى وكنت لاازال استند اليهم حين افقت ، وكانت الحالة التى وجدت نفسى عليها حينئذ شديدة الغرابة بحيث لا يسعنى الا أن أتناولها هنا بالوصف :

كان الليل يتقدم ، ورايت السماء وشهدت عددا من النجوم وقليلا من الخضرة ، وكان هذا الاحساس الأول لحظة هنيئة ولم يكن يخالجنى غيره اذ ذاك . كنت أخرج فى هذه اللحظة الى الحياة وكان يخيل الى أننى اشغل بكيانى الضئيل كل ماكان يقع عليه ناظرى . اما وقد عدت الى نفسى تماما فلم أكن أذكر شيئا بالمرة ، ولم تكن لدى أية فكرة واضـحة عن ذاتى ، ولا ادنى خاطر عما لحقنى . لم أكن أدرى من أكون ولا أين أنا ولم أكن احس بالم أو خوف أو قلق . كنت ارى دمى يسيل كما لو كنت أشهد جدولا ينساب دون أن يخطر لى بحال أن هذا الدم دمى .

كنت أحس هدوءا أخاذا يستولى على كيانى كلما تذكرته لااجد له مثيلا فى عالم اللذات المعهودة .. وقد سألونى اين اقيم ؟ ، ولكن .. كان من المستحيل على أن أجيب . وسألتهم اين انا ؟. فقيل لى اننى فى « لاهوت بورن » La Haute-Borne وكان ذلك كما لو قيل لى اننى فى جبل أطلس Mont Atlas – وكان من الضرورى ان أسأل على التوالى عن اسم الاقليم والمدينة والحى ، التى أنا فيها وحتى ذلك لم يكن كافيا كى أتعرف على نفسى ، وكان لابد من أن أقطع المسافة كلها من هناك حتى أصل الى الطريق لأتذكر سكنى واسمى•ونصحنى رجل لم تكن تربطنى به معرفة– وان أحسن الى بمرافقتى بعض الوقت حين أدرك أننى أسكن بعيدا–نصحنى بركوب عربة من « تمبل » Temple توصلنى الى منزلى • وكنت أسير سيرا حسنا فى يسروخفة ملحوظين دون أن أحس بألم أو جرح برغم ماكنت ألفظ من دم كثير ولكن انتابتنى رعشة باردة جعلت أسنانى المهشمة تصطك ببعضها فى صورة غير مريحة بالمرة • وحين وصلت الى « تمبل » خيل الى اننى ما دمت استطعت المسير دون الم فانه من الافضل أن أتابع طريقى سيرا على الاقدام من أن أتعرض للهلاك بردا فى عربة • وهكذا قطعت نصف الفرسخ فيما بين « تمبل » وشارع « بلاتريير » (١) Plâtrières وأنا أسير فى غير عناء ، متحاشيا العقبات والعربات مختارا ومتبعا طريقى نفسه على نحو ماكنت افعل فيما لو كنت مكتمل الصحة . وهاأنذا اصل وافتح المزلاج الذى وضع فى بوابة الشارع ثم أصعد السلم فى الظلام وأدلف فى نهاية الامر الى حيث اقيم دون أن أتعرض لحادث آخر سوى سقطتى وماترتب عليها ، مما لم يكن يخطر على بالى اذ ذاك .

ولقد أدركت من صرخات زوجتى حين شهدتنى أن ماحل بى أبلغ مما كنت اتصور ، ولقد قضيت الليل دون أن أدرك أو أحس مدى ماحل بى من سوء ولكن هاك ماأحسست به وما تبينته فى اليوم التالى : كانت شفتى العليا مشقوقة من الداخل حتى أنفى ، أما من الخارج فقد صانها الغشاء الجلدى فحال دون أن ينفصل شقاها ، وكانت أربعة من الاسنان قد انغرست فى فكى العلوى ، وأما الجانب من الوجه الذى يغطيها فكان شديد التورم تملؤه الكدمات كما أن ابهام اليد اليمنى أصيب بالتواء أدى الى انتفاخه ، وكان بابهام اليد اليسرى جرح كبير ، اما الذراع الايسر

---

(١) شارع بلاتريير Plątrière هو الذى سكن روسو فى منزل به بالدور الرابع عندما عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ولم ينتقل منه الا فى ٢ من مايو عام ١٧٧٨ ويسمى هذا الشارع اليوم شارع جان جاك روسو .

فقد اصيب بالتواء كذلك واما الركبة اليسرى فكانت شديدة التورم وبها رض شديد ومؤلم يمنعها كلية من القدرة على الانثناء • وبرغم هذه الإصابات جميعا فانه لم تكن هناك كسور ولا في سن واحدة وهو أمر يكاد يشبه المعجزة بعد سقطة كتلك التى تعرضت لها .

تلك هي قصة الحادث الذى وقع لى بمنتهى الصدق (١) وقد انتشرت تلك القصة بعد ايام قليلة فى باريس بعد ان تناولها التغيير والتحوير حتى أضحى من المستحيل التعرف على شيء منها . وكان من الواجب أن أفترض مقدما ذلك التحوير ولكن صحبت ذلك الحادث ظروف كثيرة غريبة ولغو مبهم وتكتم ، وكان الناس يتحدثون الى فى فضول مضحك جعلنى أوجس شرا من كل تلك المعميات .

لقد كنت دائما اكره الظلمة لأنها بطبيعتها تبعث فى نفسي رعبا حتى أن ما أحاطنى به الناس طوال تلك السنوات الكثيرة ما كان ليقلل منه • ومن بين غرائب هذه الفترة لن اشير الا الى واحدة تكفى مع ذلك للحكم على غيرها .

فقد أرسل السيد (•••) (٢) الذى لم تكن لى به صلة ما فى يوم من الايام سكرتيره ليستطلع اخبارى وليعرض على فى الحاح خدمات لم أر لها فى تلك الآونة فائدة فى التخفيف عنى . ولم يفت سكرتيره هذا أن يحثنى فى اصرار على أن أتمسك بعروضه حتى أنه قال لى انه ان لم تكن لى ثقة فيه فان فى استطاعتى أن أكتب مباشرة الى السيد (••••) •

وقد أدركت من وراء هذا الالحاح فى النصح وروح الثقة التى صحبته سرا ماكنت أحاول عبثا الكشف عنه ، ولم يكن الامر يستوجب مزيدا لينفرنى وبخاصة فى حالة الاضطراب التى كان يعانيها عقلى من جراء الحادث والحمى التى صحبته . وقد استسلمت لألف من الافتراضات

(١) وردت عن هذا الحادث روايات عدة تختلف فيبعض التفاصيل ، لعل اهمها ما اورده برناردين دوسان بيير Bernardin de Saint-Pierre وكورانسيه Corancez وهما يؤيدان مايرويه روسو • الاول في كتابه عن حياة روسو واعماله la vie et les ouvrages de J.J. Rousseau والثانى في « جورنال دوپارى Journal de Paris . (السنة السادسة . الجزء الاول من رقم ٢٥٩ ـ ٢٦١) ويرى البعض أن روسو ربما كان متأثرا فيما يرويه بما كتبه مونتانى Montaigne عن احاسيسه بعد سقطته من فوق الحصان. « Essais, Liv. II, Chap. VI ».

(٢) المسيو لنوار Monsieur Lenoir هو رئيس الشرطة طبقا لما جاء بالنسخة الخطية للسبع جولات الاولى وهى النسخة المحفوظة في نيوشاتل .

المقلقة الكئيبة وكانت لى على كل مايدور حولى تعليقات تتسم بهذيان الحمى اكثر مما تتسم بهدوء أعصاب رجل لم يعد يكترث بشيء .

ثم طرأ امر آخر قضى على البقية الباقية من هدوئى ذلك ان السيدة «.....» (١) كانت تطاردنى منذ بضع سنوات دون أن أحس سبب ذلك فمن هدايا صغيرة كانت تفتعل مناسبتها ، الى زيارات متكررة لم يكن هناك من داع لها ، ولم تكن تبعث السرور كذلك وكانت كافية لان تدفعنى الى الوثوق من وجود هدف مستور وراء ذلك كله ، وان لم تبينه تماما . وكانت قد تحدثت الى عن قصة تريد كتابتها لتقديمها الى الملكة وذكرت لها رأيى فى المؤلفات من النساء ، وافهمتنى ان هدفها من هذا المشروع استعادة ثروتها مما يجعلها فى حاجة الى رعاية ، ولكن لم يكن لدى من رد على ذلك . ثم ذكرت لى بعد ذلك انها لم تستطع الأتصال بالملكة ولذا استقر رأيها على تقديم كتابها للجمهور . ولم يكن هناك مجال لاسداء نصح لم تطلبه بل لو أن هذا حدث لما استمعت الى . وكانت قد قالت لى انها ستعرض على المخطوط أولا فرجوتها ألا تفعل وقد استجابت الى ذلك .

وقد تلقيت منها ذلك الكتاب ذات يوم خلال فترة نقاهتى مطبوعا بل ومجلدا وشهدت فى المقدمة مديحا ضخما لشخصى صدر به الكتاب بشكل ممجوج وفيه كثير من الافتعال مما كان له أسوأ الأثر فى نفسى . ولم يكن الملق الفج الذى يتلمسه المرء فى ثناياه مما يتفق واللياقة ولم يكن قلبى ليخدع به .

وجاءت السيدة «....» بعد عدة أيام لزيارتى ومعها ابنتها وذكرت لى أن كتابها أثار أكبر ضجة بسبب ملاحظة وردت به . وقد لاحظت بالكتاب هذه الملاحظة حين كنت أتصفح على عجل هذه القصة ، فأعدت قراءتها بعد انصراف السيدة ، وتمعنت فى تركيبها وأحسبنى كشفت عن هدف زياراتها لى وملقها اياى وما اسبغته من مديح مغالى فيه لشخصى فى مقدمة الكتاب . وايقنت أن هذا كله لم يكن له من هدف آخر سوى تهيئة أذهان الجمهور لتنسب تلك الملاحظة لى وبالتالى ماتثيره من لوم على كاتبها فى الظرف الذى تم نشرها فيه .

لم يكن لدى من وسيلة لاخماد هذه الضجة والأثر الذى يمكن أن

---

(١) ــ مدام دورموا Mme d'Ormoy هى اديبة ، مؤلفة كتاب : Malheur de la Jeune Emilie (Paris 1777).

ينجم عنها ، وكان كل مااستطيع القيام به هو الا اعمل على اذكائها بتحمل استمرار زيارات السيدة «...» وابنتها ، هذه الزيارات الفارغة المكشوفة . ومن أجل ذلك كتبت الى الأم هذه الرسالة :

« لما كان روسو لايستقبل فى بيته اى مؤلف ، فهو يشكر السيدة «...» على افضالها ويرجو الا تشرفه بعد اليوم بزيارتها » .

وقد كتبت لى الرد خطابا صادقا ظاهره وان كان ملتويا ككل الخطابات التى تكتب الى فى مثل هذه المناسبة . ولقد اغمدت الخنجر بوحشية فى قلبها الحساس ، وكان على أن أصدق من وراء لهجة خطابها انها لن تتحمل البتة هذه القطيعة بل ان دونها الموت لما تكنه من مشاعر حادة صادقة ، وهكذا تعد الاستقامة والصراحة فى كل شيء جرائم بشعة فى هذا العالم ، وهكذا كنت أبدو لمعاصرى شريرا شرسا حين لايكون لى من جرم فى نظرهم سوى أننى لست مضللا او مخادعا مثلهم .

كنت قد خرجت مرات كثيرة بل كنت اتجول غالبا فى التويلرى Tuileries عندما استنتجت من دهشة الكثيرين الذين كانوا يقابلوننى انه لايزال هناك نبأ آخر يتصل بى كنت أجهله . وعلمت فى نهاية الامر أن شائعة سرت بين الناس مؤداها اننى مت على اثر سقطتى . وقد انتشرت تلك الشائعة فى سرعة واصرار ، حتى أنه بعد اكثر من خمسة عشر يوما من علمى بها كان الناس يتحدثون عنها فى البلاط وكأنما هى أمر أكيد . ولم يفت جريدة «الكورييه دافنيون» Courrier d'Avignon (١)

(١) – فى عدد الثلاثاء ٢ من ديسمبر نشرت جريدة كورييه دافنيون Courrier d'Avignon

« منذ بضعة ايام صدم احد تلك الكلاب الدانمركية التى تتقدم العربات السريعة السيد روسو الذى غالبا ما يتجول وحيدا فى الريف ... ويقال انه مريض جدا بسبب هذه السقطة ، ولا نستطيع أن نأسف كثيرا على ما ناله بسبب دوس الكلاب له ... » وفى عدد الجمعة ٢٠ من ديسمبر : « مات جان جاك روسو متأثرا من سقطته . لقد عاش فقيرا ومات بائسا . ان غرابة قدره صحبته حتى القبر ، وانه ليؤسفنا اننا لانستطيع أن نتحدث عن مواهب هذا الكاتب البليغ . ولا بد أن قراءنا يدركون أن سوء استعماله اياها يفرض علينا الصمت المطبق فى هذا المقام . فليطمئن الناس تماما من انهم لن يحرموا من الالمام بتفصيلات حياته وأنهم سيجدون بها حتى اسم الكلب الذى قتله » .

وقد كتب فولتير Voltaire الى فلوريان Florian فى ٢٦ من ديسمبر ١٧٧٦ يقول : « لقد احسن جان جاك صنعا بموته » ويزعم انه ليس صحيحا أن كلبا قتله ، وانه شفى من الجراح التى اصابه بها صديقه الكلب . ولكن يقال انه فى يوم ١٢ من ديسمبر عن له أن يقوم بالتسلق فى باريس مع صديق=

كما عنى البعض بالكتابة الى مشيرين الى ماجاء بها ـ عندما زفت هـذا النبأ السعيد ـ أن تتعجل بهذه المناسبة ما يعد لما أستحقه من السباب والاهانات لذكرى وفاتى فى صورة رثاء ، وقد اقترن ذلك الخبر بظرف آخر أكثر غرابة كذلك لم أعلم به الا مصادفة وان لم أعرف شيئا عن تفصيلاته : ذلك أنه افتتح اكتتاب فى الوقت نفسه لطبع المخطوطات التى قد يعثرون عليهـا لدى ، وفهمت من وراء ذلك أنهم قد أعـدوا مجموعة من الكتابات اصطنعوها خصيصا لتنسب الى بعد موتى مباشرة ، ذلك لأن الاعتقاد بأنهم قد يقومون مخلصين بطبع أية واحـدة من بين ماقـد يعثرون عليه حقيقة ، سخافة لايمكن أن يقبلها تفكير رجل عاقل جنبته اياها خبرة خمسة عشر عاما .

وقد أهاجت هذه الملاحظات خيالى من جديد بعد أن كنت اظن انه خمد وذلك حين توالت وحين تبعتها أخريات ليست بأقل منها عجبا ، كما أحيت فى نفسى تلك الافتراءات المضللة ـ التى دأبوا على تدعيمها بغير هوادة من حولى ـ كل ما تبعثه فى نفسى عادة من اشمئزاز .

ولقد نال منى الجهد وأنا أحاول ايجاد ألف تفسير لهذا كله ومن جراء محـاولة تفهم الاسرار التى جعلوها مستغلقة على ، وكانت النتيجة الوحيدة الثابتة لتلك المعميات تأكيدا لكل ماانتهيت اليه من قبل وهو ان ما قدر لى وما قدر لسمعتى قد اتفق على تحديدهما الجيل الحاضر جميعه بحيث لم يكن أى جهد من جانبى ليستطيع تخليصى مادام ليس فى مكنتى اطلاقا أن انقل الى الاجيال المقبلة أية وديعة دون أن تمر بين أيدى هذا الجيل التى يهمها القضاءعليها .

ولكننى فى هذه المرة ذهبت الى أبعد من ذلك : ان تجمع هذا القدر من الاحداث الطارئة وارتفاع شأن ألد أعدائى جميعا بفضل يد القدر كما يقال وكل أولى الأمر فى الدولة ، وكل من يوجهون الرأى العام ، وجميع ذوى المكانة والصفوة من ذوى الاعتبار الذين كأنما اختيروا عمدا من بين أولئك الذين يحملون لى ضغنا دفينا ، متسابقين ليسهموا فى المؤامرة المشتركة ... هذا الاجماع العام من الغـرابة بحيث لايمكن ان يكون محض صدفة . ولو أن امرأ أبى أن يسهم فى المؤامرة ، أو لم يتفق أحد احداثها مع وجهة نظره ، أو أن ظرفا غير متوقع اعترض سبيله ، لكان

= قديم من جنيف يدعى روميى Romilly وانه أكل كشيطان فاصيب بعسر هضم ثم مات ككلب .. » .

ذلك كافيا لفشلها ، ولكن دعمت من صنيعهم كل الارادات والقدرات والمال والثورات . وان تسابقا مثيرا كهذا يكاد يشبه المعجزة ، لايدع مجالا للشك لدى فى ان نجاحه المحقق كان مكتوبا فى لوح القدر ، وأن كثيرا من الملاحظات الخاصة سواء فى الماضى أو فى الحاضر ايدت رايى هذا ، لدرجة لااستطيع معها ان أمنع نفسى بعد من أن ارى ماكنت احسبه حتى اليوم ثمرة الشر الانسانى ، كأنما هو واحد من تلك الاسرار الالهية المستعصية على العقل البشرى .

ان هذه الفكرة بدلا من أن تقسو على وتمزق قلبى أراها تعزينى ، وتدخل السكينة الى نفسى وتساعدنى على الاستسلام ؛ وأنا فى هذا لا أختلف عن « القديس أوغسطين » (١) الذى عزى نفسه عن تعذيب الناس له باعتبار ان هكذا كانت مشيئة الله . وأما استسلامى فمصدره لايخلو من الغرض فى الواقع ولو أنه ليس اقل نقاء وأكثر جدارة فى رايى بالكائن الكامل الذى أعبده .

ان الله عادل ، وهو يريد ان اتألم وهو يعلم اننى برىء ... ذلك هو سبب ايمانى الذى يؤكد قلبى وعقلى انه لن يضللنى . فلندع الناس والقدر اذن لما يعملون ولنتعلم كيف نحتمل الألم بغير تذمر : فلا بد وأن تنتظم الامور جميعا فى النهاية ، وسيحل دورى ان عاجلا أو آجلا .

---

(١) ــ القديس أوغسطين Saint-Augustin هو ابن القديسة مونيك Sainte Monique (٣٥٤ ــ ٤٣٠ م) وقد اجتذبته الحياة الدينية بعد شباب ماجن وأصبح فيما بعد أشهر آباء الكنيسة اللاتينية ، ومن أهم مؤلفاته مدينة الله والاعترافات . وهذه روى فيها اخطاء شبابه ثم هدايته (حوالى ٣٩٨ م) .

الجولة الثالثة

« اننى أشيخ وما أزال أتعلم »

كان «سولون» (١) يردد هذا البيت من الشعر كثيرا فى شيخوخته ، ولهذا البيت معنى استطيع انا الآخر أن أردده فى شيخوختي كذلك . وياله من علم يدعو الى الرثاء ، ذلك العلم الذى أكسبتنى اياه التجربة منذ عشرين عاما (٢) ، ان الجهل أنفضل منه • ان المحنة هى من غير شك معلم كبير ، ولكن هذا المعلم يتقاضى غاليا ثمن دروسه ، وأغلب الامر أن مايجنيه المرء من فائدة من ورائها لا يعدل الثمن الذى تكلفته • هذا الى ان فرصة الافادة منها تنقضى قبل أن يستطيع المرء الحصول عليها من وراء دروس جاءت متأخرة • ان الشباب هو الفترة التى يتعلم المرء فيها الحكمة ، أما الشيخوخة فمرحلة ممارستها • وانى لأقر أن التجربة تعلم دائما ولكنها لا تفيد الا بقدر ما أمام المرء من فسحة فى الوقت • ان ساعة الموت هى اللحظة التى يتعلم فيها كيف كان يجب أن يعيش ؟

وبعد ، فيم تفيدنى معلومات جاءت متاخرة وبهذه الصورة المؤلمة عن مصيرى وعن عواطف الآخرين ومصيرى من صنعهم ؟ انى لم أتعلم أن أزداد معرفة بالناس الا لأزداد احساسا بمدى ماأغرقونى فيه من تعاسة دون أن تستطيع تلك المعرفة حين اماطت اللثام عن كل مانصبوه لى من شراك ، أن تجنبنى واحدا منها .

ليتنى ظللت أنعم بهذه الثقة العمياء ـ الحلوة مع ذلك ـ التى جعلت منى طوال تلك الأعوال العديدة فريسة والعوبة لصحابى الصاخبين ،

---

(١) سولون Solon هو فيلسوف ومشرع اغريقى (٦٤٠ ــ ٥٥٨ ق.م) .

(٢) يشير روسو هنا الى عام ١٧٥٧ حيث تمت القطيعة بينه من ناحية وبين مدام دابيناي Mme d'Epinay وجريم Grimm وديدرو Diderot من ناحية اخرى ، وكان ذلك بداية متاعبه الحقة واعتقاده في مؤامرة يحيكها له اعداؤه .

دون أن ينالني ادنى شك فيما احاطوني به من تدبيرات . حقا لقد كنت موضع استغفالهم كما كنت ضحية لهم ، ولكنني كنت أحسبني محبوبا منهم ، وكان قلبي يستمتع بما أوحوا الى من محبة حسبتهم يبادلونني مثلها . ولكن انهارت هذه الاوهام اللذيذة . ان الحقيقة الأليمة التى كشف لى عنها الزمن والعقل وهما يجعلاني أحس بشـــقائى ، جعلتنى ادرك أن لاوسيلة للبرء منه ، وأنه لم يعد لى الا ان أستسلم له ، ومن ثم كانت كل تجارب عمرى بالنسبة لى وفى حالتى هذه ، بغير نفع حاضر ، أو كسب فى المستقبل . اننا نشرع فى الكفاح عند مولدنا ونفرغ منه عند الموت ، فما جدوى تعلم المرء كيف يحسن قيادة مركبته حين يكون قد بلغ نهـــاية المطاف ؟ انه لم يعد اذ ذاك مجال للتفكير اللهم الا فى كيفية الخروج منه . ان ما على الشيخ أن يدرسه .. اذا كان لايزال هناك مجال للدراسة لايعدو أن يكون المران على الموت ، وتلك الدراسة على وجـــه التحديد هى اقل مايهتم به من كان فى مثل سنى ، فهو يفكر اذ ذاك فى كل شىء الا ذلك الامر . والشـــيوخ جميعا يستمسكون بالحيـــاة أكثر من استمساك الاطفال بها ، ويرحلون عنها فى أسى يفوق حزن الشباب على فراقها ، ذلك لانهم ـــ وقد كان كل ماقاموا به من أعمال انما قاموا به من اجل هذه الحياة الدنيا ـــ يشعرون فى نهايتها ان كل جهودهم ضاعت هباء فهم يخلفون عند رحيلهم كل ماجهدوا من اجله وكل متاعهم وكل الثمار التى سهروا يعملون من أجلها . ولم يفكروا خـــلال حياتهم أن يكتسبوا شيئا يستطيعون حمله معهم عند موتهم .

لقد رددت ذلك لنفسى فى الوقت المناسب له ، ولئن لم يكن فى الامكان أن افيد من خواطرى خيرا من ذلك ، فليس هذا لانها لم تعن لى فى أوانها أو لأننى لم استطع استيعابها تماما . ولما كنت قد زج بى منذ طفولتى وفى خضم الحياة ، فقد ادركت مبكرا ، وبالتجربة ، أننى لم اخلق لأعيش فيها ، واننى لن أنجح البتة فى الوصول الى ما يحس قلبى بحاجته اليه .
واذن فلما توقفت عن البحث بين الناس عن السعادة التى كنت أدرك عدم قدرتى على أن اجدها بينهم ، فان خيالى المتوقد مالبث أن وثب متخطيا نطاق حياتى وهى بعد فى مستهلها ، وكانما يجتـــاز ارضا غـــريبة عنى ، ليستقر فوق بقعة هادئة استطيع أن اثبت عليها .

كان هذا الشعور الذى اغتذى بما تعلمته منذ طفولتى والذى تدعم طوال حياتى .. بتلك السلسلة ـــ من الشـــقاوة وسوء الحظ ـــ التى

ملأت أرجاءها ... مما دفعني في كل وقت ، الى محاولة معرفة طبيعة كياني وما سوف ينتهي اليه وذلك في اهتمام وفي عناية أبلغ مما أجدهما عليه لدى اى انسان آخر . لقد شهدت من بين الناس من استطاعوا إن يتعمقوا في فلسفتهم أكثر مني ، ولكن فلسفتهم تلك ، ان صح القول ، كانت غريبة بالنسبة لهم ، فرغبة منهم في أن يصبحوا اغزر علما من غيرهم ، أخذوا يدرسون الكون حتى يتوصلوا الى معرفة كيف تظم ، كما لو كانوا يدرسون بدافع الفضول المحض آلة من الآلات وقع نظرهم عليها. لقد كانوا يدرسون الطبيعة البشرية ليستطيعوا التحدث عنها حديث العلماء .. لا ليتعرفوا على أنفسهم ، وكانوا يعملون لتثقيف الآخرين .. لا لالقاء ضوء المعرفة على دخيلة أنفسهم . بل ان الكثيرين منهم لم تكن لهم من رغبة سوى تأليف كتاب ــ ولا يهم في ذلك أى كتاب ــ على شريطة أن يتقبله الناس ، وحين يتم تأليفا ونشرا فلا تهمهم بعد ذلك محتوياته في كثير أو قليل ، اللهم الا دفع الناس الى اعتناقها ، والدفاع عنها ان هوجمت . وذلك دون أن يفيدوا منها أو يجشموا أنفسهم عناء معرفة صواب أو خطأ هذه المحتويات مادام الناس لم يفندوها . وأما أنا ، فانني حين كانت تحدوني الرغبة في التعلم ، فقد كنت أستهدف معرفة ذاتي ، لا تعليم الناس .. وكنت أومن دائما أن على الانسان أن يبدأ بمعرفة الكثير لذاته قبل أن يعلم الآخرين . ومن بين كل الدراسات التى حاولت القيام بها خلال حياتي بين الناس ، لم تكن هناك واحدة لا أستطيع القيام بها كذلك وحيدا في جزيرة تخلو منهم أحتجز فيها بقية أيام حياتي . ان مايجب على الانسان عمله يتوقف كثيرا على ما يجب عليه الايمان به ، وان معتقداتنا هي التى تنظم فعالنا الا فيما يتعلق بالضرورات الاولية التي تفرضها الطبيعة . ولقد حاولت كثيرا لفترة طويلة ــ وبهذا المبدا الذى اعتنقته دائما ــ أن أوجه طريقة حياتي وان أتعرف نهايتها الحقة ، فما لبثت أن تعزيت عن ضعف مقدرتي على شق طريقي بمهارة في هذا العالم وذلك حين شعرت انه لم يكن من الضروري السعي وراء معرفتي تلك النهاية .

اما وقد ولدت في اسرة تسودها التقاليد المتينة والتقوى وربيت فيما بعد بحنان لدى كاهن بالغ الحكمة والتدين ، فقد تلقيت منذ نعومة اظفاري مبادىء ومثلا ــ قد يسميها الآخرون معتقدات ــ لم يحدث مطلقا أن تخليت عنها تماما . وعندما كنت لا أزال طفلا ، على سجيتي ،

يغريني التدليل ، ويتملكني الزهو ، وتخدعني الأماني ، وتقهرني الحاجة ، اعتنقت الكاثوليكية ولكني ظللت دائما مسـيحيا ، وما لبث قلبي بحكم العادة أن تعلق بالخلاص بديني الجديد . وقد وطدت لدى هذا التعلق تعاليم مدام «دوفواران»(١) Mme de Warens وما سردته على من أمثال . كما أن وحدتي في الريف حيث أمضيت زهرة شـبابي ، بالاضـافة الى دراسـة الكتب الجديدة التي تفرغت لها بكليتي ، دعمت ـ وأنا بجوارها ـ من استعداداتي الطبيعية لمشاعر الود وجعلت مني متدينا على طريقة فينلون Fénelon (٢) تقريبا . ان التفكر أثناء العزلة ودراسـة الطبيعة وتأمل الكون ، تضطر جميعا المرء المنفرد بنفسه الى الانطلاق دوما نحو خالق الاشياء ، والى البحث في لهفة مستحبة وراء غاية كل ما يراه وعلة كل ما يحس به . وحين ألقى بي قدرى في دوامة الحياة ، لم أعد أجد فيها ما يستطيع أن يستهوى قلبي ، ولو للحظة واحدة ، فقد تبعتني الحسرة ـ أينما توجهت ـ على أوقات فراغي الحلوة ، ولونت بعـدم الاكتـراث والاشمئزاز كل ما كان من الممكن أن أجده في متناول يدى، حريا أن يقودني وراء الثراء ومراتب المجد ، ولما لم أكن مستقرا تحدوني رغباتي القلقة، فقد كنت آمل في القليل ، فحصلت على الاقل ، وشعرت حتى في اشراقة الرخاء أنني لو قدر لى أن أحصل على ما كنت أظنني أبحث عنه لما عثرت فيه قط على تلك السعادة التي كان قلبي متعطشا اليها دون أن يستطيع تبين كنهها . وهكذا كان كل شيء يسهم في تقطيع أوصال المودة بيني وبين هذا العالم حتى قبل أن تحل بي المصائب التي كان من شأنها أن جعلتني غريبا عنه تماما . وهكذا شارفت الاربعين من عمرى ، أتأرجح بين العوز والثراء ... بين الحكمة والضياع ، تجللني رذائل اعتدتهـا دون أن يكون بقلبي أى ميل الى الاثم ، أعيش مغامرا دون مبـادىء محدودة تماما في فكرى ، لاهيا عن واجباتي دون أن أحقرها ، ولكن دون ان أتفهمها جيدا في أغلب الامر .

---

(١) ـ مدام دوفواران Mme de Warens هي السـيدة التي حولت روسـو من البروتستانتية الى الكاثوليكية واقام عندها سنوات كان يناديها خلالها « امي » ويعتبرها روسو (الجولة العاشرة) أسعد سنوات عمره .

(٢) فينلون Fenelon كاتب فرنسي ومن كبار رجال الدين (١٦٥١ ـ ١٧١٥) ، اعتنق مذهبا يدعى Le quiétisme يقصد به «الحب الخالص لله» ولايطلب ممن يعتنق هذا المذهب القيام بأية شعائر دينية ، فما عليه الا ان يعيش محبـا لله في هدوء مطلق .

ولقد كنت منذ أيام شبابى قد حددت هذه المرحلة ــ مرحلة الاربعين ــ كحد لمجهودى فى سبيل النجاح ، وكحد لمشروعاتى فى كل نوع مصرا ــ بمجرد بلوغى هذه السن ومهما يكن من مركزى حينئذ ــ ألا أناضل من أجل الخروج منه ، وأن أقضى ما تبقى من أيامى ، أعيش ليومى دون أن أشغل بالمستقبل • ولما حلت تلك الساعة ، نفذت هذا المشروع دون عناء ، وبالرغم من أن حظى اذ ذاك بدا وكأنما ينحو الى مزيد من الاستقرار ، الا اننى عدلت عنه ، لا بغير أسف فحسب بل وبسرور حق • وفيما أنا أحاول انفكاك من كل هــــذه المضللات ، ومن كل تلك الأمانى الكاذبة ، استسلمت كلية للاهمال ودعة الفكر التى كان لى بها ميل مستبد وانعطاف مقيم ، هجرت المجتمع بمباهجه ، وزهدت كل زينة ، فلم يعد لدى سيف ولا ساعة ، لا جوارب بيضاء ولا حلى ذهبية ولا زينة شعر، بل شعر مستعار بسيط جدا ، ورداء سميك من الصوف ، بل ــ وخيرا من هذا كله ــ نزعت من قلبى كل اشتهاء لجمع المال وكل مطمع فى كل ما تخليت عنه مما يجعل له قيمة ثم هجرت الوظيفة التى كنت أشغلها(١) اذ ذاك ، والتى لم أكن خليقا بها البتة وانصرفت الى نسخ الموسيقى نظير أجر للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديد الميل اليه دائما •

ولم أقصر اصلاح أمرى على المظاهر الخارجيــة . ذلك لاننى شعرت بأن هذا الاصلاح نفسه كان يتطلب اصلاحا آخر فى الافكار أشد عسرا من غير شك ، وان كان أشد ضرورة ، وهو اصلاح الآراء ، ولما كنت قد عولت على ألا أقوم بعمل ذلك على دفعتين ، فقد بدأت باخضاع ذاتى الداخلية لفحص دقيق يستطيع أن ينظمها بقية أيام حياتى على الصورة التى كنت اريدها عليها عند موتى .

كان قد حدث انقلاب كبير فى ذاتى . كان يتكشف عــالم معنوى آخر لناظرى ، فالاحكام الخرقاء التى كان يصدرها الناس ، بدأت أحس باستحالتها ، دون أن أتكهن بعد •• كم ساكون فريسة لها ؟ والحاجة المتزايدة الى متعة اخرى غير المجد الادبى الذى ما كاد يلفحنى بخاره حتى اشمأزت منه نفسى ، وأخيرا •• الرغبة فى أن أرسم للبقية من مطافى طريقا اقل قلقا من ذلك الذى قضيت فيه زهرة ايامى ... دفعتنى كل هذا الى هذه المراجعة الكبرى التى كنت احس منذ امد طويل

---

(١) كان روســو اذ ذاك صرافا عند مســيو دوفرانكى M. de Francueil محصــل المالية •

الحاجة اليها وهكذا شرعت فيها ، ولم أهمل شيئا مما يتوقف على كي يتم تنفيذ ذلك المشروع على ما يرام .

انني أستطيع أن أحدد تاريخ عزوفي التام عن المجتمع ابتداء من هذه الفترة ، وكذلك هذا الميل الشديد للوحدة .. الذى لازمني منذ تلك الوقت ، ولم يكن من المستطاع أن ينفذ العمل الذى شرعت فيه الا في عزلة مطلقة ، ذلك لانه كان يتطلب تأملات طويلة هادئة لا يسمح بها صخب المجتمع ، وقد اضطرني هذا ، الى حين ، أن انهج طريقة أخرى في الحياة ارتحت اليها فيما بعد ، حتى انني ، وقد تابعتها منذ ذلك الحين ، ولم أنقطع الا مضطرا ولفترات قليلة ، عاودت انتهاجها من جديد بجماع قلبي واقتصرت عليها في غير جهد بمجرد أن تسنى لى ذلك . ولما اضطرني الناس فيما بعد الى أن أحيا وحيدا وجدت انهم باحتباسي مستهدفين شقوتي ، عملوا في سبيل تحقيق سعادتي أكثر مما استطعت أنا أن افعل لنفسي .

اتجهت الى العمل الذى كنت قد شرعت فيه بحمية تتفق وأهمية ما أنا بصدده والحاجة التى أحس بها نحوه . كنت أعيش اذ ذاك مع فلاسفة محدثين ليس بينهم وبين القدامى وجه شبه ، وبدلا من ان يزيلوا شكوكي ، ويوقفوا ترددي ، زعزعوا كل ثقة كنت أظنني عليها في النواحي التي كان يهمني ، أكثر مايهمني ، الالمام بها ، ذلك لانهم كمبشرين متعنتين للالحاد ، وكمتعصبين معتدين بأنفسهم ، لن يستسيغوا بأية حال وبغير غضب أن يجرؤ واحد على تفكير يغاير تفكيرهم مهما يكن وجه الخلاف .

وكثيرا ما كنت أدافع عن نفسي بشيء من الضعف كراهية للجدل وقلة دراية بمتابعته ، ولكنني لم أعتنق البتة مذهبهم الهدام . كما أن هذه المقاومة لقوم بلغوا هذا الحد من التعصب ــ ولهم قبل كل شيء وجهة نظرهم ــ لم تكن من الاسباب القليلة التى أثارت عداوتهم .

انهم لم يقنعوني ولكنهم أثاروا القلق في نفسي ، ولقد زعزعتني حججهم دون أن تقنعني أبدا ، ذلك لانني لم أجد فيها أى جواب شاف ، ولكني احسست ضرورة وجود ذلك الجواب ، وكنت اتهم نفسي بالقصور أكثر من اتهامي اياها بالخطأ ، وكان قلبي يتولى الرد عليهم خيرا مما يفعل عقلي . وقلت لنفسي أخيرا :

« أفأترك نفسي أبدا ألعوبة لسفسطة المتفيهقين ممن لا أثق ــ حتى ــ

فى أن الآراء التى يدعون اليها ويتحمسون لنشرها الى هذا الحد حتى يعتنقها الآخرون هى آراؤهم ؟ ان عواطفهم التى تسيطر على مذهبهم ، واهتمامهم بأن يحملوا الناس على تصديق هذا الامر أو ذاك ... تجعل من المستحيل النفاذ الى ما يعتقدون هم أنفسهم . أيمكن افتراض حسن النية لدى رؤساء الشيع ؟ ان فلسفتهم ... للآخرين ، وكان لابد لى من فلسفة خاصة بى . فلأبحث عنها بكل قواى ما دام هناك متسع من الوقت لذلك ، حتى أستطيع وضع قاعدة ثابتة للسلوك فيما بقى لى من أيام حياتى . هأنذا فى تضج العمر ، فى عنفوان الوعى ، وقد شارفت على الافول ، ولئن انتظرت أكثر من ذلك فلن أستطيع استخدام جميع قواى عند مراجعة نفسى مراجعة تجىء متأخرة ، وستكون ملكاتى العقلية قد فقدت بعض نشاطها ، وسيكون أدائى لما أستطيع اليوم القيام به على خير وجه أقل اتقانا . فلأغنم تلك اللحظة المواتية ، فهى أوان اصلاحى الخارجى والمادى ، الا فلتكن كذلك اوان اصلاحى الفكرى والخلقى ، ولأحدد مرة واحدة آرائى ومبادئى ، ولأكن فيما تبقى من أيام حياتى ما كنت ارى أنه يجب ان أكونه بعد اعمال الفكر فيه .ولقد نفذت ذلك المشروع فى بطء وعلى فترات متفاوتة وان كان ذلك بكل ما كان يسعنى من جهد وعناية . وكنت أحس احساسا قويا أن ما سوف انعم به من راحة بقية ايامى وكل ما قدر لى يتوقفان على ذلك . ولقد وجدت نفسى فى البداية فى متاهة من الحيرة ، والصعاب ، والاعتراضات ، والالتواءات ، والظلمات ، حتى راودتنى نفسى عشرين مرة أن أتخلى من كل شىء ، وكدت اتمسك ـ متخليا عن بحوث لا طائل وراءها ـ بأصول الحيطة المعتادة فى مداولاتى مع نفسى ، وذلك دون معاودة البحث وراء المبادىء التى طالما جهدت فى توضيحها . ولكن هذا الحرص نفسه كان شديد الغرابة . لقد كنت أحس اننى أقل من أن أكون أهلا للوصول اليه ، حتى ان اتخاذه هاديا لى لم يكن الا كرغبة فى البحث فى وسط البحار والعواصف بغير دفة وبغير « بوصلة » عن منارة لا يكاد يستطاع الوصول اليها ولا تهدينى الى اى ميناء .

ولكننى صمدت .. ولاول مرة فى حياتى تملكتنى الشجاعة ، وانى لأدين لانتصارها بمقدرتى على تحمل القدر المخيف الذى أخذ يحتوينى منذ ذلك الوقت دون أن يساورنى من ذلك ادنى شك . وبعد جهود بالغة العنف ، والصدق ، ربما لم يقم بمثلها على الاطلاق أى كائن ، حددت موقفى للمقبل من سنى حياتى بالنسبة لمختلف الاحاسيس التى كان يهمنى أن تنطبع فى ذاتى . ولئن كنت عرضة للخطأ فيما

انتهيت اليه ، فاننى على ثقة تامة على الاقل بأن خطئى لم يكن يعد من قبيل الجرم من ناحيتى ، ذلك لاننى بذلت كل جهودى لتوقيه . والحق اننى لست أشك مطلقا فى أن معتقدات الطفولة ورغبات صدرى المكنونه لم ترجح كفة الميزان الاكثر عزاء لنفسى . ان الانســان ليجهد فى مشقة فى ذود نفسه عن الايمان بما يتوق لتحقيقه فى كثير من الحماس ، والا فمن ذا الذى يقوى على الشك فى أن الفائدة التى تعود من وراء القبول أو الرفض لاحكام الحياة الآخرة لا تحدد عقيدة معظم الناس فيما يأملون أو يخشون ؟ كان هذا كله كفيلا بأن يتسلط على أحكامى ـ وهذا ما أسلم به . ولكن لايقوى على أن يغير من حسن نيتى .. اذ اننى كنت أخشى الوقوع فى الخطأ فى كل شىء ولئن كان الهدف هو الافادة من هذه الحياة فحسب فقد كان يهمنى معرفة ذلك لكي أستخلص لنفسى منهـــا على الاقل خير تصيب ، ما دامت هناك بعد ، فسحة من الوقت فلا أغدو غرا تماما ولكن كان أخوف ما أخافه فى هذا العالم ـ وأنا أمر بحالتى تلك ـ هو أن أخاطر بمصير نفسى الابدى نظير تذوق متاع هذا العالم الذى لم يبد لى قط ذا قيمة كبيرة .

وانى لاعترف كذلك اننى لم أقض دائما ـ كما احب ـ على كل تلك الصعاب ، التى حيرتنى والتى كثيرا ما آذى فلاسفتنا بها سمعى . ولكن ماان قر رايى اخيراعلى ان ابت فى امور يقل استيعاب الفهم الانسانى لها ـ بعد أن وجدت فى كل النواحى أسرارا منيعة واعتراضات يستعصى حلها ـ التزمت فى كل أمر الشعور الذى بدا لى مباشرة أوطد أساسا ، والاكثر قابلية للتصديق بذاته ، دون ان اتوقف عند الاعتراضات التى لم اكن استطيع حلها ، ولكن كانت تدحضها اعتراضات لا تقل عنها قوة ، من المذهب المضاد . ولم تكن اللهجة اليقينية فى هذه الامور تناسب غير الدجالين وان يكن من الضرورى أن يكون للمرء احساسه الخاص به وان ينتقيه بكل ما أوتى من نضج عقلى ، فلئن وقعنا برغم ذلك فى الخطأ فان العدالة الحقة لا توجب علينا العقوبة ما دمنا لم نقترف اثما . ان ذلك هو المبدأ الراسخ الذى اتخذته أساسا لسلامتى .

وقد كان من نتيجة ابحاثى المضنية التى ضمنتها بعد ذلك كتابى « اشهار عقيدة كاهن من سفوا » (١) .

Profession de foi du vicaire Savoyard

---

(١) كتاب اشهار عقيدة كاهن من سفوا

Profession de foi du vicaire Savoyard

هو الذى الحقه روسو بكتابه «اميل» وضمنه أسس عقيدته مما كان سببا فى مصادرة الكتاب كله واعتباره خارجا على الديانة المسيحية الحقة .

وهو كتاب انتهك حرمته ودنسه ظلما أبنـاء الجيل الحاضر ولكنه قد يحدث فى يوم من الايام ثورة بين الناس لو بعث فيهم الادراك السليم وحسن النية ·

منذ ذلك الحين ـ وقد ركنت الى المبادىء التى كنت قد اعتنقتها بعد طول تأمل وروية ـ اتخذت منها قاعدة راسخة لسلوكى وايمانى دون أن آبه بعد ·· لا بالاعترافات التى لم أقو على التغلب عليها ، ولا بتلك التى لم أستطع التكهن بها والتى كانت جميعا تنتاب ذهنى من وقت لآخر ، ولقد سببت لى فى بعض الاحايين قلقا ، ولكنها لم تزعزعنى بتاتا ، ودائما ما حدثت نفسى قائلا : « ليست هذه جميعا سوى مجادلات وتخريجات ميتافيزيقية لا وزن لها الى جانب المبادىء الاساسية التى يعتنقها عقلى ويؤكدها قلبى والتى يطبعها جميعا رضا النفس حين تسكن الاهواء · أفيجوز فى أمور تتسامى فوق مسـتوى فهم البشر أن يقلب اعتراض لا أستطيع التغلب عليه مذهبا على هذا الرسوخ وبهذا الاحكام يكون بعد طول تأمل وعناية متجـاوبا مع أحكام عقلى وقلبى وكيانى كله ومعززا برضا نفسى الذى أحس اننى أفتقده فى جميع المذاهب الاخرى ؟ ··· لا ·· لن تقضى أبدا اية مغالطات على التوافق الذى الحظه فيما بين طبيعتى الخالدة ودستور هذا العالم من جهة ·· والنظام المادى الذى أراه يسوده من جهة أخرى · اننى أجد فى النظام المعنوى المقابل ـ وهو النظام الذى كان نهجه ثمرة أبحاثى ـ ما أنا فى حاجة الى الاعتماد عليه لتحمل ما أقاسيه من شقاء فى الحياة . وأما فى أى نظام آخر فقد أعيش بغير موارد ، وقد أموت بغير أمل ، وقد أكون أتعس المخلوقات طرا ، فلأستمسك اذن بالنظام الذى يكفل اسعادى وحده برغم القدر وبرغم البشر ·

ألا يبدو ذلك التفكر ، والنتيجة التى استخلصتها منه ، كما لو أن السـماء نفسها كانت أملتهما على لتعدنى للقـدر الذى كان ينتظرنى ولتجعلنى فى حالة تمكننى من احتماله ؟ ماذا كان يمكن أن يكون أمرى ؟ بل كيف كان يصبح حالى بين تلك المخاوف المروعة التى كانت تتربص بى ، وفى ذلك الموقف الذى لايمكن تصوره والذى زج بى فيه بقية حياتى ، لو اننى بقيت بغير مأوى حيث يمكننى أن أفلت من مضطهدى العتـاة ، وبغير تعويض عما يكبدوننى من عار فى هذا العالم وبغير أمل فى الوصول الى ما استحق من عدالة ، ووجدتنى منساقا بجمع نفسى لأقسى مصير يمكن أن يعانيه مخلوق على ظهر البسيطة ؟

وفيما أنا مستغرق فى سذاجتى ، لم أكن أتصور الا أن الناس

يحملون لى الاحترام والرعاية ، وفيما كان قلبى متفتحا مليئـا بالثقة يفضى بسريرته للاصدقاء والاخوان ، كان الخونة يقيدوننى – فى صمت – بأحابيل صيغت فى أعماق الجحيم ، وبعد أن فوجئت بآخر ما تتوقعه نفس ذات كبرياء من أقسى الرزايا وأسخفها وجررت فى الحمأ دون أن أعرف مطلقا شخصية من يفعل بى ذلك ، ولم يفعله ؟ مغرقا فى هاوية من العار ، محوطا بظلمات مروعة لا أتبين خلالها سوى التحسس من الامور أصابنى الانهيار من المفاجأة الاولى وكان من الجائز الا أفيق من اليأس الذى ألقى بى فيه ذلك اللون غير المتوقع من الكوارث لو لم أكن مزودا من قبل بقوى تقيلنى من عثرتى .

ولم أحس بقيمة الموارد التى زودت بها نفسى لوقت الشدة الا بعد سنوات من الاضـطراب حين ثبت الى نفسى أخيرا وبدأت اسـترجع صوابى . وبعد أن انتهيت الى رأى فيما كان يعنينى الحكم عليه وجدت – وأنا اقارن مبادئى بموقفى الذى كنت فيه – اننى كنت اعير الاحكام المختلفة التى كان يصدرها الناس والاحداث التافهة لهذه الحياة القصيرة أكثر بكثير مما لها من أهمية ، كما وجدت أن هذه الحياة مادامت ليست سوى سلسلة من المحن ، فليس يهم كثيرا أن تبدو هذه المحن على هذه الصورة أو تلك مادام ينجم عنها الاثر الذى قدرت من أجله ، وانه تبعا لذلك كلما عظمت المحن وقويت وتعددت ، فمن المفيد أن يتعلم الانسان كيف يحتملها . ان أبلغ الآلام عنفا تفقد حدتها لدى من يرى أن تعويضه عنها سيكون سخيا ومضمونا . كان ضمان هذا الجزاء .. الثمرة الرئيسية التى اقتطفتها من وراء تأملاتى السابقة .

والواقع انه مرت بى فى ثنايا الاهانات التى لا حصر لها ، وألوان الذل التى لا حد لها ، والتى شعرت بها تثقل على من كل جانب ، فترات من القلق ومن الشك كانت تراودنى من وقت لآخر فتزعزع آمالى وتزعج هدوئى . كانت الاعتراضات القوية التى لم أستطع حلها ، تبـدو لعقلى اذ ذاك أشد قوة كى تقضى على تماما فى اللحظات نفسها التى يرهقنى فيها ثقل ماقدر لى حتى كاد يحل بى القنوط . وكثيرا ما كانت تراود فكرى حجج جديدة – كنت انتوى الاخذ بها – تساند تلك التى كانت قد عذبتنى وكنت اقول لنفسى حينئذ وصدرى يضيق حتى لتكاد روحى تزهق : أواه ! من ذا يؤمننى من اليأس اذا كنت لا أرى – وسط ما يحيق بحظى فى الحياة من أهوال – سوى أوهام فيما يقدمه لى عقلى من عزاء ، انه بتقويضه على هذا النحو – ما قدم من صنيع – قلب رأسا على عقب .. كل

دعامة أمل وثقة أمدني بها في شدتي ؟ يا لها من دعامة ليست سوى أوهام لا يتعلل بها سواى فى هذا العالم ! ان الجيل الحاضر بأجمعه لا يرى فى المشاعر التى أعيش عليها وحدى سوى أخطاء وظنون ، وهو يعتقد أن الحق والبديهة تتضمنهما الطريقة المضادة لطريقتى ، بل انه يبدو ــ وكأنما لا يستطيع أن يصدق ــ اننى أنتهجها عن ايمان حق ، وأنا نفسى بتسليمى بها عن طواعية مطلقة أقابل فيها صعابا يتعذر التغلب عليها بل يستحيل على حلها وان لم تمنعنى من المثابرة عليها • أفأنا اذن العاقل الوحيد والمستنير الوحيد بين البشر ؟ أفيكفى كى أعتقــد أن الامور تجرى على صورة ما أن تتفق وهواى ؟ وهل استطيع أن تكــون لى ثقة واعية فى مظاهر ليس لها من أساس ثابت فى عيون الآخرين •• وكان من الممكن أن تكون مضللة بالنسبة لى كذلك ، لو أن قلبى لم يساند عقلى ؟ أو لم يكن خيرا لى أن أصطرع مع مضطهدى •• بأسلحة متكافئة عن طريق اعتناق مبادئهم من أن أظل على أوهام مبادئى •• فريسة لهجماتهم دون أن أعمل على دفعها ؟ اننى أومن بحكمتى وما أنا سوى غر ، ضحية خطأ عقيم وشهيد له .

كم من مرة كدت أستسلم الى اليأس فى تلك الفترات من الشك والحيرة ! ولو أننى قضيت شهرا كاملا على تلك الحال لا نقضى أمر حياتى وامرى ، ولكن تلك الازمات على تكرار حدوثها فى الماضى كانت دائما قصيرة المدى . واما الآن ، ولو اننى لم اتخلص منها بعد تماما ، الا انها بلغت من الندرة والسرعة بحيث لم تعد لها القدرة على إقلاق راحتى . انها هموم طفيفة لا تستطيع أن تؤثر فى نفسى اكثر مما تستطيع ريشة تقع فى النهر أن تغير من اتجاه مجرى الماء فيه • وقد أدركت ان العودة الى تدبر النقاط نفسها التى استقر عندها رأيى من قبل ، كانت لى بمثابة افتراض معلومات جديدة أو حكم أحسن تكوينا أو تحمس للحقيقة أشد •• لم يكن لدى حين كنت أبحث عنها • ومادامت واحدة من هذه الحالات لم تكن ــ وليس من المستطاع أن تكون ــ حالتى ، فاننى لم أقو على أن أفضل ــ مستندا الى أى ســـبب قوى ــ آراء لم تكن ــ وأنا رازح تحت أعباء اليأس ــ تراودنى •• الا لتزيد من شقائى عن مشاعر اتخذتها فى عنفوان العمر ، والذهن فى تمام نضجه • وبعد دراسة على أكبر قدر من الروية وفى أوقات لم يكن هدوء حياتى ليترك لى من شاغل مقيم سوى التعرف على الحقيقة • واليوم •• وقلبى يعتصره الضيق ، ونفسى يبهظها السأم ، وخيـــالى مستوحش ورأسى تضنيها تلك الاحاجى الشنعاء التى

تحيط بى . اليوم .. وقد فقدت ملكاتي جميعا كل مايحفزها على العمل بعد أن انهكتها الشيخوخـة والفزع ، افأسلب نفسي من غـير داع كل الموارد التى هيأتها لذاتى ؟ واكون اكثر اطمئنانا الى عقلى المشرف على الافول ليجعلنى تعســا بغير وجه حق منى .. الى عقلى الكامل القوى ليعوضنى عن الآلام التى أتحملها دون أن أستحقها ؟ لا .. اننى لم أكن أكثر حكمة ولا أغزر علما ولا أفضل ايمانا الا عندما قطعت برأى فى هذه الامور الكبرى . اننى لم أكن أجهل اذ ذاك الصعاب التى أدعها اليوم تثير ضيقى . انها لم تستوقفنى ولئن عرض منها جديد لم يكن قد استرعى انتباه أحد من قبل .. فما ذلك الا السفسطة ذات التخريجات الميتافيزيقية التى لا يمكنها أن تزعزع الحقائق الخالدة المتفق عليها فى كل العصور ومن كل الحكماء ، والمعترف بها بين جميع الشعوب والمنقوشة فى كل قلوب البشر بحروف لا يمكن أن تمحى . وكنت أعلم ـ وأنا أتدبر تلك الامور ـ أن الفهم الانسانى الذى تحدده الحواس لم يكن ليستطيع الاحاطة بها من جميع نواحيها . واذن فقد استمسكت بما وسعت طاقتى دون أن ارتبط بما وراءها ، وكان هذا المسلك معقولا فلزمته فيما مضى وتمسكت به وقد ارتضاه عقلى وقلبى معا . فعلى أى أساس أتخلى عنه اليوم بعد أن أصبحت توجب على الارتباط به دوافع قوية ؟ ترى أى خطر اراه فى اتباعه ؟ وأية مزية تعود على من وراء التخلى عنه ؟ اذا ما اعتنقت مذهب مضطهدى ، أفكنت كذلك أعتنق مبدأهم الخلقى ؟ ان هذا المبدأ ـ ولا أصل له ولا نتيجة ـ الذى يعرضونه مطمنطقين به فى كتب أو مواقف مسرحية دون أن ينفذ شيء منه البتةالى القلبأو الى العقل .. أوبالأحرى هذا المبدأ الآخر الخفى المتعنت .. أعنى التعاليم السرية لجميع الاتبـــاع التى ليست الأخرى سوى قناع لها ، والتى هى رائدهم فيما يسلكون وفيما مارسوه معى بكل ذلك الدهاء .. ان هذا المبدأ الخلقى ـ وهو مبدأ هجومى بحت ـ لا يجدى مطلقا فى حالة الدفاع ولا يمكن أن يفيـد الا فى العدوان . ففيم اذن كان يعود على بالنفع فى الحالة التى انتهوا بى اليها ؟ ان براءتى وحدها هى التى تساندنى فى المصائب ، وكم كنت أزيد من شقائى كذلك لو اننى استبدلتها بنزعة شر وأنا أحرم نفسى من هذا المورد الوحيد .. القوى مع ذلك . أفكنت أصل الى مرتبتهم فى فن الاساءة ؟ واذا ما توصلت الى ذلك فمن أى ألم قد يريحنى ما استطيع أن أوجهه اليهم ؟ اننى بهذا قد افقد احترامى لنفسى ولن أكسب شيئا بدلا منه .

وهكذا بمناقشة الامر مع نفسى عولت على ألا أدعنى أتأرجح فى

مبادىء تقود اليها حجج مضالة ، واعتراضات غير قابلة للحل ، وصعوبات تفوق طاقتي وربما طاقة العقل البشرى • أما عقلي وقد استقر عند أوطد أساس استطعت أن أهيئه له ، فقد اعتاد تماما على أن يستكين لها فى حمى ضميرى ، حتى انه لم يعد فى استطاعة اى مذهب غريب قديم أو مستحدث أن يستثيره ، أو يعكر من صفوى لحظة واحدة • وحين حل بى الفتور وركود الذهن ، نسيت حتى الحجج التى كنت اقيم عليها أسس عقيدتي ومبادئي ، ولكنني لن أنسى أبدا النتائج التى استخلصتها منها برضا ضميرى وعقلي وسأتمسك بها منذ الآن . فليتقدم كل الفلاسفة ليقارعوها ، وسيضيع عليهم وقتهم وجهدهم • انني متمسك فيما بقي من حياتي فى كل الامور بما اتخذته من رأى عندما كنت فى حالة تمكنني من حسن الاختيار •

وبعد أن سكنت الى هذه التدابير وجدت فيها ـ ونفسى راضية ـ الأمل والعزاء اللذين أحتاج لهما فى موقفي هذا • وليس من الممكن الا تلقى بى أحيانا فى غمار اليأس عزلة مطلقة متواصلة كئيبة فى ذاتها، وضغن بين من جميع أبناء الجيل الحاضر مشوب على الدوام ، ومهانات يهيلونها علي باستمرار • ولم يزل أملي المزعزع وشكوكي المثبطة تعاودني من وقت لآخر لتزعج نفسى وتملأها شجنا • أما وقد عجزت عن ممارسة التفكير اللازم لاطمئن نفسى بنفسى ، بما أحس به ، من حاجتى الى تذكر قرارتي القديمة : ذلك لان العناية والحرص وخلوص القلب ، تلك التى آليت على نفسى التزامها عند اتخاذ هذه القرارات ، تعاودني ذكراها وترد الى كل ثقتى ، وهكذا أمتنع عن تقبل أية آراء جديدة ، وكأنما هى أخطاء مشئومة ليس لها سوى المظهر الخادع وكأنما ليس من شأنها الا اقلاق راحتى •

وهكذا وقد احتبست داخل حيز ضيق من معلوماتي القديمة لم يعد لدى كما كان الامر مع « سولون » فرصة القدرة على التعلم كل يوم ، والعمر يتقدم بى ، بل يجب علي أن أجنب نفسى الغرور الخطر الذى يدفعنى الى الرغبة فى معرفة ما انا منذ اليوم عاجز عن الالمام به تماما • ولكن اذا ما بقيت أمامي بعض مغانم من معلومات نافعة آمل فى الحصول عليها ، فان علي بعد ذلك أن أسعى وراء شيء له أهمية ، وذلك من ناحية الفضائل الضرورية لحالتى • وعندئذ يكون قد حل الوقت المناسب لتزويد روحى وتزيينها بمغنم تستطيع أن تحمله معها عند تحررها من هذا الجسد الذى يغشيها ويعميها •

وبرؤيتهـــا للحقيقة سافرة ستدرك مدى تفـــاهة جميع المعلومات التى يزهو بها الى هذا الجد علمـــأؤنا المزيفون ٠٠ ستنوح روحى على تلك اللحظات التى ضيعتها فى هذه الحياة راغبة فى كسبها ولكن الصبر والوداعة والاستسلام والاستقامة والعدالة المطلقة كل أولئك ألوان من الثراء يحملها الانسان معه تستطيع أن تزيد من ثرائه باستمرار دون أن يخشى أن يفقدها قيمتها ٠٠ حتى الموت نفسه ٠ انى أكرس البقية الباقية من شيخوختى لهذه الدراسة الوحيدة النافعة وكم أكون سعيدا لو أننى تعلمت ، بما احـرزت من تفوق على نفسى ، كيف أخرج من الحياة ٠٠ لا خيرا مما دخلتهـــا ٠٠ فان هذا ليس ممكنا ٠٠ ولكن أكثر فضيلة ٠

الجولة الرابعة

من بين الكتب القليلة التى لأزال أقرؤها أحيانا كتاب «بلوتارك» (١) الذى يجذبنى اليه ويستحوذ على آكثر من غيره · لقد كان أول ما طالعت فى طفولتى (٢) ، وسيكون آخرها فى شيخوختى · فهو تقريبا المؤلف الوحيد الذى لم أقرأ له مرة واحدة الا وجنيت من ذلك فائدة ما · ولقد كنت أول أمس اطالع فى مؤلفاته الاخلاقية رســالة عن «كيف يفيــد الانسان من أعدائه ؟ » Comment on pourra tirer utilité de ses ennemis?

وفى اليوم نفسه حين كنت أقوم بترتيب بعض الكراسات التى بعث بها الى المؤلفون ، وقعت عينى على احدى يوميات الراهب « R. (٣) » التى فى عنوانها هذه الكلمات « الى من يكرس حياته للحقيقة » (٤) ·
Vitam vero impendenti, R.

ولما كنت بالغ اليقظة ازاء مداورات هـؤلاء الســادة بحيث أدعهـا هذه المرة دون أن أرد عليها بمثلها ، فقد أدركت أنه اعتقد تحت هـذا الستار من الادب انه يستطيع ايلامى بالتجنى على الحقيقة ولكن على أى أساس كان ذلك ؟ ولم هذا التهكم ؟ وأى موضوع كنت أستطيع أن

---

(١) بلوتارك Plutarque مؤرخ اغريقى قديم كتب كتابا من « حياة مشاهير الرجال » وكان له أثره على تفكير روسو طيلة حياته .

(٢) كتب روسو خطابا الى مالزرب Malesherbes بتاريخ ١٢ من يناير ١٧٦٢ فيه «وقع بلوتارك تحت يدى وانا فى الســادسة من عمرى وحفظته من ظهر قلب وانا فى الثامنة » .

(٣) هـو الأب روزييه l'Abbé Rozier طبقا لما ورد فى مخطوط نيوشــاتل وان ورد الاسم فى طبعة Bibliothèque indépendante d'Edition (عـام ١٩٠٥ ص ١١٤) تحت اسم روايو Royou وفى الخطـاب رقم ٨ من روســو الى لاتوريت La tourette هو الراهب الذى خرج روسو معه فى رحلات استعشاب عام ١٧٨٨ وللراهب مؤلف هو : Voyage à l'Ile des Peupliers

(٤) Vitam vero impendenti اى « الذى يكرس نفسـه للحقيقـة » ــ وهـو الشعار الذى اتخذه روسو ورد أيضا فى حاشية خطابات من (الجبل) Lettres de la Montagne

اضمنه اياه ؟ ورغبة مني في تحقيق الفائدة من دروس « بلوتارك » فقد اعتزمت ان اكرس جولة الغد لاقوم باختبار نفسي من ناحية الكذب ، وانتهيت في ذلك الى تأكيد الرأى المسلم به من قبل وهو « اعرف نفسك بنفسك » شعار معبد « دلف » لم يكن مبدأ من الميسور اتباعه على نحو ما كنت أعتقد في « اعترافاتي » .

وفي اليوم التالي عندما هممت بالسير لتنفيذ هذا القرار ، كانت أول فكرة راودتني حين بدأت أجمع شتات نفسي ، فكرة الأكذوبة الشنعاء التي ارتكبتها في مستهل شبابي(١) ، وعكرت ذكراها صفوي طوال حياتي ، ولاتزال حتى في شيخوختي تدفع بالحزن الى قلبي على مابه من احزان سببتها له عوامل أخرى . ان تلك الاكذوبة ، التي كانت في حد ذاتها جرما كبيرا لابد وأنها كانت أفظع جرم أيضا بما ترتب عليها من آثار جهلتها دائما ولو أن الندم صورها لي أشد ما يمكن أن تكون قسوة . ومع ذلك ، فلو لم أدخل في الاعتبار سوى الحالة التي كنت عليها حين ارتكبتها ، فان تلك الاكذوبة لم تكن سوى نتيجة خزى شائن ، وأبعد ما تكون عن قصد الاساءة الى من كانت ضحيه لها ، ويمكنني ان اقسم امام وجه الله أنه في اللحظة نفسها التي كان ينتزعها هذا الخزى الذى لايقهر ، وددت لو بذلت كل دمى راضيا لأحول أثرها الى وحدى ، ان هذا لون من الوان الهذيان لا أستطيع أن أفسره الا بقولي ــ كما أظنني أحسه ــ انه في تلك اللحظة قهرت طبيعتي الخجول كل أماني قلبي .

ان ذكرى تلك الفعلة التعسة ، والندم الذي لايخبو أواره الذى حلفته لي ، بثت في نفسي من ناحية الكذب نفورا كان حريا أن يجنب قلبي هذه الرذيلة بقية حياتي .. وعندما اتخذت شعاري ، كنت أحس بأنني مهيأ لان أستحقه ولم يكن لدى شك في أنني لست جديرا به حين بدأت أختبر نفسي في جدية أكثر على ضوء مقالة الراهب « ر ... »

وعندئذ دهشت جدا ــ وأنا أفحص نفسي في عناية متزايدة ــ لكثرة ما اخترعت مما كنت أذكر انني قلت على أنه الصدق ، في الوقت نفسه الذى كنت ــ وانا مزهو في قرارة نفسي بحبي للحقيقة ــ أضحي في سبيلها بسلامتي ، ومصالحي ، وشخصي، بعدم تحيز لا أعرف له ضريبا بين البشر .
وكان أشد ما أثار الدهشة في نفسي ، هو انني عند تذكرى لتلك

---

(١) المقصود هنا حادثة سرقة شريط ترك روسو الاتهام فيها ينصب على الخادمة ماريون Marion ، وجاء في « الاعترافات » في الكتاب الثاني ان روسو كان قد سرق شريطا « بلون الورد والفضة » ، أما ماريون التي القى عليها التهمة فهي طباخة لدى مدام دوفرسليس Mme de Vercellis

الأمور المختلفة ، لم أكن أحس ازاءها أى ندم حقيقى ٠٠ وانا من ليس فى قلبه مكان للتردد فى الاشمئزاز من الزيف . أنا من قد يخوض ألوان التعذيب لو أن تجنبها ما كان يستدعى الكذب ٠٠ أى تناقض عجيب ذلك الذى كان يدفعنى الى الكذب مختارا ودون موجب وبلا فائدة تجنى؟ وأى تعارض غير معقول ذلك الذى يجعلنى لاأحس مع ذلك بأدنى أسف٠٠ أنا من لم يكف الندم على أكذوبة واحدة عن ايلامه طيلة خمسين عاما ؟

انني لم أكن أبدا عنيدا ازاء أخطائى ، وكان لى فى الوازع الخلقى خير رائد ٠ وقد احتفظ ضميرى بنقائه الاول ، وحتى لو ان التغيير تناوله اذعانا منه لمصالحى فكيف يتأتى له وهو محتفظ باستقامته فى الظروف التى يستطيع الانسان ــ وقد قهرته عواطفه ــ أن يعتذر على الاقل بضعفه ؟ كيف يتأتى له ان يفقد هذه الاستقامة فى ما لا اهمية له من الأمور فحسب حيث لايكون للرذيلة مبرر مطلقا ؟ لقد وجدت انه على حل تلك المسألة تتوقف سلامة الحكم الذى كان على أن أطبقه هنا على شخصى ٠ وهاهى ذى الوسيلة التى مكنتنى من تفسيرها لنفسى بعد أن درست تلك المسألة دراسة وافية ٠

أذكر أننى قرأت فى كتاب للفلسفة أن الكذب هو اخفاء حقيقة يجب إظهارها . ويترتب تماما على هذا التعريف أن السكوت عن قول الحق الذى لا يكون المرء مضطرا للجهر به لا يعد كذبا ، ولكن من لا يقنع فى مثل تلك الحالة بسكوته عن قول الحقيقة فيذكر ما يخالفها ، أيكون عندئذ كاذبا أم غير كاذب ؟ انه ــ طبقا للتعريف ــ لايمكن أن يقال انه كاذب ، ذلك لانه اذا أعطى عملة زائفة لشخص هو ليس مدينا له بشيء فانه يخدع ذلك الشخص ــ مافى ذلك من شك ــ ولكنه لايسرقه ٠ ويعرض هنا سؤالان كلاهما بالغ الاهمية يستدعيان البحث ٠ أما السؤال الاول فهو : متى وكيف يجب قول الحقيقة للآخرين مادام ليس من الواجب قولها دائما ؟ وأما السؤال الثانى فهو ما اذا كانت هناك حالات يمكن أن يخدع المرء فيها غيره بحسن نية ٠

ان هذا السؤال الثانى أمر قطع فيه ــ وانا أعلم ذلك تماما ــ نفيا فى الكتب حيث لايكلف أشد مبادىء الاخلاق تزمتا المؤلف شيئا ، وايجابا فى المجتمع ، حيث لاتعدو مبادىء الاخلاق التى تنادى بها الكتب أن تكون ثرثرة تستحيل ممارستها٠ فلأدع اذن جهات الاختصاص هذه فى تضاربها ولأبحث لنفسى عن حل لهذه الاسئلة عن طريق مبادئى الشخصية ٠

ان الحقيقة العامة المجردة هى أغلى مايملكه المرء • فبدونها يغدو أعمى ، انهـا العين المبصرة للعقل ، عن طريقهـا يتعلم المرء السـلوك ، ويصبح مايجب أن يكونه ، ويعمـل مايجب عليـه عمله ، وكيف يصل الى هدفه الحقيقى . أما الحقيقة الخاصة والفردية فليست خيرا دائما ، فقد تكون فى بعض الأحيان شرا ، وهى فى أغلب الأمر شىء لا هو خير ولا هو شر . أن الامور التى تهم المرء معرفتها ، والتى تكون الدراية بها ضرورية لاسعاده، قد لا تكون كثيرة العدد ، ولكن مهما يكن من أمر عددها فانها تعتبر ملكه الخاص ، له الحق فى المطالبة به حيثما يجده ، ولا يمكن لأحد أن يهضمه هذا الحق دون أن يرتكب أخس أنواع السرقات ، اذانها — أى تلك الامور — من تلك الملكيات التى يشترك فيها الجميع والتى لايحرم شيوعها البتة واهبها هذا الحق •

أما بالنسبة للحقائق التى ليست لها منفعة من أى نوع ، لا علما ولا عملا ، فكيف يمكن أن تعد ملكا واجبا مادامت ليست لها حتى صفة الملك ؟ ومادامت الملكية لاتقوم الا على أساس المنفعة ، فحيث تنعدم المنفعة لا يمكن أن تكون هناك ملكية •

ان المرء يستطيع ان يطالب بقطعة ارض ولو كانت مجدبة لأنه يمكنه على الاقل أن يقيم عليها ، ولكن أن تكون واقعة ما ، عقيمة ليست ذات بال من كافة الاعتبارات وليس لها من أثر على أى انسان ، أن تكون صحيحة أو زائفة فان هذا لا يهم كائنا من كان • وليس هناك فى مجال المعنويات شىء غير ذى منفعة ويستوى فى ذلك مجال الماديات ، اذ لا يمكن أن يعد حقا واجبا مالا ترجى فائدة من ورائه ، ولكى يصبح الشىء واجبا • . يجب أن يكون — أو أنه يمكن أن يكون — نافعا • وهكذا تكون الحقيقة الواجبة هى تلك التى تفيد العدالة ، وانه لتدنيس — لمسمى الحقيقة المقدس — ان نطلقه على العقيم من الامور التى لا يهم الجميع وجودها ، كما أن معرفتها غير مجدية فى أية ناحية • والحقيقة ان تجردت من أية فائدة ، ولو كانت ممكنة لا يجوز أن تكون اذن شيئا واجبا ، وبالتالى لا يكون من يسكت عنها أو يموهها كاذبا البتة •

ولكن اهناك من الحقائق ما هى عقيمة تماما بحيث تكون عديمة النفع فى أى شىء ومن جميع الوجوه ؟ ان هذه مسألة أخرى تستحق المناقشة، وسأعود اليها فورا • أما الآن فلننتقل الى السؤال الثانى •

ان عدم ذكرها — مع أنه حق — والجهر بالكذب أمران مختلفان جد الاختلاف ، ولكن يجوز أن ينجم عنهما مع ذلك الاثر نفسه، ذلك لأن هذه

النتيجة هي بالتأكيد النتيجة نفسها كلما كان هذا الاثر معدوما . وحيثما لايهم قول الحقيقة فان قول الخطأ الذى يقابله لايكون مهما كذلك ، ومن ثم فانه فى مثل تلك الحالة لايعد من يخدع الناس بقول ما يناقض الحقيقة أشد ظلما من ذلك الذى يخدعهم وهو لا يجهر بها لانه فى حالة الحقائق غير المجدية لا يكون الخطأ أسوأ من الجهل . وانى لو اعتقدت أن لون الرمال فى قاع البحر أبيض أو أحمر ، فان ذلك لايهمنى أكثر مما يهمنى الجهل بلونها الفعلى . وكيف يتأتى للمرء أن يكون ظالما وهو لا يؤذى أحدا ، ما دام الظلم لا يكون الا بالاساءة للآخرين ؟ ولكن هذه الاسئلة ، وقد قطعت فيها بهذا الايجاز ، لا تستطيع أن تزودنى كذلك بما يضمن لى تطبيقها من الناحية العلمية دون أن يسبقها ايضاح كثير ضروري حتى يكون التطبيق سليما فى جميع الحالات التى قد تعرض، ذلك لأنه اذا ماكان الالتزام بقول الحقيقة لايقوم الا على أساس النفع المرجو من ورائها ، فكيف لى أن أنصب من نفسى حكما على هذا النفع ؟ ان مايجنيه المرء من مزية يكون ضارا فى أغلب الامر بغيره ، فالمصلحة الخاصة غالبا ما تتعارض مع المصلحة العامة ، فكيف يسلك الانسان فى هذه الحالة ؟ أيجب أن يضحى بالنفع الذى يعود على الغائب فى سبيل نفع يعود على المخاطب ؟ أيجب السكوت ام الجهر بالنسبة للحقيقة التى اذ تفيد امرا تؤذى آخر ؟ أيجب أن نزن كل مايجب قوله بميزان الصالح العام فحسب ام بميزان العدالة الفردية ؟ وهل أنا مطمئن الى أننى أعرف جيدا كل ما له صلة بهذا الامر حتى لا أتصرف فيما لدى من معلومات الا على أساس قواعد العدالة ؟ بل أكثر من ذلك : هل قمت بفحص كاف لما يجب على الانسان نحو نفسه ، وما يجب عليه ازاء الحقيقة المجردة لذاتها ، وأنا أتحرى مايجب عليه نحو الآخرين ؟ لئن لم أسبب لانسان آخر أى ضرر عن طريق الخديعة ، أفيتبع ذلك الا يصيبنى ضرمطلقا من وراء ذلك ؟ وهل يكفى الا أكون ظالما أبدا لأكون بريئا دائما؟

كم من مناقشات محيرة يكون من الميسور التخلص منها بقولنا لأنفسنا : « فلنلزم دائما جانب الحق ، معرضين أنفسنا لكل ما قد يحدث من جراء ذلك . ان العدالة نفسها كامنة فى صدق الامور ، والكذب ظلم دائما كما أن الخطأ خداع دائما ، وذلك عندما يقول المرء ما لا يتفق وأصيل ما يجب عليه عمله أو الايمان به . ومهما يكن الأثر الذى يترتب على قول الحقيقة ، فالمرء يكون دائما غير مذنب اذا ما قالها لأنه لم يضف اليها شيئا من عنده » .

ولكن ذلك حسم للمسألة دون حلها . اذ لم يكن المطلوب بيان ما اذا كان من الخير دائما قول الحقيقة ، وانما ما اذا كان الانسان ملزما كذلك

بالجهر بها دائما • ثم انه ، على ضوء التعريف الذى كان محل دراستى ، مفترضا النفى ، وهو التمييز بين الحالات التى يتحتم قول الحقيقة فيها ، وبين تلك التى يمكن السكوت عنها دون أن يحيق الظلم بأحد ، وتمويهها دون أن يعد ذلك كذبا : ذلك لأننى وجدت أن مثل هذه الحالات قائمة فعلا ، ومن ثم فالمطلوب هو البحث عن قاعدة مؤكدة تؤدى الى معرفتها وتحديدها تحديدا دقيقا .

ولكن من أين نستخلص تلك القاعدة والدليل على سلامتها ؟ لقد وجدت نفسى دائما فى جميع المسائل الخلقية العسيرة مثل هذه ، أكثر استعدادا لحلها بوحى من ضميرى ، منى ، بهدى من عقلى • ولم يحدث أبدا أن ضللتنى غريزتى الخلقية ، فقد ظلت حتى الآن محتفظة بنقائها فى قلبى بالقدر الذى أستطيع معه أن أركن اليها ، ولئن سكتت أحيانا أمام انسياقى لعواطفى فى سلوكى ، فانها تستعيد سيطرتها تماما عندما أستعرض ذكرياتى • وعندئذ أحاسب نفسى حسابا قد يبلغ فى عسره حساب القاضى الاعظم بعد هذه الحياة •

ان الحكم على أحاديث الناس على ضوء ما يتخلف عنها من آثار هو فى أغلب الاحيان اساءة تقدير لها ، وفضلا على أن هذه الآثار ليست دائما ملموسة ومن الميسور معرفتها ، فهى تتغير دائما مثلما تتغير الملابسات التى تلقى فيها تلك الاحاديث ومع ذلك فلا يقدر قيمتها أو يحدد مدى ما بها من مكر أو طيبة قلب الا قصد ملقيها وحده . فقول الخطأ لا يعد كذبا الا أن كان بقصد التضليل ، والقصد نفسه من التضليل ، فى بعده من ان يكون دائما مصحوبا بقصد الاضرار ، يكون له أحيانا هدف معتاد تماما • ولكن لكى نسم أكذوبة بالبراءة ، لا يكفى ألا يكون القصد من الاضرار واضحا ، بل يجب علاوة على ذلك التأكد من أن الخطأ الذى يقع فيه المخاطبون ، لا يستطيع أن يسبب لهم أو لأى كان ضررا بحال من الاحوال • انه لمن النادر والعسير أن يصل المرء الى ذلك التأكد ، ولذا فانه من العسير والنادر كذلك أن تكون هناك أكذوبة بريئة تماما . ان الكذب الذى يستهدف النفع الشخصى خداع ، والكذب لنفع الغير غش ، وأما الكذب من أجل الايذاء فهو افك : انه أسوأ أنواع الكذب • والكذب الذى لا ينطوى على مصلحة أو اضرار بالنفس أو بالآخرين ليس كذبا : انه ليس أكذوبة بل هو توهم •

وتسمى القصص الخيالية ذات الموضوع الاخلاقى عبرا أو حكايات ، ولما كان موضوعها ليس ـ ولا يجب أن يكون ـ سوى غلاف يضم حقائق نافعة فى صور ملموسة لطيفة ، فان المرء لا يستمسك اطلاقا فى مثل هذه

الحالة باخفاء كذب الواقعة ، الذى ليس سوى دثار للحقيقة ، ومن لا يروى حكاية خيالية الا من أجل الحكاية نفسها فليس بكاذب بحال من الاحوال.

وهناك قصص خيالية أخرى بالغة أقصى التفاهة ، مثـل ذلك معظم القصص والروايات التى لا تستهدف سوى التسلية اذ أنها تخلو من أى تثقيف حق. وتلك التخيلات ـ وقد تجردت من أية فائدة خلقية ـ لايستطاع ادراك قيمتها الا اذا عرف قصد مخترعها ، وهو حين يرويها مؤكدا اياها كأنما هى حقائق واقعة ، لا يسع المرء اطلاقا أن ينكر أنها أكاذيب حقة . ومع ذلك فمن ذا الذى عنى كثيرا بتلك الاكاذيب ، ومن ذا الذى وجه يوما الى قائليها لوما عنيفا ؟ لئن كان هناك ، على سبيل المثال ، مرمى خلقى فى قصة « معبد نيـــد (١) Le Temple de Gnide » فان هذا المرمى قد حجبته تماما وأفسدته التفاصيل الماجنة والصور الخليعة . ماذا فعــل المؤلف ليغطى ذلك بطلاء من التواضع ؟ لقد تظاهر بأن مؤلفه كان ترجمة لمخطوط يونانى وسرد قصة اكتشاف هذا المخطوط على خير وجه يستطيع به اقناع قرائه بصدق روايته . فلئن لم يكن فى ذلك كذب ايجابى أكيد، فلتقولوا لى ما هو الكذب اذن ؟ ومع ذلك ، فمن ذا الذى فطن الى جريمة المؤلف فى هذه الاكذوبة ، والى اعتباره من أجل ذلك مخادعا عبثا . ان الامر لا يعدو أن يكون دعابة ، وان المؤلف ـ وهو ماض فى تأكيده ـ لم يكن راغبا فى اقناع أحد ، بل انه فى الواقع لم يقنع أحدا ، وان النــــاس لم يشكوا لحظة واحدة فى أنه هو مؤلف الكتاب نفسه الذى زعم أنه يونانى والذى قدم نفسه كمترجم له . وسأرد على ذلك بأن مثل تلك الدعابة التى لا هدف من ورائها لم تكن سوى عمل صبيانى تافه . وبأن الكاذب لايكون أقل كذبا عندما يؤكد ما يقول ، مع كونه غير مقنع ، وبأنه يجب أن نستبعد من الجمهور المثقف ، كثرة من القراء السذج البسطاء ، الذين اعتقدوا فى صدق قصـــــة المخطوط ، وقد رواها لهم مؤلف جاد ، وبلهجة واثقة ، والذين شربوا دون خشية ، من كأس عتيقة الصورة ، السم الذى لو قدم لهم فى اناء حديث لكان من الممكن على الاقل أن يتشككوا فيه .

وسواء وجدت تلك التفرقة فى الكتب أو لم توجد ، فانها كائنـة فى قلب كل انسان واثق من نفسه ، لايود أن يجيز لنفسه شيئا يستطيع ضميره أن يلومه بسببه ، ذلك لان قول الزور لمصلحة شخصية لا يقل كذبا عن الجهر به بقصد الاضرار بالغير ، وان كانت الاكذوبة أقل جرما .

---

(١) معبد نيد ، أو معبد فينوس Le Temple de Gnide Venus هو رواية غرامية لمونتسيكو Montesquieu

أن منح ميزة لمن لا يستحقها اخلال بمجرى العدالة ، وأن يتسبب شخص لنفسه أو لغيره — زورا — عملا قد ينجم عنه ثنـــاء أو تقريع ، اتهام أو تبرئة ، لهو اجراء ظالم . وعلى ذلك ، فان كل شيء بمخالفته للحقيقـــة — يخدش العدالة على أية صورة — كذب . ذلك هو الحد الدقيق ، ولكن كل ماينافض الحقيقة ولاشأن له بالعدالة بأية حال ليس الا من خلق الخيال . وانى أعترف أن أى امرىء يلوم نفسه على توهم محض ، عده كذبا ، له ضمير أشد حساسية من ضميرى .

ان ما يسميه الناس أكاذيب المجاملة هى أكاذيب حقيقية ، ذلك لان من يضلل اما لمصلحة الغير أو لمصلحة نفسه ، ليس أقل ظلما ممن يضلل ملحقاضررا بنفسه . وان أى امرىء يمتدح أو يلوم مخالفا الحقيقة يعد كاذبا اذا ما وجه ذلك الى شخص حقيقى . أما اذا كان ذلك موجها الى كائن خيالى فانه يستطيع أن يتحدث عنه بكل ما يريد دون أن يكذب ، على ألا يحكم على مغزى الوقائع التى يختلقها ، وألا يصدر عليها حكما خاطئا : اذ أنه عندئذ ، ولو لم يكن كاذبا فى الوقائع ، فانه يرتكب الكذب ضد الحقيقة الاخلاقية ، تلك الحقيقة التى يجب احترامها مائة مرة أكثر من حقيـــقة الوقائع .

لقد صادفت فى الحياة أشخاصا ممن يسمون بصادقين . ان كل صدقهم يستنفد فى المحادثات التافهة وهم يسردون فى أمانة الامكنـــة والأوقات والاشخاص ولا يسمحون لانفسهم بأى تخيل ، ولا ينسجون أية ملابســـة من الخيـــال ، ولا يبالغون فى شىء . وهم فى كل ما لا يمس مصلحتهم ، يلتزمون فيما يقصون الامانة المطلقة . ولـكن ما أن يتطلب الامر معالجة مسألة تهمهم ، أو رواية واقعة ما تمسهم من قريب ، فانهم يستخدمون كافة الالوان ليعرضوا الاشياء على النحو الذى يكون أكثر نفعا بالنسبة لهم . واذا ماكان الكذب مفيدا لهم — وان كانوا يتجنبون قوله بأنفسهم — فهم يحبذونه فى لباقة ، ويعماون على أن يلتزمه الآخرون دون أن يتمكن أحد من نسبته اليهم . هـــذا ما يوجبه الحرص : وداعا أيها الصدق .

أما الانسان الذى أسميه « صادقا » فهو يفعل عكس ذلك تماما . ففى الامور التى لاتعنيه بتاتا ، فان الحقيقة — التى يحترمها الغير حينئذ احتراما شديدا — لا تؤثر فيه الا بقدر ضئيل جدا ، كما أنه لا يعنى أبدا بتسلية جماعة من صحابه بوقائع مختلفة لا ينجم عنها أى حكم خاطىء ، لصالح أو ضد — أى من الناس حيا كان أو ميتا . ولكن كل حديث يترتب عليه بالنسبة لأى شخص كسب أو خسارة ، تقدير أو احتقار ، مدح أو

لوم ، يتنافى مع العدالة والحقيقة ، هو كذب لن يجد سبيله أبدا الى قلبه أو فيه أو يراعه • وهو راسخ فى الصدق حتى ولو ضد مصلحته ، ولو أنه قلما يدعى ذلك فى المحادثات التافهة • انه صادق فى عدم محاولته خداع أحد ، وفى أن أمانته على الحقيقة التى تتهمه ، تستوى وأمانته على الحقيقة التى تشرفه ، وفى أنه لا يضلل لصالحه أو للاضرار بعـــدوه • فالفرق اذن بين رجل صادق وغيره هو أن رجل المجتمع يكون بعيد المغالاة فى أمانته بالنسبة لكل حقيقة لا تكلفهشيئا ، ولكنه لا يتجاوز هذاالمدى ، وأما رجلى أنا فهو لا يخدمها أبدا بمثل تلك الامانة اللهم الا حين يرى من واجبه أن يضحى بنفسه فى سبيلها •

ولكن قد يقال : كيف يمكن التوفيق بين هذا التساهل وهذا الحب الشديد للحقيقة الذى أمجده من أجلها ؟ واذن ، أفهذا الحب زائف ما دام يستغل كل هذه الشوائب ؟ كلا انه لطاهر وصادق ، ولكنه ليس سوى مظهر لحب العدالة؛ ولايمكنه ابدا أن يكون زائفا ، برغم انه غالبا مايكون خياليا • ان العدل والحق لفظان مترادفان فى ذهنه ، يحل الواحد منهما محل الآخر بدون تفرقة ، والحقيقة المقدسة التى يعبدها قلبـه ، ليست وقائع لا قيمة لها ، وأسماء لا طائل وراءها ، ولـكنها اعطاء كل ذى حق حقه فيما يملكه حقيقة ، وفيما ينسب اليه خيرا كان أو شرا ، وما يجزى به من تشريف أو تقريع ، من ثناء أو استهجان ، وهو ليس مخطئا لا فى حق الغير لان عدالته تمنعه من ذلك ولأنه لايريد الاضرار بأحد ظلما ، ولا فى حق نفسه لان ضميره يذوده عن ذلك ، ولانه لا يمكن أن ينتحل لنفسه ما لا يملكه ؛ ولكنه يغار بصفة خاصة على احترام ذاته ، فهى ملك لهوآخر ما يسعه التخلى عنه • وهو قد يشعر بخسارة حقة ان هو نال احـــترام الآخرين على حساب احترامه لذاته•واذن فانه سيكذبأحيانا فيما لا أهمية له بدون تحرج ودون أن يعتقد أنه يكذب، ولكن هذا لايحدث ابدا لالحاق خسارة أو كسب للغير أو لنفسه • أما فى كل مايتعلق بالحقائق التاريخية وكل ما يمت بصلة بسلوكالناسوبالعدالة وبواجبالمعاشرة وبالايضاحات المفيدة ، فانه يجتنب نفسه كما يجنب الآخرين الخطأ ، ما دام ذلك متوقفا عليه • وكل كذب فيما عدا ذلك ليس كذبا فى نظره • واذا كان « معبد نيد » Le Temple de Gnideمؤلفا نافعا فان قصة المخطوطاليونانيليست سوى تخيل بالغ البراءة ، ولكنها كذبة تستحق العقاب الشديد اذا كان الكتاب خطرا •

تلك كانت شريعة ضميرى فيما يتصل بالكذب والصدق • ولقدكان قلبى يتبع هذه الشريعة آليا قبل أن يعتنقها عقلى • ولكن الوازع الخلقى

هو الذى قام وحده بتطبيقها • ان الكذبة الاجرامية التى كانت «ماريون» Marion (١) التعسة ضحية لها ، خلفت لى ندما لا يمحى ، وقانى فيما بقى لى من حياتى ، لا أية أكذوبة من هذا القبيل فحسب ، بل كافة الاكاذيب التى على تنوع صورها ، كانت تستطيع أن تمس صالح وسمعة الغير • ولما جاء الاقتناع شاملا على هذا النحو فقد أحللت نفسى من موازنة النفع والضرر موازنة دقيقة ، ومن تعيين الحدود الفاصلة بين الكذب الضار وكذب المجاملة، ولما كنت أعد كليهما اثما ، فاننى حرمتهما معا على نفسى •

وسواء فى تلك المسألة أو فيما عداها ، كان لمزاجى تأثير كبير على مبادئى ، أو بالاحرى على عاداتى ، ذلك لاننى لم أتصرف بتاتا متبعا قاعدة ما أو التزمت قواعد أخرى فى أى شىء سوى دوافع طبيعتى • ولم يحدث مطلقا أن مرت بخاطرى أكذوبة مدبرة ، كما لم يحدث مطلقا أن كذبت سعيا وراء مصلحة شخصية ، ولكننى كذبت كثيرا بسبب الخجل ، أو لأتخلص من الحرج فى أمور لا أهمية لها ، أو لم تكن تهم على الاكثر سواى وذلك حين يكون على أن أواصل حديثا ، فيضطرنى بطء تفكيرى ونضوب حديثى للالتجاء الى التخيل حتى أجد ما أقوله • وحين يكون الكلام ضروريا ولا تعرض لذهنى سريعا حقائق تبعث على التسلية فاننى أقوم برواية حكايات خيالية حتى لا أظل أبكم ، ولكننى أعنى ، عند اختراع هذه الحكايات بقدر ما يسعنى ذلك – ألا تكون أكاذيب بمعنى أنها لا تخدش العدالة ولا الحقيقة الواجبة ، وألا تكون سوى تخيلات لا قيمة لها بالنسبة للناس جميعا ولى • ولقد كان بودى لو أننى استبدلت فيها على الأقل حقيقة الوقائع بحقيقة أخلاقية، أى بأن أصور فيها تصويرا صادقا الاحاسيس الطبيعية للقلب الانسانى ، وأن أستخلص منها دائما درسا نافعا ، وقصارى القول أن أصنع منها قصصا أخلاقية ، وعبرا ، ولكن كان من اللازم لذلك قسط من حضور البديهة أوفر مما أملك ، ومزيد من طلاقة اللسان حتى أستطيع أن أحقق فائدة التعليم من لغو المحادثة ، ذلك لان سيرها فى سرعة تفوق سرعة أفكارى ، وهو يضطرنى دائما الى النطق قبل التفكير غالبا ما أوحى الى بسخافات وتفاهات لم يكن عقلى ليرضى عنها ، وكان قلبى ينكرها فى حين أنها تفلت من شفتى ، ولكنها اذ تسبق حكمى الشخصى فانه لا يعود من الممكن اصلاحها بمراقبتها • وانه ليحدث كذلك بسبب هذا الدافع الأول العنيف لمزاجى ، فى لحظات خاطفة غير متوقعة ، أن ينتزع منى الخجل والحياء غالبا أكاذيب لا دخل لارادتى فيها ، ولكنها

---

(١) ماريون Marion هى الخادم التى أشرنا اليها فى هامش ص ١٢٨ واتهمها روسو ظلما بالسرقة •

تسبقها مدفوعة بضرورة الاجابة على التو • ان الانطبـــاعة العميقة التى خلفتها ذكرى « ماريون » المسكينة يمكنها أن تمنـــع دائما الاكاذيب التى تضر بالغير ، ولكن لا يقوى على منع تلك التي يمكنها مساعدتى على التخلص من الحرج حين يكون الأمر متعلقا بى وحدى ، وهى لا تقلمعارضة لضميرى ومبادىء من تلك الأكاذيبالتى تصنع التأثير فى مصير الآخرين •

وانى لأشهد السماء على أنه اذا كان فى استطاعتى فى اللحظةالتالية للأكذوبة التى تبرئنى منها وقول الحق الذى يدينني دون أن أسبب لنفسي مهانة جديدة بتراجعي لفعلت ذلك من كل قلبي • ولكن الخجل من اظهار نفسي على هذا النحو مخطئا يجعلني أحجم كذلك ، واني لأندم مخلصـــا جدا على خطئي دون أن أجرؤ مع ذلك على اصلاحه • ولعل مثلا يفسر خيرا من ذلك ما أريد قوله ، ويبين أنني لا أكذب سعيا وراء المصلحة ولا عن كبرياء بل وأدنى من ذلك عن حسد أو خبث ، ولكن عن حرج وخجل مزر فحسب ، بل وأنا أعلم تمام العلم فى بعض الأحايين أن هذا الكذبمفضوح ولا يمكن أن يجـدى بالمرة : حدث منذ حين أن دعاني السيد ف •• (١) ـ بخلاف ما جرت عليه عادتي ـ على الخروج مع زوجتي وتناول الطعـــام اثنــاء النـــزهة معه ومع الســـيد ب ... عند السيدة ... وهى صاحبة مطعم ، تناولت هى وابنتاها الطعام معنا . واثناء تناول الطعام خطر للكبرى ، وهى متزوجة من وقت قصير وكانت حاملا ، ان تسألنى فجاة وهىتحدق فى انكنتقد رزقت باولاد . فأجبتها وقد احمر وجهى حتى الجفنين أننى لم أنل هذا الحظ ، فابتسمت فى خبث وهى تتطلع الى الجماعة ، ولم يكن كل ذلك خافيا ، حتى على •

ومن الجلى قبل كل شيء أن هذه الاجابة لم تكن أبدا ما كنت أود أن تكون ولو فيما اذا كانت لدى النية عندئذ فى التضليل ، ذلك لأننى تبعا للاستعداد الذى شهدته فى المدعوين ، كنت واثقا تمام الثقة من أن اجابتى لم تغير شيئا من رأيهم فى هذا الامر • لقد كانوا يتوقعون هذا النفى ، بل انهم أثاروه ليستمتعوا بلذة دفعى الىالكذب • ولم أكن منالغفلةبحيث لا أدرك ذلك • وبعد دقيقتين ، لاحت لى من تلقائها الاجابة التى كان على أن أجيب بها وهى « هذا سؤال تعوزه الحصافة من سيدة شابة ، لرجل تقدمت به السن وهو أعزب » •• وكنت بتحدثى على هـــذا النحو ، بغير كذب ودون أن يكون هناك ما يدعو الى الخجل بسبب أى اعتراف ، كنت مستطيعا أن أضم الضاحكين الى صفى ، وألقنها درسا صغيرا كان من شأنه طبعا أن يقلل من وقاحتها فى سؤالى • ولكننى لم أفعل شيئا من

---

(١) هو السـيد فولكييه Foulquier طبقا لما جاء بطبعة Bernard Groethuysen

هذا كله ، ولم اقل أبدا ما كان يجب قوله ، بل قلت ما لم يكن ضروريا ولم يعد علي بالنفع في شيء . ومن المؤكد ، اذن انه لا عقلي ولا ارادتي أمليا على اجابتي ، بل انها كانت النتيجة الآلية للحرج الذي كنت فيه . لم يعتورني هذا الحرج قط من قبل بل كنت أعترف بأخطائي بصراحة أكثر مما كان في ذلك لانني لم أكن اشك في أن الناس لا يرون ما يكفر عنهـا وما كنت أستشعره في قرارة نفسي ، ولكن نظرة الخبث تشقيني وتحيرني: لقد ازداد حيائي بازدياد شقوتي ، ولم يحدث أن كذبت الا حياء .

لم يحدث أبدا أن أحسست بنفوري الطبيعي من الكذب أشد مما أحسست به عند كتابة « اعترافاتي » ، ذلك لأن الاغراء فيها كان من الممكن أن يتكرر ويشتد مهما أبعدتني ميولي عن هذه الناحية ، ولكن بدلا من أن أكتم شيئا أو أخفي شيئا مما قد يدينني ، كنت أحس وأنا أفكر بطريقة يشق علي شرحها ـ لعلها بسبب البعد عن كل محاكاة ـ كنت أحس أن ميلي للكذب عكس الاتجاه المعتاد ، باتهام نفسي في مزيد من القسوة أشد منه بتبرئتها في مزيد من التسامح ويؤكد لي ضميري أن محاكمتي في يوم من الأيام ستكون أقل قســوة مما حكمت به على نفسي . أجل ، انني أقول ذلك وأحسه بإباء وعزة نفس ، ولقد حملت هذا المكتوب حسن نية وصدقا وصراحة بلغت فيها ـ في اعتقادي عـلى الاقل ـ ما بلغه ، بل أبعد مما بلغه ، أي انسان آخر على الاطلاق (١) ، ولاحساسي بأن الخير يفوق الشر ، وجــدت من مصلحتي أن أقول كل شيء ، وقد قلته .

لم يحدث أبدا أن قلت أقل مما يجب ، بل انني قلت أحيانا أكثر مما يجب ، لا في الوقائع بل في الملابسات ، وهذا النوع من الكذب كان نتيجة تخبط الخيال أكثر منه فعلا اراديا ، بل انني لأحيد عن جادة الصواب أن أسميته كذبا ، ذلك لا لأن واحدة من هذه الاضافات لم تكن كذبا . لقــد كنت أكتب اعترافاتي بعد أن تقــدمت بي السن (٢) ، وبعد أن

---

(١) قال روسو في مستهل « الاعترافات » : « لقد صورت نفسي على حقيقتها : في ضعتها وزرايتها . وفي صلاحها وحصافة عقلها ، وسموها تبعا للحال التى كنت فيها .. لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسي ، كما كنت انت تراها ، ايها الخالد الحشــد الذي لا حصر له من ابنـاء جنسي ، ودعهم يصـغون الى اعترافاتي ، فيرثون لخستي ، ويخجلون لمثالبي . ثم ادع كلا منهم الى ان يكشف بدوره ـ وبمثل الصراحة ـ اسرار فؤاده ، عند قوائم عرشك ، وليقل ان جرؤ : « لقــد كنت خيرا من ذلك الرجل » .

(٢) بدأ روسو كتابة « الاعترافات » Les Confessions عام ١٧٦٥ اي كان يبلغ اذ ذاك الثالثة والخمسين .

اشمأزت نفسي من المتع الباطلة فى الحياة تلك المتع التي كنت مررت بها جميعا من قبل ، والتي أحس قلبي تماما بتفاهتهـا • كنت أكتبها من الذاكرة ، وكثيرا ما كانت تلك الذاكرة تخونني أو لا تمدني الا بذكريات ناقصة ، فكنت أسد الثغرات بتفاصيل كنت أتخيلها بالاضافة الى تلك الذكريات ، وان لم تكن متعارضة معها أبدا • كنت أحب أن أتوسع فى تناول اللحظات السعيدة فى حياتى ، وكنت أجملها أحيانا بمجملات كان يزودني بها أسفى عليها • كنت أردد ما أكون قد نسيته كما كان يبدو لى أنها لابد كانت كذلك فى رأيى ، أو كما لو كان من الجائز أن يحدث فى الواقع ، ولكن ليس بعكس ما كنت اتذكرها عليه أبدا • وكنت أسبغ أحيانا على الحقيقة مفاتن غريبة عليها ، ولكن لم يحدث مطلقا أن أحللت الكذب مكانها لأموه على رذائلى أو لأنتحل لنفسى فضائل •

واذا ماحدث فى بعض الأحيان أن أخفيت ــ دون ان افكر فى الأمر بدافع غير ارادى ــ الناحية الشوهاء ، مصورا نفسى تصويرا جانبيا ، فان هذا الكتمان كان يستعاض عنه تماما بكتمان آخر أشد غرابة كثيرا ماجعلنى أحرص على الامساك عن ذكر الخير فى عناية أشد من حرصى على كتمان الشر ، وهذه غرابة فى طبعى لابد أن يغتفر للناس عدم تصديقهـا ، ولو أنها ــ على بعدها عن التصديق الا أننى أتصورها ــ اننى كثيرا ما قلت الشر بكل حقارته ، ونادرا ما قلت الخير بكل ما فيه من جمال ، وكثيرا ما كتمته تماما لانه كان يسبغ على شرفا زائدا ، ولأننى ــ اذ كنت أسـجل اعترافاتى ــ كنت خليقا أن أبدو كمادح نفسه • لقد وصفت أيام شبابى دون أن أزهى بالخصال الحميدة التى وهب اياها قلبى ، بل وبحذف الوقائع التى كانت تجعلها واضحة تماما • وانى لأذكر منها الآن واقعتين حدثتا فى طفولتى الباكرة مرتا بذاكرتى وأنا أكتب ولكننى أغضيت عنهما للسبب الوحيد الذى ذكرته الآن •

كنت أقضى طيـلة نهار أيام الآحاد تقريبا فى « باكى » Paquis لدى السـيد فازى Fazy الذى كان متزوجا من احدى عماتى ، والذى كان يمتلك هناك مصنعا للشيت الهندى • وفى يوم كنت بالمنشر فى حجرة الجندرة أتطلع الى اسطوانات من حديد الزهر وكان بريقها يمتع ناظرى وقد زين لى أن أضع عليها أصابعى وأخذت أمررها فى استمتاع على صفحتها المصقولة ، حين جاء « فازى » الصـغير وأدخل نفسه فى العجلة وأدارها ثمن دورة باحكام حتى لم يأخذ الا طرفى أطول أصابع يدى ، ولكن كان هذا كافيا لأن يسحق الطرفين مع بقاء الظفرين فيها ، وصرخت صرخة حادة فأرجع « فازى » العجلة للتو ولكن الأظافر بقيت بالاسطوانة ،

وانسال الدم منهمرا من أصابعي ، وأخذ « فازى » في ذهول يصرخ « اخرج من العجلة » وأخذ يقبلني ، ويقسم لى أنه سيهدىء من صراخى مضيفا أنه يحس نفسه مضيعا • ومع احساسى بالألم الشديد ، فان ألمه أثر في ، فسكت ، وذهبنا الى المغسل حيث ساعدنى على غسل أصابعى ، وتجفيف دمى برغوة الصابون • ثم توسل الى والدموع فى عينيه ألا أشير الى اتهامه بما حدث ، فوعدته بذلك ، وبررت بوعدى حتى أنه بعد أكثر من عشرين عاما لم يكن هناك من يدرى شيئا عن ذلك الحادث الذى خلف ندبتين فى أصبعى ذلك لانهما ظلا دائما كذلك • ولقد ظللت رهين سريرى أكثر من ثلاثة أسابيع ، وقضيت أكثر من شهرين فى حالة لا تمكننى من استخدام يدى مرددا دائما أن كتلة ضخمة من الحجر سحقت أصابعى حين سقطت عليها •

(1) Magnanima menzogna : or quando è il vero
Si bello, che si possa a te preporre ?

أيتها الأكذوبة الشامخة ، متى أمكن الحقيقة

مهما بلغت من جمال ، أن تفوقك ؟

ومع ذلك فقد جعلنى هذا الحادث شـــديد الحساسية للظرف الذى حدثت فيه ، لأنه جاء فى وقت التمرينات التى كانوا يقومون خلالهـــا بتشغيل الأهلين ، وكنا قد كونا صفا من ثلاثة أطفال آخرين من سنى ، كان على ـ وأنا مرتد الزى الرسمى ـ أن أباشر التمرين مع الجماعة فى الحى الذى اقطنه . وقد سمعت وانا اتألم صوت طبول الجماعة وهى تمر تحت نافذتى ومن بينهم زملائى الثلاثة فى حين أنا طريح الفراش •

واما قصتى الأخرى • فشبيهة تماما بهذه القصة وان دارت وقائعها فى سن متقدمة نســـبيا . كنت العب لعبة الصـــوالج فى بلان باليه Plain -Palais مع واحد من رفاقى يدعى « بلانس » Plince وتشاجرنا أثناء اللعب وتضاربنا فوجه الى رأسى العارية خـلال المعـــركة ضربة

---

(1) Magnanima menzogna ; Or quando é il vero
Si bello, che si possa a te preporre ;

وقد ترجمها من الايطالية الى الفرنسية Auguste Desplaces فكانت :

Magnanime mensonge, quand la vérité est-elle
Si belle qu'elle puisse te surpasser ;

وبالعربية : أيتها الأكذوبة العظيمـة ، متى كانت الحقيقة من الجمـال بحيث يمكنها أن تفوقك ؟

بالصوليج بلغت فى احكامها أنها لو سددت من يد اشد قوة لكانت كفيلة ان تهشم رأسى · ولقد سقطت على الفور ، ولم أر فى حياتى اضطرابا كاضطراب ذلك الفتى المسكين · شهد الدم يسيل بغزارة من شعرى فخيل اليه أنه قتلنى فاندفع نحوى يقبلنى ويضـــمنى اليه بقوة وهو يسكب دموعه ويصرخ صراخا حادا ، فأخذت أقبله كذلك بكل قوتى وأنا أبكى مثله فى عاطفة مضطربة لم تخل من بعض حنان ، وفى نهاية الأمر اخذ يجفف دمى الذى ظل يسيل ، ولما رأى أن منـــديلينا لم يعودا كافيين ، اخذنى الى أمه التى كانت لها حديقة صغيرة على مقربة ، وكاد يغمى على هذه الســيدة الطيبة حين رأتنى على هذه الحـــال ، ولكنها استطاعت أن تتماسك لتضمدنى وبعد أن غسلت جرحى جيدا وضعت عليه زهور الزنبق Lxs المنقوعة فى الكحول وهو دواء شاف للجروح يكثر استعماله فى بلادنا · ولقد نفذت دموعها ودموع ابنها الى قلبى ، وحتى ظللت أنظر اليها وقتا طويلا كأم لى ، وظللت اعتبر ابنها أخا لى ، حتى توارى الاثنان عن ناظرى فنسيتهما شيئا فشيئا .

ولقد احتفظت بسر ذلك الحادث احتفاظى بسر الحادث الآخر ، ثم مر بى فى حياتى مائة حادث آخر من النوع نفسه لم أحاول التحدث عنها فى « اعترافاتى » ما دمت لم أكن أسعى فيها وراء وسيلة تجعل الناس يقدرون الناحية الخيرة التى كنت أستشعرها فى خلقى . كلا ، اننى حين تحدثت مخالفا الحق الذى كنت أعرفه ، لم يكن ذلك الا فى أمور تافهة ، بل ان ذلك كان اما عن تحرج عن الكلام ، أو لمجرد الرغبة فى الكتابة أكثر منه بسبب أى دافع لمصلحة خاصة أو بسبب نفع أو ضرر الغير · وان أى شخص سيقرأ اعترافاتى دون تحيز ــ لو قدر حدوث ذلك ــ سيحس أن الاعترافات التى سجلتها هناك أكثر اذلالا وأشق عند الادلاء بها ، من اعترافات بإثم أشد وان كان أقل مجلبـــة للخزى ، والتى لم أذكرها لأننى لم أفعلها ·

ويستخلص من كل هذه الخواطر أن اشهار الحقيقة الذى التزمته يستند الى أساس من مشاعر الاســتقامة والعدالة أكثر من استناده الى حقيقة الامور ، واننى اتبعت من الناحية العملية التوجيهات الاخلاقيـة لضميرى أكثر من اتباعى الآراء المجردة عن الصـــواب والخطأ · وكثيرا ما قصصت حكايات ، ولكنى نادرا جدا ما كذبت · وباتباعى هذه المبادىء يسرت للآخرين الكثير من المآخذ على ، ولكننى لم أخطىء فى حق أحد مهما يكن ولم أنسب لنفسى البتة أكثر مما استحق · ويبدو لى أن أقول

الحقيقة هنا فقط يعد فضيلة ، واما في النواحي الاخرى فانها ليست بالنسبة لنا سوى كائن ميتافيزيقي لا ينجم عنه خير أو شر . .

ومع ذلك فان قلبي لا يكاد يحس بالرضى لهذه التفرقة حتى يجعلني أعتقد أنني غير ملوم تماما ، وحين أزن بهذه العناية ما أدين به للآخرين أقترانى درست دراسة كافية واجبي ازاء نفسي ؟ لئن كان من الواجب على المرء أن يكون عادلا بالنسبة للغير فان من الواجب عليه أن يكون صادقا بالنسبة لنفسه . ان ذلك لولاء على الرجل الشريف أن يؤديه لكرامته . وحين كان يكرهني جدب حديثي على أن استكمله بتخيلات بريئة كنت مخطئا ، ذلك لأنه لا يجب أبدا - رغبة في تسـلية الغير - أن يبخس الانسان نفسه . وعندما كنت أضيف الى أمور واقعة حواشي من اختراعي - مسوقا الى ذلك بالرغبة في الكتابة - كنت أرتكب خطأ أكثر كذلك لأن تزيين الحقيقة بالخرافات هو في الواقع تشويه لها .

ولكن مايجعل ذنبي لا يغتفر هو ذلك الشعار الذي كنت قد اتخذته كان هذا الشعار يضطرني أكثر من أي انسان آخر الى التزام الدقة في اشهار الحقيقة ولم يكن يكفي أن أضحي من أجله في كل شيء بمصلحتي وميولي ، بل كان يجب كذلك أن أضـحي من أجله بضعفي وبطبيعتي الحيية . كان لا بد من الشجاعة والقدرة لأكون صادقا دائما وفي كل مناسبة ، وألا تخرج البتة تخيلات أو خرافات من فم ومن قلم كرسـا للحق قبل كل شيء . ذلك ما كان يجب على أن أقوله لنفسي حين اتخذت هذا الشعار الرفيع ، وأن أردده باستمرار ما دمت قادرا على الأخذ به . لم يحدث قط أن أملى الخداع أكاذيبي بل انها نجمت جميعها عن ضعف ، ولكن ليس هذا عذرا لي بالمرة يستطيع المرء ذو النفس الضعيفة أن يجتنب الرذيلة على أكثر تقدير ، ولكنه يكون متجبرا ومتهورا ان هو جرؤ على ان ينادي بفضائل كبيرة .

تلك خواطر كان من المحتمل ألا تعرض لذهني لو لم يوح بهـا الى الراهب « ر ... » وليس من شك أن الانتفاع بها بات متأخرا ، ولكن الوقت لم يمت على الأقل لتقويم خطئي واخضاع ارادتي للمبدأ ، ذلك لأن هذا هو كل ما يتوقف على منذ اليوم ... واذن فانه في هذا وفي كل ما يشابهه من أمور يمكن تطبيق مبدأ « سولون » بالنسبة لكل الأعمار فالفرصـة قائمة دائما كي يتعلم المرء - حتى من أعدائه - كيف يكون عاقلا ، صادقا ، متواضعا ، وأن يعرف على الأقل قدر نفسه .

الجولة الخامسة

من بين الديار التي أقمت فيها جميعا (١) ، وكانت لي من بينها ديار بديعة ، لم تسعدني حقا ولم تخلف لي كل ذلك الأسى سوى جزيرة سان بيير Saint-Pierre القائمة وسط بحيرة بيين (٢) Bienne وهذه الجزيرة الصغيرة التي يطلقون عليها في نيوشاتل Neuchâtel جزيرة لاموت La Motte ليست معروفة حتى في سويسرا ، الا قليلا ، ولا يورد لها ذكرا واحد من الرحالة ، على ما أعلم . ومع ذلك فهي لطيفة جدا ، وتفردت بموقع كفيل باسعاد من يهوى الانطواء على نفسه الا انه برغم أنني ربما كنت الوحيد في العالم من جعل قدره من نفسه (أي من القدر) قانونا له فانني لا أستطيع أن أصدق أنني الوحيد من ذلك الذوق الطبيعي ، برغم أنني لم أجده حتى الآن لدى أي شخص آخر .

وشطئان بحيرة « بيين » أكثر ميلا للفطرة والشاعرية من شواطئ « بحيرة جنيف » ذلك لأن الصخور والغابات هناك أكثر قربا في مجاورتها للماء ولكنها ليست أقل بهجة . ولئن كان ما بها من زرع الحقول وكروم ومدن ومساكن أقل ، فانها تفوقها من ناحية الخضرة الطبيعية والمراعي ، وكنيف الايك تظللها الخمائل ، والتباين الغالب بها والنتوءات المتقاربة . ولما لم يكن هناك على تلك الضفاف الباسمة من طرق كبيرة معبدة للعربات فان الاقليم لم يكن يؤمه المسافرون كثيرا ، وان كان يروق للمتأملين

---

(١) من الديار البديعة التي خلفت الذكرى الطيبة في نفس روسو اقامته وهو طفل في قرية بوسي Bossey بالريف عند القس لمبرسييه Lambercier وفي الشارميت Les Charmettes عند مدام دوفواران وفي ارميتاج Ermitage في ضيافة مدام دابيناي Mme d'Epinay ، ويلاحظ ان تلك الديار جميعا كانت تحيط بها المناظر الطبيعية التي أحبها روسو دون سواها .

(٢) استقر روسو في جزيرة سان بيير في النصف الثاني من سبتمبر ١٧٦٥ وعاش هناك حتى ٢٥ من أكتوبر من العام نفسه (الاعترافات الجزء الثاني عشر) ، حين امر بمغادرة مكانه بناء على امر مجلس شيوخ « برن Berne »

المنعزلين الذين يرغبون فى أن ينتشوا كما يشاءون بمفاتن الطبيعة ، وأن ينطووا على أنفسهم فى سكون لا يتخلله أى صوت سوى صرخات العقبان وشقشقة متقطعة لبعض الطيور ، وهدير السيول التى تنحدر من الجبل • ويضم هذا الحوض الجميل ذو الشكل الدائرى تقريبا جزيرتين صغيرتين فى وسطه ، احداهما مأهولة ومزروعة محيطها نصف فرسخ تقريبا ، والأخرى تصغرها ، وهى قفراء قاحلة وسيقضى عليها فى نهاية الأمر بسبب ماينقل من أرضها تباعا لاصلاح ماتفسده الأمواج والعواصف البحرية فى الجزيرة الكبرى • وهكذا تستغل دائما مقومات حياة الضعيف لمصلحة القوى •

ليس فى الجزيرة سوى منزل واحد ، ولكنه كبير ، ولطيف ، ومريح ، وهو ملك لمستشفى برن Berne كالجزيرة كذلك ، ويقيم فيه محصل مع أسرته وخدمه ، ويتولى هناك تربية عدد كبير من الدواجن ، كما أن هناك حظيرة للدواجن وأحواض للسمك ، والجزيرة على صغرها ، بلغت من التنوع فى أراضيها ومشاهدها ما جعلها تعرض للرائى كل أنواع المواقع وتحتمل كل ألوان المزروعات : فيها حقول وكروم وغابات وبساتين ومراع كثيفة تظللها الاعراش وتحفها الشجيرات من كل نوع ، ويكفل نضارتها مجاورتها للماء ، ويحف بطول الجزيرة شريط مرتفع من الأرض زرع به صفان من الاشجار ، وشيد فى وسطه بهو جميل يجتمع سكان الشواطىء المجاورة فيه حيث يأتون أيام الآحاد فى موسم قطاف الكروم •

كانت هذه الجزيرة هى المكان الذى لجأت اليه بعد رجم موتييه Motiers (١) وقد وجدت الاقامة فيها رائعة وعشت هناك حياة تتفق ومزاجى ، حتى أننى وقد عزمت على أن تنتهى حياتى بها ، لم يساورنى أى قلق اللهم الا احتمال عدم تمكينى من تنفيذ هذا المشروع الذى لم يكن ليتفق ومشروع اجتذابى الى انجلترا ، الذى كنت قد بدأت أحس بوادره • وفيما كان يعتورنى من أحاسيس تقلقنى ، وددت لو أنه جعل من ذلك المأوى سجنا أبديا لى ووددت لو أننى احتبست فيه طيلة حياتى ولو أنه بسلبى كل قدرة وكل أمل فى الفكاك منه حرمت على كل أنواع الاتصال بالارض حتى اننى — بجهلى كل ما يجرى فى العالم — كنت أستطيع أن أنسى وجوده كما يستطيعون من به ان ينسوا وجودى كذلك •

---

(١) اعتبر أهل « موتييه Môtiers » روسو خارجا على الديانة لما جاء فى « اقرار ايمان كاهن من سفوا Profession de foi du Ciccire Savoyard فرجموا منزله بالحجارة • ويقول بعض الكتاب ان ذلك كان بتحريض من ترين Thérèse لأنها لم تكن تريد الاقامة هناك •

انهم لم يدعونى قط أقضى ســوى شهرين فى تلك الجزيرة ، وكنت خليقا أن أقضى بها عامين بل قرنين ، بل والى الأبد ، دون أن ينال منى السأم لحظة واحدة ، برغم انه لم يكن لى فيها مع صاحبتى من رفقة اخرى سوى رفقة المحصل وزوجه وخدمه الذين لم يكونوا جميعا ــ فى الحقيقة ــ سوى قوم طيبين . ولكن كان هذا بالضبط ما انا بحاجة اليه . اننى اعد هذين الشهرين أسعد وقت مربى فى حياتى ، بل بلغت فيه درجة من السعادة كانت تكفينى طوال عمرى دون أن تولد فى نفسى ولو للحظة واحدة الرغبة فى حال اخرى .

أنى كانت اذن هــذه الســعادة ؟ وفيم كانت متعتها ؟ سأدع من يعيشون فى هذا القرن يخمنون وصف الحياة التى كنت أحياها هناك . كان الفراغ الناعم far niente أول وأهم هذه المتع التى وددت التلذذ بتذوقها بكل ما فيها من حلاوة فلم يكن فى الواقع كل ما فعلته طيلة اقامتى سوى ذلك الانهماك اللذيذ الذى يلزم رجلا كرس نفسه للبطالة .

كان الأمل فى ألا يطلب أكثر من أن أترك فى هذا المقام المنعزل حيث قيدت نفسى بنفسى ، والذى كان من المســتحيل الخروج منه دون عون وبغير أن ينتبه الى ، وحيث لم أكن أستطيع أن يكون لى اتصال أو مراسلة الا بمساعدة من كانوا يحيطون بى أقول ان هذا الأمل كان يبعث فى أملا آخر هو قضاء أيامى فى هدوء أكثر من ذى قبل . وكانت فكرة أنه كان أمامى متسع من الوقت لتدبير كل أمورى عندما يطيب لى ذلك ، قد جعلتنى لا أبدأ فى القيام بعمل أى ترتيب . ولما كنت قد نقلت الى هناك فجأة ، وحيدا ومجردا ، فقد أحضرت تباعا مدبرة بيتى وكتبى وأمتعتى القليلة التى وجدت لذة فى عدم فتحها تاركا حقــائبى وصناديقى ، على حالها حين وصولها ، ومقيما بالمسكن الذى عولت على قضاء آخر أيامى به كما لو كنت أعيش فى فندق يتعين على مغادرته فى الغد . وظلت الأشــياء جميعا وهى على ما هى عليه ، فى حالة طيبة حتى أن الرغبة فى ترتيبهــا خيرا من ذلك كانت بمثابة افساد جانب منها . وكان من أكبر المتع لدى أن أدع كتبى دائما محفوظة فى الصناديق وألا تكون لدى محبرة عــلى الاطلاق . وحين كانت تضــــطرنى خطابات منكودة الى تناول القلم للرد عليها كنت أستعير ــ وأنا ضجر ــ محبرة المحصل وكنت أسارع بردهــا اليه بأمل عقيم فى ألا تدفعنى الحاجة الى استعارتها فيما بعد . وقد شغلت حجرتى بدلا من تلك الاوراق الكئيبة وكل هــذه الكتب القديمة بالزهور والنباتات ذلك لأننى كنت اذ ذاك فى بداية شغفى بدراسة النبات التى

بث الميـــل اليهـا في نفسي الدكتـــور ديفرنوا D'Ivernois (١) حتى غدا هذا الميل شغفا • ولما كنت لا أرغب في القيام بعمل جاد فانه كان يلزمني عمل مسل يروقني ولا يسبب لي جهدا أكثر مما يرتضيه كسول لنفســـه • وشرعت في تصـــنيف أزهار الجـــزيرة الصـــخرية Flora petrinsularis (٢) وفي وصـــف كل نبـــاتات الجـــزيرة دون اغفال واحد منها وذلك بتفصيل يكفي ليشغلني بقية أيام حياتي • ويقال ان ألمانيا ألفت كتابا عن قشرة ليمونة ، وكان في استطاعتي تأليف واحد عن كل بقل من بقول المراعي وعن كل طحلب من طحالب الغابات وعن كل حزاز يمكن أن يوشي الصخور ، وقصارى القول انني لم أكن أريد أن أترك خيطا من العشب أو ذرة من النبات دون أن أتناولها بالوصف الشامل ، وتمشيا مع هذا المشروع البديع كنت أذهب كل صباح ، بعد الافطار الذي كنا نتناوله مجتمعين ، كنت أذهب وبيدي عدسة وأنا متأبط كتابي «نظام التقسيم الطبيعي للنباتات» Systema naturae (٣) كي أزور ناحية من الجزيرة التي كنت قد قسمتها لهذا الغرض الى مربعات صغيرة مستهدفا التجول فيها الواحد بعد الآخر في كل فصل • وليس هناك أغرب من تلك المفاتن والنشوات التي كنت أستشعرها عند كل ملاحظة أقوم بهـا فيما يتصل بالتركيب والتنظيم النباتي وفيما يتصل بدور الاعضـــاء الجنسية في التلقيح الذي كان نظامه اذ ذاك جديدا تماما بالنسبة الي ، وكانت التفرقة بين المميزات النوعية التي لم يكن لدي من قبل أدنى فكرة عنها تستحوذ على مشاعري عند تطبيقها على الانواع الشائعة وأنا أتوقع بأن تعرض لي أنواع أكثر ندرة .

وكان الشق الموجود في تصـــلي Brunelle القلاع البري الطويلين وبروز تصـــال Ortie اللسيع (القريص • ابرة العجوز) وحشيشة الزجاج Pariétaire (حشيشة الرمل) وتفتح ثمرة البهاء البلسمينة (النعناع الرومي) Balsamine وجوزة البقس وألف حيـلة للتلقيح كنت ألحظها لأول مرة فتفعمني سرورا . وكنت اذهب لأتساءل ان كان النـــاس قد شهدوا القلاع البري Brunelle كما كان يسألهم «لافونتين»

(١) ديفرنوا D'Ivernois جان انتوان (١٧٠٣ ــ ١٧٦٥) هو طبيب كان أول من تلقى روسو على يديه الميل الى دراسة النبات .

(٢) عمل روسو تصنيفا للازهار التي تنبت فوق الصخور في الجزيرة .

(٣) كتاب نظام التقسيم الطبيعي للنباتات Systmea naturae هو من تأليف عالم النبات السويدي لينيه Linné (١٧٠٧ ــ ١٧٧٨) نشر الكتاب عام ١٧٣٥ ، وكان روسو معجبا به .

La Fontaine ان كانوا قـــد قرءوا « حبقـــوق » (١) Habacuc
وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات كنت أعود من هناك محملا بمحصول وفير هو زادى من التسلية بعد الغداء بالمنزل فيما لو أمطرت السماء · وكنت أقضى بقية فترة الصباح في الذهاب مع المحصل وزوجه ومعنا تيريز ، لزيارة عمالهما ومحصولاتهما وكثيرا ما كنت اسهم فى العمل معهم بل وكثيرا ما وجدنى بعض أهالى « برن » الذين كانوا يأتون لرؤيتى معتليا أشجارا كبيرة وقد شد الى وسطى كيس كنت أملؤه بالفاكهة ثم أدليه الى الأرض بعد ذلك بواســـــطة حبل · وكان العمل الذى أقوم به فى الصباح ، والانشراح الذى يصحبه ، يجعلان الاســـتراحة عقب الغـــداء ممتعة جدا · ولكن حين كان الأمر يطول كثيرا بسبب اغراء الجو الجميل لم أكن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، وبينما كانوا لا يزالون جلوســا الى المائدة كنت أتسلل وحدى لألقى بنفسى فى قارب أقوده الى وســط البحيرة ، حين يكون الماء ساكنا ، وهناك ، وأنا مستلق بجسمى كله فى القارب وعيناى متجهتان الى السماء ، كنت أدع نفسى اروح واجىء مع التيار وفق هواه ، وكان ذلك يمتد أحيانا لساعات كثيرة أظل خلالهـا مستغرقا فى ألف حلم من أحلام اليقظة المبهمة ، الممتعة مع ذلك ، التى كانت فى رأيى أفضل مائة مرة من كل ما لقيته من أحلى المتع فيما يطلقون عليه مباهج الحياة وان لم يكن لها موضوع محدد أو ثابت · وكثيرا ما نبهنى غروب الشمس أن قد آذن وقت عودتى فأرانى وقد بعدت كثيرا عن الجزيرة مضطرا الى أن أسعى جاهدا للوصول قبل أن يرخى الليل سدوله · وكنت فى مرات أخرى أجد لذة فى محاذاة شطآن الجزيرة الخضراء التى كثيرا ما أغرتنى مياهها الصافية وظلها الرطيب بالاستحمام فيها ، وذلك بدلا من أن أوغل فى وســط الماء . ولكن أكثر تنقلاتى البحرية حدوثا كانت الذهاب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الصــغرى ، فأرسو هناك وأقضى بها فترة ما بعد الغداء طورا فى جولات محدودة جدا خلال أشجار الصـــفصاف والخوخ والفرزخ (نوع من الخوخ) وخلال الشجيرات من كافة الأنواع ، وتارة جالســـا فوق قمة كثيب رملى تغطيه الحشـــائش (النجيل) والنمام والزهور بل وجلبان الحية (السلة) والبرسيم التى يبدو أنها كانت قد بذرت عليه من قبل وهى مناسبة تماما لاقامة الارانب

(١) يخطىء روسو فيذكر حبقوق Habacuc وهو نبى له سفر في العهد القـــديم ، بدلا من باروش Baruch الذى كان لافونتـــين La Fontaine قـــد قرأ سفرا له فاعجبه وظل بعد ذلك يسأل كل من يصادفه اذا كان قد قرأ ذلك . وهى نكتة ادبية .

التى كان يمكنها أن تتكاثر هناك فى أماكن دون أن تخشى شيئا ودون أن تسبب ضرا لشىء • وقد أبديت هذه الفكرة للمحصل الذى طلب أن تستحضر من نيوشاتل أرانب ذكورا وأناثا • وقد توجهنا فى مظاهرة كبيرة : زوجته واحدى أخواته وأنا لنضعها فى الجزيرة الصـــغيرة حيث بدأت تعمرها قبل رحيلى وحيث كان من الممكن أن تتكاثر بغير شك لو انها استطاعت احتمال قسوة الشتاء • ولقد كان تأسيس تلك المستعمرة الصـــغيرة عيـــدا • ولم يكن قبطان الارجنـــوت (١) Argonautes بأكثر منى فخرا وأنا أقود منتصرا الجماعة والأرانب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الصغرى • وكنت ألحظ فى خيلاء أن زوجة المحصل التى كانت تخشى الماء الى أبعد حد وتحس بتأثير دواره عليها دائما ، قد أبحرت تحت قيادتى فى ثقة ، ولم تظهر أى خوف أثناء الرحلة • أما حين كان يضطرب ماء البحيرة بحيث لايسمح لى بالملاحظة، فاننى كنت أقضى فترة مابعد الظهيرة فى التجول بالجزيرة ألتقط الاعشاب من يمين ومن شمال جالسا طورا فى النواحى الأكثر بهجة الممعنة فى العزلة لأطلق فيها أحلامى كما يحلو لى ، وتارة فوق القلاع والقمم لأجول بعينى فى المناظر الرائعة الخلابة للبحيرة وشـطآنها التى تتوجهـا من ناحية الجبـال القريبة والتى تتفرج من ناحية أخرى على سهول غنية خصبة ، يستطيع البصر أن ينطلق خلالها حتى الجبال البعيدة التى تحدها والتى يميل لونها الى الزرقة •

وحين يقترب المساء كنت أهبط من فنن مرتفعات الجزيرة ، وأذهب راضيا للجلوس على حافة البحيرة ، على الحصى ، فى أى ملاذ خبىء ، وهناك كان هدير الأمواج واضطراب الماء وهما يهدئان من ثائرة حواسى ويطردان من نفسى أى اضطراب آخر ، يغرقانها فى حلم لذيذ ، كثيرا ماكان الليل يدهمنى خلاله دون أن أنتبه الى ذلك • وكان مد الماء وجزره ، وخريره المتصل ، الذى كان يعلو فى فترات متقطعة ، ويصك مسمعى ويبهر عينى دون توقف ويزيدان من الانفعالات الداخليـــة التى كان من دأب حلم اليقظة أن يخمدها فى نفسى ، ويكفيان لاشـــعارى بلذة وجودى دون أن أحس عناء التفكير • وكان يومض من آن لآخر خاطر باهت خاطف حول عدم استقرار أمور هذا العالم الذى كان سطح الماء يعكس صورته لى • ولكن سرعان ما كانت تتلاشى تلك الانطباعات الخفيفة فى الحركة الرتيبة المتصلة التى كانت تهدهدنى ، والتى كانت دون أن تتجاوب معها روحى

---

(١) الارجنوت Les Argonautes من أبطال الاساطير اليونانية الذين يزعم أنهم كانوا خمسين من الابطال تحت قيادة جازون Jason خرجوا فى غزوة وعادوا منها منتصرين ■

ـ تقيدني اليها لدرجة أنه حين كانت تدعوني الساعة والعلامة المتفق عليها لا أستطيع أن أنتزع نفسي من هناك دون مشقة ٠

أما بعد العشاء ، وحين تكون الأمسية جميلة فكنا نذهب كلنا سويا لنقوم بجولة على المرتفع كي نستنشق هواء البحيرة والنسيم العليل ، وكنا نستريح في الفضاء ، ونضحك ، ونتحدث ، ونغنى أغنية قديمة تفوق الأغاني الحديثة المعقدة ثم نذهب أخيرا لننام ، راضين عن يومنا ، لا نرغب الا في أن يصبح الغد على غراره ٠

وعلى هـــذا المنوال ، بغض النظر عن الزيارات المفاجئة الثقيلة ، قضيت وقتي في هذه الجزيرة خلال اقامتي بها . والآن فليقل لي الناس ما في ذلك من أشياء جذابة تثير في قلبي تلك الحسرات العميقة الرقيقة المقيمة ، حتى أنني بعد خمسة عشر عاما ، لا يزال من المستحيل أن أفكر في تلك الدار الحبيبة دون أن أستشعر كل مرة أنني انتقلت اليها مرة أخرى على أجنحة الرغبة ٠

وقد لاحظت خلال مراحل حياة طويلة أن الفترات التي تزخر بأحلى ما في الحياة من متع وأبلغ ما فيها من مسرات ليست مع ذلك هي التي تجذبني ذكراها وتؤثر في نفسي أبلغ الأثر .

فهذه اللحظات القصار من الهذيان والانفعال بكل مافيها من قوة ليست مع ذلك ، وبهذه القوة نفسها ، سوى نقط تنتشر جلية على خط الحياة ٠ انها لشديدة الندرة والسرعة بحيث لا تستطيع أن تنشىء حالة ما ، أما السعادة التي يأسى عليها قلبي فليس قوامها مطلقا لحظات عابرة وانما هي حالة بســـيطة ودائمة ليس لهـــا في ذاتها أية حيوية ولكن استمرارها يزيد في سحرها حتى لأجد فيها في نهاية الامر الســـعادة العظمى ٠

لكل شيء في هذه الدنيا دورته ، وليس بها من شيء يحتفظ بصورة مستمرة ثابتة ٠ ان مشاعرنا المتعلقة بالأمور الخارجية لابد وأن تنقضي وتتغير مثلها ـ وهي قائمة دائما ـ من أمامنا ومن ورائنا تذكرنا بالماضي الذي انقضى أو تنبئنا بالمستقبل الذي ليست هناك غالبا من ضرورة لوجوده ، فليس بها من ثبات يستطيع قلب المرء أن يتعلق به ، وليس لنا في هذه الحياة ، على ذلك ، سوى لذة تنقضي أما السعادة التي تدوم فانني أشـــك في أن تكون معروفة فيها ، ولا تكاد توجد ـ ونحن في أوج متعتنا ـ لحظة يستطيع القلب أن يقول لنا بحق « وددت لو أن هذه اللحظة ظلت أبدا ! »

وكيف يستطيع المرء أن يسمى سعادة ، حالة عابرة تخلفنا والقلبلايزال قلقا فارغا ، فتجعلنا نتحسر على شيء انقضى أو نظل نشتهى هذا الشيء فيما بعد ٠

ولكن ان كانت هناك حالة تجد النفس معها مستقرا وطيدا تستطيع أن ترتكز عليه بكليتها وتجمع فيه شتات كيانها دون أن تحس بحاجة لتذكر الماضى أو تقفز نحو المستقبل حيث لا يكون للزمن بالنسبة لها اى اعتبار وحيث يظل الحاضر قائما دون أن نلحظ مع ذلك استمراره أو أى أثر لتتابعه ودون أن نستشعر مع ذلك ، حرمانا أو استمتاعا ، لذة أو ألما ،رغبة أو رهبة، اللهم الا الاحساس بوجودناوبأنهذا الاحساس وحده يستطيع أن يملأ هذا الوجود كله ٠ وما دامت تلك الحال قائمة فان صاحبها يستطيع أن يسمى نفسه سعيدا : لا سعادة منقوصة ضئيلة ونسبية كتلك التى تصحب مباهج الحياة ، ولكن سعادة كافية مكتملة مطلقة لا تترك أى فراغ فى النفس يمكن أن تحس حاجتها الى ملئه ٠ تلك هى الحال التى كثيرا ما وجدتنى عليها فى جزيرة سان بيير خلال أحلام عزلتى سواء كنت مستلقيا فى قاربى الذى كنت أدعه يسير وفق هوى التيار أو جالسا على ضفاف البحيرة المضطربة ، وسواء أكنت فى مكان آخر على حافة نهير جميل أو جدول يهدر على الحصباء ٠

بم يستمتع المرء فى مثل تلك الحال ؟ بلا شيء خارج ذاته وبلا شيء اللهم الا ذاته وكيانه الشخصى وما دامت تلك الحال قائمة فان المرء يكتفى بنفسه شأنه فى هذا شأن الله ٠ ان الاحساس بالموجود مجردا من كل عاطفة أخرى هو فى حد ذاته احساس قيم بالقناعة والسلام يكفى وحده ليجعل من هذا الوجود شيئا محببا حلوا يستطيع عن طريقه أن ينأى بنفسه عن كل المشاعر الحسية الدنيا التى لا تفتأ تلهينا عنه وتفسد علينا حلاوته ٠ ولكن أغلب الناس الذين تستثيرهم شهوات مستمرة لايدركون تلك الحال الا قليلا، وما داموا لم يتذوقوها الا جزئيا فى لحظات قليلة فانهم لا يحتفظون منها سوى بفكرة غامضة مضطربة المعالم لا تدعهم يحسون سحرها ٠ بل انه قد لا يكون من الخير فى شيء — والامور على ما هى عليه — أن ينفروا بتلهفهم على تلك النشوة الحلوة ، من الحياة العاملة التى تملى واجبهم نحوها ضروراتها المتجددة دائما ٠ ولكن امرأ سيىء الطالع أقصى من المجتمع ولا يسعه أن يقدم هنا على أمر فيه نفع أو خير للاخرين أو لنفسه ، يستطيع أن يجد فى مثل هذه الحال تعويضا عما يستمتع به الناس، مما لا يمكن القدر والبشر أن يسلبوه اياه .

والحق أن ذلك التعويض لا تستطيع أن تحس به كل النفوس أو بتوافر في كل الاحوال فمن الضروري أن يكون القلب في سلام والا تعكر صفو هدوئه اية عاطفة ، ومن الضروري أن يكون هناك استعداد لدى الشخص الذي يحس به وهو اســتعداد ضروري .كذلك عندما تتزاحم الأمور من حوله • ولا يستلزم ذلك راحة مطلقة أو اضطرابا زائدا. ولكن حركة رتيبة معتدلة لا تكتنفها هزات أو فترات ركود • ان الحياة ليست سوى سبات ان خلت من الحركة • أما ان تفاوتت الحركة أو اشــتدت فانها توقظ ، وهي حين تنبهنا الى الأمور من حولنا تهدم سحر الحلم وتنتزعنا من صميم انفسنا لتضعنا فورا تحت وطأة القدر والبشر وتسلمنا الى الاحساس بشقوتنا . ان السكون المطلق يسلم للحزن . انه يعرض صورة الموت • واذن فعون الخيال الباسم أمر ضروري وهو يعرض بصورة طبيعية لأولئك الذين تنعم عليهم السماء به • ان الحركة التى لا تأتى من الخارج تعتمل اذن في داخل نفوسنا • حقا ان الراحة أقل ، ولكنهــا كذلك ، أشد امتاعا حين تلامس ــ كما يقال ــ خواطر خفيفة حلوة صفحة النفس دون أن تثير أعماقها • ولا يلزم منها الا ما يكفى ليتذكر الانسان نفسه متناسيا آلامه ، جميعا ، وهــذا النوع من الاحلام يستطاع تذوقه حيثما يمكن أن يكون المرء هانئا وطالما فكرت في أننى في « الباستيل » بل وفي « زنزانة » لا ترى عيني فيها شيئا ، كان يمكنني مع ذلك أن استغرق في أحلام جميلة •

ولكن يجب أن أعترف بأن هذا كان يحدث على صورة خير من هذه وأفضل في جزيرة خصبة منعزلة لها حدودها الطبيعية ومنفصلة عن بقية العالم حيث لا تعرض لى الا صور ضاحكة ، وحيث لا شيء يجعلنى أستعيد ذكريات محزنة ، وحيث كان المجتمع المكون من عدد قليل من السكان متآلفا طيبــا دون أن يكون ذا شان لدرجة يجعلنى أشغل باستمرار ، وحيث كان يمكننى أخيرا أن أستسلم طيلة اليوم دون ما عقبة أو شاغل لأعمال تتفق ومزاجى ، أو الى فراغ مترف • لقد كانت الفرصة مواتية من غير شك لحالم ، عرف كيف يتزود بأوهام حلوة وسط أشياء أشد تنفيرا فاستطاع أن يرتوى منها كما يحلو له وذلك باستجماعه كل ما أثر على حواسه فعلا • وكنت بعد أن أخرج من حلم طويل جميل وأشــهد نفسى محاطا بالخضرة والزهور والطيور ســـارحا بنظرى بعيدا في الشطآن الخيالية التى تحف امتداد المياه الشاسعة الصافية المتلألئة كنت اغذى خيالاتى بكل تلك الأشــياء المحببة • حين أرانى في نهاية الامر أرجع تدريجيا الى نفسى والى مايحيط بى لم أكن أستطيع أن أميز الحد الفاصل

بين الخيال والحقيقة ما دامت تسهم جميعا كذلك فى أن ترفع من قيمة الحياة الانطوائية المنعزلة التى كنت أحياها خلال تلك الاقامة الجميلة ألا ليتها تبعث من جديد ! ألا ليتنى أستطيع أن أقضى آخر أيامى فى تلك الجزيرة الحبيبة دون أن أبرحها أبدا أو دون أن أشهد بها البتة ايا من سكان القارة يستطيع ان يعيد الى ذكرى الكوارث من كل نوع التى طالما راق لهم أن يهيلوهـــا على منذ أعوام كثيرة ! اننى بذلك سرعان ما كنت أنســاهم الى الأبد ، ولكن ليس من شك فى أنهم ما كانوا لينســونى • ولكن ماذا كان يهمنى ما داموا لن يجدوا سبيلا لاقلاق راحتى ؟ اننى وقد تخلصت من كل شهوات الدنيا التى هى وليدة صخب الحياة الاجتماعية سوف تتســامى روحى مرارا متخطية ذلك الجو وتتصل سلفا بالادراك العلوى الذى تأمل فى الاستزادة منه فى مدى قصير • واننى لأعلم أن الناس سوف يحولون دون أن أستمتع بمثل هذا الملاذ الهنىء الذى لم يشاءوا أن يدعونى فيه . ولكنهم لن يمنعونى على الأقل من أن أنتقل اليه يوميا على أجنحة الخيال ، ومن أن أتذوق فيه مدى بضع ساعات نفس اللذة كما لو كنت لا أزال أقيم به • وان أمتع ما كنت أفعله هناك هو ان أحلم كما يروق لى . او لست أفعل نفس الشىء حين أحلم بأننى هنــاك ؟ بل اننى أفعل أكثر من ذلك • اننى حين يجذبنى حلم معنوى يسير على وتيرة واحدة أردف له صورا رائعة تبعث فيه الحياة ، وغالبــا ما كانت موضوعاتها تنفلت من حواسى أثناء انتشائى • أما الآن فكلما ازداد حلم يقظتى عمقا •• صورها لى بحيوية أكثر ، واننى غالبا ما أحس بنفسى محوطا بها مستمتعا بلذة أكبر مما عليه عندما كنت هناك فى الواقع ، والمؤسف فى الأمر أنه كلما فتر الخيال كان ذلك يتأتى فى جهد أشــد ولا يستغرق طويلا • وا أسفاه ! ان المرء ليشعر أنه أكثر ما يكون رزوحا بجسده حين يشرع فى التجرد منه !

الجولة السادسة

ليست هناك أية حركة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا فى قلبنا اذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بحثا عن ذلك التعليل ٠

بالأمس أثناء مرورى بالطريق الجديد ذاهبا للاستعشاب على ضفة « البييفر » Bièvre فى ناحية جنتيى Gentilly انعطف يمينا مقتربا من سور دانفير d'Enfer وعندما توغلت مبعدا فى الحقول توجهت عن طريق « فونتينبلو » Fontainebleau كى أصل الى المرتفعات التى تجاور ذلك النهر . ولم يكن ذلك السير ليعنى شيئا بالمرة فى حد ذاته ، ولكن حين تذكرت أننى قمت بنفس الدورة تلقائيا مرارا من قبل فقد بحثت عن الدافع عن ذلك فى نفسى ، ولم استطع أن أمنع نفسى من الضحك بعد أن تبينته .

فى ركن من الطريق ، عند مخرج سور دانفير D'Enfer تقف يوميا فى فصل الصيف امرأة تبيع الاعشاب الطبية tisane وأرغفة الخبز الممتاز ولهذه المرأة ولد صغير لطيف جدا لكنه أعرج يروح يلتمس الاحسان من المارة بشيء من الظرف وهو يتعارج على مكازيه ٠ وكان لى بهذا الغلام الصغير بعض المعرفة ٠ ولم يكن يفوته كلما مررت به أن يتقدم ليحيينى تحيته البسيطة التى كانت تتلوها دائما هبتى الصغيرة وقد سرتنى رؤيته فى المرات الأولى فكنت أمنحه بارتياح كبير ، وظللت افعل ذلك بعض الوقت بنفس السرور بل كان يلذ لى الى جانب ذلك فى أغلب الأحيان أن أدفعه الى ثرثرته الصغيرة التى كانت تروقنى ٠

وقد تحولت ــ ولست أدرى كيف تحولت ــ هذه المتعة التى غدت عادة بالتدريج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه ، وخاصة بسبب تلك الخطبة الافتتاحية التى كان لابد من الاستماع اليها ، والتى لم يكن يفوته أبدا أن يدعونى فيها بالسيد روسو ليظهر أنه كان يعرفنى معرفة كافية ، مما كان يجعلنى على العكس من ذلك أدرك أنه لم يكن يعرفنى أكثر ممن لقنوه ذلك . ومنذ ذلك الحين كنت امر من هناك

اقل رغبة ، وأخيرا اعتدت تلقائيا أن أنعطف في أغلب الاحايين حين كنت أقترب من ذلك الحاجز • ذلك ما اكتشـــفته وأنا أمعن الفكر فيه لأنه لم يكن قد عرض لذهني بوضوح شيء من هذا كله حتى ذلك الوقت • وقد ذكرتني تلك الملاحظة على التوالى بكثيرات أخر أيدت لى تماما أن الدوافع الحقيقية الأولى لمعظم تصرفاتى لم تكن كذلك واضـــحة بالنسبة لى كما تصورتها طويلا • اننى أعرف وأدرك أن عمل الخير هـــو أقصى مراحل السعادة الحقة التى يستطيع أن يتذوقها القلب البشرى • ولكن مر دهر طويل منذ أن بوعد بين تلك السعادة وبينى ، ولا يستطيع من له مثـــل حظى المنكود أن يأمل فى أن يفيد مختارا موفقا من عمل واحد طيب حقا • ومادام قصارى جهد أولئك الذين يرسمون خطوط قدرى آلا يكون لى الا المظهر الباطل الخداع فان حافزا الى الفضيلة لم يكن مطلقا سوى خدعة تقدم لى لاجتذابى نحو فخ يراد اطباقه على • اننى أدرك ذلك ، اننى أدرك ان الخير الوحيد الذى هو فى مقدورى منذ الآن هو أن أمتنع عن العمل خشية ان أسيء دون قصد ودون دراية .

ولكن كانت هناك فترات أكثر ســـعادة كنت أستطيع خلالها أحيانا - مستجيبا الى خلجات قلبى - أن أدخل السرور الى قلب آخر ، وانى لأدين لنفسى بالشهادة المشرفة وهى أنه فى كل مرة استطعت أن أتذوق هذه المتعة وجدتها أعذب من أى متعة أخرى • كان هذا الميل قويا وصادقا وطاهرا ، ولم يحدث البتة ان نقصه شيء فى اعمق كوامن نفسى ، ومع ذلك فغالبا ما أحسست بثقل أعمالى الخيرة بسبب سلسلة الواجبات التى كانت تستتبعها ، ومن ثم فقد اختفت المتعة ولم أجد فى استمرار الرعاية نفسها - التى كانت تفتننى فى أول الأمر - سوى ضيق يكاد يكون غير محتمل • كان كثير من الناس يلجأون الى خلال أيام رخائى القصيرة ، ولم يحدث أبدا فى كل الخدمات التى استطعت أداءها لهم أن صددت أيا منهم ولكن على أثر تلك الحسنات التى كنت أسديها بانشراح كانت تنشـــأ سلسلة التزامات متتابعة لم أكن أتوقعها ولم أعد أستطيع التخلص من نيرها • لم تكن خدماتى الأولى فى نظر أولئك الذين كانت تسدى اليهم سوى عربون لما يجب أن يتلوها من خدمات ، وما ان كان يتسلط على بائس ما من أجل معروف أسدى اليه حتى ينتهى أمره عندئذ ، وتصبح هـــذه الحسنة الأولى - الخالصة الصادرة عن طواعية - حقا مطلقا لكل من يحتمل أن يحس الحاجة اليها فيما بعد دون أن يكفى لاعفائى منه ، حتى عدم القدرة على أدائه • وهكذا كانت متع بالغة الروعة تستحيل بالنســـبة الى الى استعباد فادح فيما بعد •

ومع ذلك فلم تبد لى تلك القيـــود ثقيلة جدا ، فطالما كان الناس يجهلوننى كنت أعيش مغمورا ، ولكن ما ان اعلنت كتاباتى عن شخصى ــ وهو خطأ خطير ما فى ذلك من شك ، ولو أن رزاياى قد كفرت عنه وأكثر ــ حتى أصبحت منذ ذلك الوقت المكتب العام الذى يراسله المعوزون ، او من يزعمون انهم كذلك ، والمغامرون الذين يبحثون عن مغفلين ، وكل من يرغبون فى فرض سلطانهم على بوسيلة أو بأخرى تحت ستار الثقة الكبيرة التى كانوا يتظاهرون بأنهم يولوننى اياها . اذ ذاك أمكننى أن ادرك أن كل ميول الطبيعة ــ دون أن يستثنى منها عمل الخير نفسه ــ وسواء انطوت عليها جوانح أصحابها أو هم أتبعوها فى المجتمع دون حذر . وكما اتفق ، فانها تتغير فى طبيعتها بل غالبا ما تصبح ضارة بقدر ماكانت نافعة فى وجهتها الأولى ، كم من تجارب قاسية غيرت شيئا فشيئا من استعداداتى الاولى ، أو بالأحرى ، علمتنى وهى تحتجزها فى نهـــاية الأمر داخل حدودها الحقيقية ، أن أتبع ــ بعدم تبصر أقل ــ ميلى لعمل الخير حين لا يكون من شأنه سوى اذكاء روح الشر عند الآخرين .

ولكننى لا آسف مطلقا على تلك التجارب نفسها ما دامت قد زودتنى عن طريق التفكير ، بأضـــواء جديدة من أجل معرفتى بذاتى وبالدوافع الحقيقية لسلوكى فى ألف من الملابسات التى كثيرا ما خدعت فيها . ولقد وجدت أنه ــ لكى أستمتع باسداء الخير ــ كان يلزمنى التصرف بحرية دون اكراه ، وأنه ، لكى أسلب كل لذة من وراء عمـــل طيب كان يكفى أن يصبح هذا العمل التزاما ، ومن ثم كان ثقل الالتزام يقلب أحلى المتع عبئا . وكمـــا قلت فى كتاب الـ « اميل » Emile (١) على ما أعتقد ، أننى كان من الممكن أن أعد لدى الأتراك زوجا فاشلا حين يدعوهم «المنادى» الى أن يؤدوا واجباتهم كأزواج .

ذلك هو مايعدل كثيرا الرأى الذى كونته منذ زمن بعيد عن فضائلى الشخصية لأنه ليس من الفضيلة فى شىء أن ينساق المرء وراء ميوله ، وأن يتفانى فى الخير عندما تدفعنا هذه الميول الى ذلك . ولكن تلك الفضيلة تمكن فى التغلب عليها حين يتطلب الواجب ذلك لنؤدى ما يمليه علينا ، وهذا هو أقل ما استطعت عمله كرجل مجتمع . اننى وقد ولدت حساسا طيبا ، تنطوى نفسى على الرحمة الى حد الضعف ، وأستشعر انتشـــاء

---

(١) لم يقل روسو ذلك في اميل Emile ولكن في « الاعترافات Les Confessions » عند الحديث عن آنسة من الراهبات كان يعطيها دروسا في الموسيقى . وأما هذا القول الذى لا أساس له من الصحة اطلاقا فهو يدل على جهل فاضح من روســـو بتعاليم الديانة الاسلامية .

الروح بكل ما يتصل بالكرم ، غدوت انسانا خيرا ، معينا للناس ، عن ميل ، بل وعن شغف ، ما دام الأمر لا يهم سوى قلبى • وقد كنت أصبح خير الناس وأكثرهم رحمة اذا ما قدر لى أن أكون أقواهم • ولكي أخمد فى نفس كل رغبة فى الانتقام ، كان يكفينى أننى أستطيع أن أنتقم • وكان من الجائز أن أكون عادلا كذلك بغير عناء ، وان تعارض ذلك مع مصلحتى الخاصة ولكننى لم أكن لأستطيع أن أقنع نفسى بأن أكون كذلك ضد مصلحة من كنت أعدهم أعزاء على • وحين كان يتعارض واجبى مع قلبى فانه نادرا ما كانت تكتب الغلبة للأول اللهم الا اذا كان الأمر لا يتطلب سوى الامتناع من جانبى ، وعندئذ ، أكون قويا فى أغلب الأحيان • وأما التصرف ضد ميلى فكان مستحيلا دائما بالنسبة لى • وسواء كان الأمر صادرا عن الناس أو الواجب أو الضرورة حين يصمت قلبى ، فان ارادتى تظل صماء ولا أعود قادرا على الطاعة • اننى أرى الشر الذى يتهددنى ، وأدعه يأخذ طريقه الى بدلا من أن أتحرك لتوقيه ، واننى لأبدأ أحيانا فى جهد ، ولكن هذا الجهد يرهقنى ويستنزف قواى بسرعة فائقة فلا أقوى على الاستمرار . وفى كل ما يتصوره العقل يستحيل على أداء ما لا أجد متعة فى القيام به •

وهناك ما هو أكثر من ذلك : فالاكراه ، وان اتفق مع رغبتى ، كفيل بالقضاء عليها وتحويلها الى نفور ، بل والى اشمئزاز مهما كان تجاوزه لحد العنف ضئيلا • وهذا هو ما يجعل العمل الطيب الذى يقوم به الانسان أمرا شاقا ، وهو ما كنت أؤديه طواعية حين لم يكن يفرضه أحد • ان عملا خيرا بغير مقابل مطلقا هو بالتأكيد عمل أرحب بأدائه ، ولكن حين يتخذ صاحب هذا العمل منه سندا كى يفرض استمراره والا تعرضت لكراهيته ، وحين يلزمنى أن أكون صاحب فضل عليه الى الأبد لأننى وجدت لذة فى ذلك فى أول الأمر ، حينئذ يبدأ الضيق وتتلاشى اللذة ، ويكون ما أفعله حين أستسلم ، ضعفا وعارا كريها ، لا مكان فيه من بعد للرغبة الصادقة ، وبدلا من أن أتهلل لما أفعل أعتب على نفسى فى سريرتى لأننى فعلت الخير مكرها •

اننى أدرك أن هناك نوعا من العقود ، بل هو أكثرها قداسة : وهو المبرم بين المحسن وبين المحسن اليه ، وهو نوع من أنواع الشركة يكونها الأول مع الثانى ، أشد أحكاما مما يربط بين الافراد عامة ، ولئن التزم المحسن اليه ضمنيا بالإعتراف بالجميل فان المحسن يلتزم كذلك بأن يحتفظ للآخر ـــ طالما هو لا يبدو غير أهل له ـــ نفس الرغبة الصادقة التى سبق أن أبداها نحوه ، وأن يجدد له نفس الافعال فى كل المرات التى

يستطيع فيها ذلك والتى يطلب منه أداؤها . وهذه ليست شروطا صريحة، ولكنها آثار طبيعية للصلة التى قامت بينهما . وان من يرفض للمرة الأولى أن يسدى خدمة يطلب اليه أداؤها بغير مقابل لا يخول حق الشكوى لمن رفض أن تسدى اليه ، ولكن من يأبى فى حالة مشابهة أن يتفضل على نفس الشخص بمثل ما تفضل عليه به من قبل فهو يخيب اذا أملا سمح له أن يراوده بل هو يخلف ويخيب أمنية ولدها فى نفسه . ان المرء ليحس فى هذا الرفض شيئا من الظلم بل من الامعان فى القسوة أكثر مما فى الآخر ، ولكنه مع ذلك ليس الا نتيجة استقلال يحبه القلب ولا يستطيع ان يتنازل عنه بغير جهد . اننى حين ارد دينا فان هذا واجب أؤديه ، وحين أعطى منحة فانما هى متعة أوفرها لنفسى ، واذن فالنتيجة فى أداء المرء لواجباته هى من تلك المتع التى يبعثها الاعتياد وحده لممارسة الفضيلة: أما تلك التى تأتينا من الطبيعة مباشرة فلا تتسامى الى ذلك الحد .

لقد تعلمت بعد تلك التجارب المريرة أن أتبصر من بعيد عواقب استجابتى لنزعاتى الأولى وغالبا ما امتنعت عن أداء عمل خير كنت أحس رغبتى فيه وقدرتى على أدائه متخوفا مما سوف يفرضه على من سلطان ان أنا استسلمت اليه بغير روية . ولم أستشعر تلك الرهبة دائما بل على العكس من ذلك كنت أتعلق فى شبابى بأعمالى الخيرة وغالبا ما كنت أحس كذلك أن أولئك الذين كنت أسدى اليهم معروفا انما كانوا يتعلقون بشخصى عرفانا بالجميل أكثر منه سعيا وراء مصلحة . ولكن الامور قد تغير وجهها تماما فى هذه الناحية ، كما فى غيرها ، بمجرد أن بدأت المصائب تحل بى ، وقد عشت منذ ذلك الوقت فى حقبة جديدة لاتشابه الاولى فى شىء ، وقد اعترت مشاعرى تجاه الآخرين تغيرات وجدت صداها لديهم . ان نفس الاشخاص الذين لقيتهم على التوالى فى هذين الجيلين ، على اختلافهما ، قد تشابهوا جدا ــ على حد القول ــ ببعضهم البعض على التوالى كذلك ، فمن صادقين مخلصين كما كانوا فى أول الأمر أصبحوا ما هم عليه الآن ، شأنهم فى ذلك شأن الآخرين جميعا . وفى هذا وحده تغير الزمن ، وتغير الناس كما تغير ... ايه .. كيف أستطيع أن أحتفظ بنفس المشاعر نحو أولئك الذين لقيت فيهم عكس ما ولد تلك المشاعر ... اننى لا أكرههم قط لأننى لا أعرف كيف أكره ... ولكننى لا أستطيع منع نفسى من الاحتقار الذى يستحقونه ولا أن اردها عن اظهاره لهم .

ربما ــ دون أن الحظ ذلك ــ تغيرت أنا نفسى أكثر مما يجب : وأى

طبع يستطيع أن يثبت دون أن يتغير وهو يمر بحالة مثل حالتي ؟ انني ، وقد اقنعتني عشرون سنة (١) من التجربة بأن ما غرسته الطبيعة في قلبي من استعدادات طيبة قد تحول ـ بسبب ما خط لي في لوح القدر وبسبب من يتحكمون في ـ الى اضرار بنفسي أو بالغير ، لم أعد أستطيع أن انظر الى أى عمل خير يعرض على أداؤه الا كشرك ينصب لي ويخفي تحته شرا ما . وانني لأدرك أنه مهما يكن أثر العمل فان جزائي عن نيتي الطيبة لن يكون أقل . أجل .. ان هذا الجزاء قائم هناك دائما من غير شك ولكن السحر الكامن فيه لم يعد موجودا . وما ان ينقضي ذلك الحافز حتى استشعر عدم المبالاة والبرودة في داخل نفسي ، وحين يتأكد لي انني بدلا من أن أقوم بعمل نافع حقا لم أفعل سوى مايفعله كل مغفل فان ثورة الكرامة ـ مضـــافا الى انكار العقل ـ لا تبعث في الا نفورا وعنادا حيث كان من المحتمل أن أكون ممتلئا حمية وحماسا في حالتي الطبيعية .

هناك ألوان من المحن تسمو بالروح وتقويها ، ولكن من بينها كذلك ما يحطمها ويقضي عليها ، كتلك التي أنا فريسة لها . فمهما يكن قليلا ما في محنتي من خميرة فاسدة فان هذا القدر كان كفيلا بأن يجعلها تختمر الى أقصى حد فتهيجني ، ولكنها لم تجعل مني الا عدما ، وانني لأمتنع عن التصرف حين لا أستطيع أن أقدم خيرا لنفسي أو للآخرين ، وتلك الحال التي لا تستمد براءتها الا من كونها اضطرارية ، تجعلني أحس شيئا من الارتياح في الاستسلام كلية ، دون لوم لميلي الطبيعي ، ولا شك في أنني أذهب بعيدا جدا ما دمت أتحاشى فرص التصرف حتى حيث لا أرى سوى خير يستطاع أداؤه ، ولكنني ، وقد ثبت لي أن الناس لا يدعونني أرى الأمور كما هي عليه ، فانني أمتنع عن الحكم بالظواهر التي يضفونها على تلك الامور . ومهما يكن الزيف الذي يحجب دوافع التصرف فانه يكفي ان تكون هذه الدوافع في متناول يدي حتى أتأكد من أنهم مخادعون.

ويبدو قدري وكأنما نصب لي منـــذ طفولتي الشرك الأول الذي يسر لفترة طويلة وقوعي في الشراك الأخرى جميعا . لقد ولدت وأنا أشـــد الناس ثقة ، ولم يحدث مدى أربعين حولا كاملا أن غرر بتلك الثقة مرة واحدة ، أما وقد ألقى بي فجأة بين طراز آخر من الناس ومن الامور فقد سقطت في ألف كمين دون أن ألحظ مطلقا من بينها واحدا ، وكانت عشرون عاما من التجربة تكفي بالتأكيد لتلقي الاضواء على مصيري . وما أن اقتنعت أن ليس وراء اسرافهم في منافقتي سوى كذب وزيف ، حتى تحولت سريعا

---

(١) يشير روسو هنا الى خصامه مع ديدرو عام ١٧٥٧ .

الى النقيض ذلك لأنه ما أن يخرج المرء عن طبيعته حتى لا تعود هنـاك حدود تعوقنا • ومنذ ذلك الوقت اشمأزت نفسى من الناس ، وأما ارادتى التى تتنافس وارادتهم فى هـــذا المضمار فانها لا تزال تقف بى بعيدا عنهم أكثر مما تفعل حيلهم جميعا •

ومهما يفعلوا فلن يستطيع هذا النفور أبدا أن يبلغ حد الكراهية • اننى حين أفكر فى التبعية التى وضعوا أنفسهم فيها بالنسبة لى مستهدفين أن تكون حالى بالنسبة لهم كذلك فانهم بهذا يستدرون شفقتى الحقة، ولئن لم أكن تعسا فانهم لكذلك ، وفى كل مرة أرجع الى نفسى أجدهم يستحقون الرثاء دائما • ان الزهو قد يخالط كذلك هذه الاحكام ، فاننى لأحس بأننى أسمى منهم حتى أكرههم • ان كل ما يستطيعون على الأكثر أن يثيروه فى نفسى من اهتمام هو احتقارى لهم ، ولكن لن يبلغ ذلك حد الكراهية أبدا • وأخيرا ان حبى لنفسى من القوة بحيث لاأستطيع معه أن أستشعر الكراهية نحو كائن ما والا فاننى أكون كمن يحصر ويضغط كيانه بينما أنا اود لو وسع الكون كله •

اننى أفضل أن أهرب منهم عن أن أكرههم • ذلك لأن مرآهم يثير فى حواسى ، وعن طريقها فى قلبى ، انطباعات تجعلها ألف نظرة قاسـية شاقة على نفسى ، ولكن لايلبث الضيق أن يتوقف بمجرد أن تختفى دواعيه وانى لأشغل نفسى بهم على الرغم منى تماما فى حضـــورهم ، ولكن ذلك لا يحدث أبدا بتذكرى اياهم ، فعندما لا أراهم يفقدون فى نظرى وكأنما لم يكن لهم وجود مطلقا •

انهم لا قيمة لهم كذلك بالنسبة لى الا فيما يتصل بى من أمور ، ذلك أنهم فيما يقوم بينهم من علاقات يستطيعون كذلك أن يثيروا اهتمامى وأن يؤثروا فى كما قد تؤثر فى شخصيات مسرحية أشهدها • لقد كان من الضرورى ــ كى تكون العدالة غير ذات بال بالنسبة الى ــ أن يقضى على كيانى المعنوى • ان منظر الظلم والشر لا يزال كذلك يدفع الدم الى الغليان فى عروقى غضبا ، أما الأعمال الصالحة التى لا ارى فيها أثرا للعنف أو المباهاة فانها تجعلنى دائما أهتز فرحا ، وتنتزع كذلك الدموع الرقيقة من عينى • ومع ذلك ، فانه يجب ان أشهد تلك الافعال وأن أقدرها قدرها بنفسى ، ذلك انه بعد ما حدث لى شخصيا لا بد وأن أغدو مخبولا لأعشق ــ فى أى أمر من الامور ــ آراء الناس ولأصدق أى شىء على عهدة الآخرين •

لو أن وجهى وملامحى كانت مجهولة تمـاما لدى الناس ، كخلقى وطبعى ، اذن لعشت بينهم كذلك فى غير مشقة ولكان من الجائز أن تروق

لى صحبتهم ما دمت غريبا عنهم تماما • لقد كنت أحبهم .كذلك لو لم يشغلوا أنفسهم بى ان أنا استسلمت دون ضغط لميولى الطبيعية • لقد كنت أسبغ عليهم رعاية شاملة غير مغرضة اطلاقا ولكن دون أن أنشىء علاقة خاصة ودون أن أخضع لأى التزام ، وكنت اقدم لهم — بكامل حريتى وعن طواعية — كل ما يلقون عناء كبيرا فى تقديمه مدفوعين بأثرتهم مكرهين على أدائه بحكم شرائعهم جميعا •

لو أننى ظللت حرا ، منسيا ، منعزلا — كما خلقت لأكون — لما فعلت الا خيرا ، ذلك لأنه ليست بقلبى نواة لأى ميل للأذى • ولئن كنت محجوبا قديرا مثل الله لأصبحت خيرا كريما مثله • ان القوة والحرية هما اللتان تخلقان الرجال المتازين ، أما الضعف والعبودية فلم يخلقا الا أشرارا • ولو كنت أملك خاتم « جيجيس » (١) Gygès لخلصنى من تبعيتى للناس ولجعلهم تابعين لى . اننى كثيرا ما تساءلت فى « قصوزى التى أبنيها على الرمال » فيم كنت أستخدم ذلك الخاتم ، ذلك لأن هنا يكون اغراء اساءة استعماله ممكنا • واذا ما أصبح فى مقدورى أن أشبع رغباتى وأن اقوم بعمل كل شىء دون احتمال أن يخدعنى أحد فماذا كنت أستطيع أن أشتهى بعد ؟ شيئا واحدا : هو أن أرى القلوب جميعا راضية • ان مظهر الهناءة الشاملة هو وحده الذى كان من الممكن أن يمس قلبى بحنان دائم ، كما أن الرغبة الحائرة فى أن أسهم فى ذلك كانت عاطفتى المقيمة دواما • ولما كنت عادلا دائما بغير تحيز ، خيرا دائما فى غير ضعف ، فاننى كنت خليقا أن أجنب نفسى الشكوك العمياء والكراهية المقيتة ، لاننى وقد رأيت الناس على ما هم عليه ، مستطلعا فى يسر ما فى أعماق قلوبهم قلما كنت أجد من بينهم من بلغوا من اللطف حدا يستحقون معه كل محبتى ، أو بلغوا من القبح حدا يستحقون معه كراهيتى ، وأن نزعة الشر فيهم ذاتها تهيئنى للاشفاق عليهم لمعرفتى الأكيدة بالضر الذى يصنعونه بأنفسهم وهو يودون اصابة الغير به • ربما كنت أستطيع فى لحظات المرح أن أعبث عبثا صبيانيا فى بعض الاحايين باتيانى أمورا معجزة ، ولكن ، لما كنت لا أستهدف أبدا أية منفعة شخصية وليست هناك من شريعة لدى سوى ميولى الطبيعية ، فاننى كنت اقوم بألف عمل من أعمال الرحمة والانصاف مقابل بعض الأفعال التى تتسم بالعدالة الصارمة • وكرسول للعناية الالهية وكناشر لقوانينها — على قدر استطاعتى — كنت أقوم بعمل

(١) جيجيس Gygès هو راع صغير من ليديا (من اقاليم آسيا الصغرى قديما) عاش فى القرن السابع قبل الميلاد كان له خاتم سحرى يستطيع بواسطته أن يصبح غير مرئى واستطاع بذلك أن يصل الى العرش وأن يؤسس اسرة حاكمة هناك •

معجزات أكثر حكمة وأشد نفعا من معجزات الاسطورة الذهبية Légende dorée (١) وقبر القديس ميدار Saint-Médard (٢) .

ليست هناك سوى ناحية واحدة كان من الممكن أن تدفعنى الى الدخول ، متخفيا ، الى أى مكان للبحث عن مغريات وبما ضعفت مقاومتى ازاءها . ولئن دخلت مرة فى تلك الطرق المضللة فترى الى أين تؤدى بى ؟ انه يكون من الجهل المطلق بالطبيعة وبذاتى أن أتعلل بأن تلك التسهيلات لم تكن لتغرينى مطلقا ، أو أن العقل كان يستوقفنى عند ذلك المنحدر المشئوم . ومع ثقتى فى نفسى فى كل أمر آخر ، الا أننى ضيعت بسبب ذلك وحده . ان من ترتفع به قدرته فوق مستوى البشر يجب أن يكون فوق مواطن الضعف الانسانى ، والا فان هذا الفيض من القوة لن يجدى فى الواقع الا فى النزول به الى مستوى أدنى من مستوى الآخرين ومن المستوى الذى كان من الجائز أن يلتزمه هو نفسه ان ظل مساويا لهم .

وبعد أن تمعنت جيدا فى الأمر كله، فاننى أعتقد اننى أفعل خيرا لو اننى ألقيت بخاتمى السحرى قبل أن يدفعنى الى الاقدام على حماقة ما . ولئن كان الناس يصرون على رؤيتى على صورة تخالف تماما ما أنا عليه ، واذا كان مظهرى يثير ظلمهم فمن الواجب التهرب منهم كى أحجب عنهم هذا المنظر لا أن أتوارى بينهم . انهم هم الذين يجب أن يختفوا من أمامى وأن يحجبوا عنى حيلهم وأن يفروا من ضوء النهار وأن يغوصوا فى الأرض كالخلد . وأما بالنسبة لى فلئن رأونى ــ ان استطاعوا الى ذلك سبيلا ــ كان ذلك خيرا ، ولكن هذا مستحيل بالنسبة لهم فانهم لن يروا أبدا فى مكانى سوى الـ « جان جاك » الذى صاغوه لأنفسهم وشكلوه وفق هواهم ليكرهوه كما يشاءون ، واذن ، فاننى أكون مخطئا لو أننى تأثرت من الطريقة التى يروننى بها ، اذ لا يجب أن أعيرها أى اهتمام حقيقى ، لاننى لست أنا من يرونه على هذه الصورة .

ان النتيجة التى أستطيع أن أستخلصها من هذه الخواطر جميعا هى اننى لم أكن أبدا خليقا حقا بالمجتمع المتمدين حيث ليس هناك سوى

---

(١) الاسطورة الذهبية La Légende dorée هى مجموعة ضخمة عن حياة القديسين ألفها « جاك دولوراجين Jacques de Voragine » فى القرن الخامس عشر

(٢) يقصد بمقبرة سان ميدار Saint-Médard «المقبرة التى دفن بها الشماس «باريس» المتوفى فى عام ١٧٢٧ ــ وكان الباريسيون يتوجهون اليها لاعتقادهم فى امكان شفاء المرضى عن طريق صاحبها . وقد أغلقت المقبرة بامر السلطات العامة فى عام ١٧٣٢ .

الحرج والالتزام والواجب وان طبعى الاستقلالى جعلنى عاجزا على الدوام عن الرضوخ اللازم لمن يريد أن يعيش بين الناس • وما دمت أتصرف فى حرية فانني خير لا أفعل الا خيرا . ولكن ما أن أحس بالتسلط : تسلط الحاجة أو تسلط الناس ، حتى أغدو متمردا أو بالأحرى ، جموحا : وعندئذ أكون لا شيء • حين يكون لزاما على أن أفعل ما يناقض رغبتى فانني لا افعله البتة مهما يحدث ، بل انني لا افعل كذلك مايطابق رغبتى نفسها لأنني ضعيف • انني أمتنع عن العمل ذلك لأن كل ضعفى فى مباشرته ، ولأن كل قواى سلبية ، ولان كل زلاتى ناجمة عن الاحجام ، ونادرا عن الاقدام • انني لم أعتقد مطلقا أن حرية المرء تعنى انجاز ما يود ولكنها فى الا يصنع مطلقا مايريد أن يصنعه ، ذلك هو ما طالبت به دائما وما التزمته غالبا وما كنت من أجله منددا بى لدى معاصرى : ذلك إنه بالنسبة لهم كعاملين نشيطين طموحين ، كارهين الحرية لدى الغير ، غير راغبين فيها بالمرة لأنفسهم ، ماداموا يفعلون أحيانا ما يشاءون أو بالأحرى يسيطرون على مشيئة الآخرين ••• يضيقون طيلة حياتهم بأداء مايكرهون ولا يتورعون عن الاستعباد مستهدفين السيطرة . واذن فان خطأهم لم يكن فى أن يبعدونى عن المجتمع كعضو لا جدوى منه بل أن ينبذونى كعضو خبيث ، ذلك لأننى قلما فعلت الخير وأنا مقر بذلك ، أما عن الشر ، فانه لم يدخل فى نطاق رغبتى فى حياتى ، وانني أشك فى أن هناك انسانا فى العالم اقترف منه حقا أقل مما فعلت •

الجولة السابعة

لم يكد يبدأ سجل أحلامى الطويلة حتى احسست بها تشارف خاتمتها وتتبعها متعة اخرى تستغرقنى حتى لتسلبنى فترة الحلم . انتى لأستسلم لها فى ولع مفرط يضحكنى أنا نفسى حين أمعن التفكير فيها ، ولكننى لا اقلل من استسلامى لها ، ذلك لاننى — فى الوضع الذى انا به — لم تعد لدى قاعدة اخرى للسلوك اللهم الا ان أتابع ميولى فى كل الامور بغير اكراه . انى لا أملك شيئا حيال قدرى ، وليست لى سوى ميول بريئة ؛ ومادامت آراء الناس ليست شيئا بالنسبة لى منذ اليوم فان الحكمة نفسها تقتضى ان اقوم بعمل ما يرضينى فيما لا يزال فى متناولى ، سواء أكان ذلك أمام الناس أم بينى وبين نفسى ، دون أن ألتزم قاعدة سوى ما يروق لى ، ودون معيار سوى ما بقى لى من قوة ضئيلة . أما بعد ، فهأنذا والاعشاب الجافة كل زادى ودراسة النبات كل شغلى . أما وقد تقدمت بى السن فاننى كنت قد تلقيت الانطباعة الاولى لعلم النبات فى سويسرا بالقرب من العالم ديفرنوا d'Ivernois وكنت قد جمعت الأعشاب خلال أسفارى بتوفيق يكفى لالمام لا بأس به بمملكة النبات . أما وقد جاوزت الستين ، وأقيم فى باريس ، وقواى آخذة فى الاضمحلال بحيث تمنعنى من ممارسة الاستعشاب على نطاق واسع ، ومع هذا متفرغ الى حد كبير لكتابة الموسيقا حتى لا أغدو فى حاجة لأن أشغل بعمل آخر ، فقد هجرت هذه المتعة التى لم تعد ضرورة بالنسبة لى . لقد بعت معشبى وبعت كتبى قانعا بأن أعاود أحيانا مشاهدة النباتات الشائعة التى كنت أعثر عليها حول باريس خلال تجولاتى . وخلال هذه الفترة كاد يمحى من ذاكرتى تماما القليل الذى كنت أعرفه ، بل انه انمحى فى سرعة تفوق ما استغرق نقشه عليها .

وفجأة ، وبعد أن انقضت خمسة وستون عاما من عمرى محروما من الذاكرة الضئيلة التى كنت أستمتع بها ومما كان متبقيا لدى من قوى للتجول فى الريف بغير مرشد وبغير كتاب وبغير حديقة وبغير معشب ،

أراني وقد عاودني هذا التهوس ولكن في عنف أشد .كذلك مما انتابني عندما استسلمت له في المرة الاولى • هأنذا مشغول جديا بمشروع حكيم هو استظهار مؤلف « موري » Murray (١) عن المملكة النباتية Regnum vegetable، والتعرف الى كافة أنواع النبات المعروفة على سطح الأرض • ولما كنت في حالة لا تسمح بمعاودة شراء كتب النبات فقد أخذت على عاتقي أن أنسخ ما كانوا يعيروننى اياه • ولما كنت أعتزم اعادة انشاء معشب أغنى في محتوياته من الاول ، وبأمل أن أضع فيه كل نباتات البحر والألب وكل أشجار الهند ، فانني أبدأ كعادتي بالرخيص مثل « الرتم » (عين القط) Mouron (٢) و « الكريزة الخضراء » (المقدونس الافرنجي) cerfeuil و « لسان الثور » Bourrache « والمرار (حشيشة يعقوب) Seneçon وأنا أجمع العشب عن خبرة فوق قفص طيوري وكلما عثرت على نبتة جديدة من العشب كنت أقول لنفسي في ارتياح « هاك أيضا نبات آخر » •

لست أحاول أن أبرر اختياري لمتابعة تلك الهواية • انني أجدها معقولة جدا ، وأنا موقن ، في وضعي الراهن ، أن استسلامي للمتع التي ترضيني هو حكمة كبيرة بل هو فضيلة كبيرة كذلك : ان هذه الوسيلة التي لا تدع أية جرثومة للانتقام أو الكراهية تتوالد في قلبي ولكي أجد في حياتي طعما لتسلية ما ، يتعين على من غير شك أن يكون هناك طبع مصفى تماما من كل انفعالات الحنق • ان هذا لهو بمثابة انتقام من مضطهدي على طريقتي : ولم أك لأستطيع أن أنزل بهم من العقاب ما هو أقسى من أن أكون سعيدا بالرغم منهم •

أجل ، من غير شك، أن الحكمة تبيح لي بل تملي على أن أستسلم لكل ميل يستهويني ولا يعوقني شيء عن الانسياق وراءه ، ولكنها لا ترشدني عن سبب استهواء هذا الميل لي وعن أي اغراء أستطيع أن أجده في دراسة عقيمة لا جدوى من ورائها ولا تقدم يرجى لها •• وتعود بي الى تمرينات الشباب والى دروس التلاميذ بينما أنا عجوز مخرف • وقد أصبحت متهالكا ثقيل الحركة قد ذهبت مرونتي وذاكرتي جميعا ، واذن فهذه مسألة بها من الغرابة ما أحب أن أفسره لنفسي • ذلك أنه يخيل لي ، حين تتجلى

---

(١) موري « جوان — اندريا» Murray, « Joannes-Andreas طبيب وعالم نبات سويدي ولد في استكهلم سنة ١٧٤٠ ومات في جوتنجة بالمانيا سنة ١٧٩١ وهو واحد من تلاميذ لينية Linné المقربين •

(٢) من «المعجم المصور لاسماء النباتات» : القاهرة : ١٩٣٦ — لارمناك.ك.بديفيان.

تماما ، انها تستطيع أن تلقى ضوءا جديدا على هذه المعرفة لذاتى ، تلك المعرفة التى كرست لتحصيلها أيام فراغى الأخيرة •

لقد فكرت أحيانا تفكيرا عميقا ، ولكن نادرا ما كنت راضيا ، بل كان ذلك فى أغلب الاحيان على غير رغبة منى وكانما بالاكراه • ان أحلام اليقظة تريحنى وتسرى عنى ، وأما امعان الفكر فيجهدنى ويحزننى • ان التفكير كان بالنسبة لى على الدوام شاغلا شاقا لا سحر فيه • وقد تنتهى احلام يقظتى أحيانا بالتأمل ، ولكن تأملاتى فى اغلب الامر تنتهى بحلم يقظة . وخلال هذا الشرود تهيم روحى وتسبح فى العالم على أجنحة الخيال فى نشوات تفوق كل متعة أخرى .

اننى كلما تذوقتها فى كل صفائها غدا كل شاغل آخر لا طعم له دائما بالنسبة لى ، ولكن ما أن كان يلقى بى فى المجال الأدبى بسبب دوافع غريبة حتى أحس بالاجهاد من جراء العمل الذهنى ومن عبء شهرة منكودة وحتى أحس فى الوقت نفسه بأحلام يقظتى الحلوة تسقم وتفتر ، وحالما أضطر لاشغل بالرغم منى بوضعى المرير لا أعود أستطيع العثور من جديد ـ الا فى القليل النادر ـ على هذه النشـــوات العزيزة التى ظلت خلال خمسين عاما تحتل منى مكانة الثراء والمجد ، والتى ـ من غير أن تقتضينى سوى الوقت ـ جعلتنى فى فراغى اسعد الاحياء طرا •

لقد كان ما اخشاه كذلك فى أحلام يقظتى أن يجنح خيالى بنشـاطه فى نهاية الامر الى هذه الناحيـــة مذعورا من تكباتى • وان الشـــعور المستمر بآلامى وهى تعتصر قلبى تدريجيا ينوء على فى نهـاية الأمر بكل وطأتها • وفى هذه الحالة فرضت غريزة طبيعيـــة لدى ـ تجعلنى أتحاشى كل فكرة مقبضة ـ السكينة على خيالى ، وجعلتنى ـ بتركيز انتباهى على كل ما يحيط بى من أمور ـ اتناول بالتفصيل للمرة الاولى مشهد الطبيعة الذى لم أكن قد تأملته اطلاقا حتى اذ ذاك الا ككل متكامل .

ان الأشجار والشجيرات والنباتات هى زينة الأرض ودثارها ، وليس من شىء يدعو الى الأسى كمشهد ريف عار أجرد ، لا تعرض للعين منه سوى احجار وطمى ورمال . ولكن ما أن تحيى الطبيعة الارض فتعاود ارتداء ثوب عرسها بين خرير الماء وأهازيج الطيور حتى تقدم للانسان بين تناسق الممالك الثلاث مشهدا زاخرا بالحياة والاثارة والفتنة هو المشهد الوحيد فى العالم الذى لا تكل منه عيناه وقلبه أبدا •

وكلما كانت للمتأمل روح حساسة كلما استسلم لنشواته التى تثير فيه هذا التوافق • عنـدئذ يستحوذ على حواســه حلم يقظة حلو عميق

فيضل بخدر لذيذ فى سعة هذا الكون الرائع الذى يحس أنه امتزج به ، وعندئذ تشرد منه التفصيلات فلا يرى ولا يحس شيئا ســوى ما يداخل المجموعة • ولا بد من ظرف خاص يلم أفكاره ويحصر خياله حتى يستطيع أن يلاحظ ــ مجزءا ــ هذا العالم الذى كان يجهد نفسه فى الاحاطة به •

ان هذا هو ما حدث لى بطبيعة الحال عند ما كان قلبى ــ وقد حاق به الضيق ــ يقارب ما بين ويركز كل انتفاضــة من حوله كى يحتفظ بهذه البقية من الحرارة على أهبة التبخر والضياع فى ثنايا الانهيار الذى كنت أنحدر اليه تدريجيا . انني كنت أتسكع متجولا فى تكاســـل فى الغابات والجبــال ، لا أجسر على التفـكير خشية استثارة أوجاعى • وكان خيالى الذى يتأبى عند الشاق من الامور يدع حواسي تستسلم للانطباعات الخفيفـــة ، الحلوة مع ذلك ، لما يحيط بى منها • وكانت عينــاى تجولان باستمرار من شيء الى آخر ، ولم يكن من المستطاع وسط مثل هذا التباين الكبير ألا يوجد فيه ما يزيد من تركيز انتباهها واستيقافها مدة أطول •

لقد راقت لى رياضةالعيون هذهالتى تريح وتسلىوتروحعنالذهن وتوقف الاحساس بالآلام حين يستشعر المرء الشقاء • ان طبيعة الأشياء تساعد كثيرا على هذه السلوى وتجعلها أشد اغراء • ان الروائح الشذية والالوانالزاهية والصور البالغةالرشاقة تبدو وكأنما تتنازع حق استرعاء انتباهنا • وما علينا الا أن نحب المتعة كى نستسلم الى أحاسيس بهــذه الدرجة من الحلاوة ولو أن هذا الاثر لم يبد على كل من صـــادفتهم تلك المتعة فان ذلك يرجع لدى البعض الى انعــدام الحساسية الطبيعية ، وهو لدى الأغلبية يرجع الى أن أذهــــانهم وقد شغلت بأفكار أخرى لم تعد تنصرف الا خلسة الى الامور التى تصك حواسهم •

وهناك أمر آخر يسهم كذلك فى ابعاد انتباه ذوى الذوق السليم عن المملكة النباتية ذلك هو اعتيــاد عــدم البحث فى النبات عن غير العقاقير والادوية . ولقد تناول «ثيوفراست» (١) Théophraste ذلك من زاوية أخرى • ويمكن اعتبار هذا الفيلسوف كأنما هو عالم النبـات الوحيد فى العصور القديمة ، ولذا فهو لا يكاد يكون معروفا بيننا ، ولكن بفضل منيدعى «ديوسكوريد» Dioscoride وهو مصنف مشهور للوصفات الطبية ، وبفضل شراحه ، استطاع الطب أن يستحوذ على نباتات محولة الى عقاقير حتى لا يرى المرء فيها سوى ما كان لا يراه فيها أبدا ، بمعنى

---

(١) ثيوفراست Théophraste فيلسوف يونانى ولد فى جزيرة لسبوس (حوالى ٣٧٢ ــ ٢٨٧ ق٠م) ، كتب مؤلفا عنوانه Caractères

انه يرى فيها المزايا المزعومة التي ينسبها اليها «فلان أو علان» ولا يدرك المرء أن التنظيم النباتي يستحق في حد ذاته أن ينال عنـــاية ما . الأشخاص الذين يقضون حياتهم في ترتيب القواقع ترتيبا علميا يسمر . : من علم النبات كأنما هو دراسة غير ذات نفع وذلك حين لا تلحق بها . : يقولون دراســـة الخواص ، أى حين لا يهمل المرء ملاحظة الطبيعة التي لا تكذب أبدا والتي لا تروى لنا شيئا من هذا كله ، ليستسلم فقط لرأى الناس وهم كاذبون ، والذين يؤكدون لنا اشياء كثيرة يجب التسليم بها بناء على قولهم الذى يستند في اغلب الامر على اساس رأى الآخرين . قف في مرعى مزهر كي تتفحص تباعا الأزهار التي يزدان بها ؛ فان من يرونك كذلك ســيظنونك « حلاق صـحة » فيسألونك بعض الاعشاب لشــــفاء « قوبة الزيتونة » للاطفال أو « جرب » الرجال أو « تعب » الخيل .

ان هذا الاعتقاد قد انهار جانب منه في البلاد الاخرى وبخاصة في انجلترا بفضل ليناوس Linnaeus (1) الذى أبطل الى حد ما دراسة النبات في مدارس الصيدلة ناقلا اياها الى حقل التاريخ الطبيعي وميدان الانتفاع الاقتصادى . أما في فرنسا حيث كان تغلغل هذه الدراسة أقل لدى الطبقة المتمدينة ، فقد ظلوا في هذه الناحية من البدائية حتى ليصيح متظرف باريس ممتدحا ، حين يشـــهد في لنـــدن حديقة فريدة مليئـــة بالاشجار والنباتات النادرة ، قائلا : « هاكم حديقـــة بالغة الجمال لصيدلانى » وعلى هذا الاعتبار كان آدم الصيدلى الاول ، ذلك لانه ليس من الميسور ان نتخيل حديقة تجمع شتات النباتات خيرا من جنة عدن .

هذه الافكار الطبية ليست بالتأكيد كفيلة بأن تجعل من دراسة النبات دراسة مستحبة ، فهى تذبل ازدهار المراعى وتألق الزهور وتجفف نضارة الخمائل وتجعل الخضرة والظلال تافهة ممجوجة . ان كل تلك المركبات الرائعة الرقيقة لا تهم بحال من لا يود الا أن يجمع ذلك كله في هاون ، ولن يبحث المرء عن أكاليل للراعيات بين أعشاب لغسيل الامعاء .

ان هذه الصيدلة كلها لم تكن تفسد أبدا صور الريف لدى ، فلم يكن هناك ما هو أبعد منها أكثر من « منقوعات الاعشاب » و « اللزقات » وطالما فكرت ، وأنا اتأمل عن كثب الحقول والبساتين والغـــابات وسكانها العديدين ، أن مملكة النبات كانت مستودعا للمواد الغذائية التي تمنحها

---

(1) كتاب نظام التقسيم الطبيعي للنباتات System anaturae هو من تأليف عالم النبات السويدى لينيه linne (١٧٠٧ ــ ١٧٧٨) نشر الكتاب عام ١٧٣٥ ، وكان روسو معجبا به (م)

الطبيعة للانسان والحيوان ، ولكن لم يخطر ببالى مطلقا أن أبحث فيها عن عقاقير وأدوية • ولبست أرى شيئا فى هذه المحصولات المتباينة يرشدنى الى مثل هذا الاستعمال • ولعلها كانت تحدد لنا الاختيار لو أنها أملته علينا ، كما فعلت بالنسبة للمواد الغـذائية ، بل اننى لأحس أن المتعـة التى أنالها بتجولى بين الخمائل قد يفسدها الشعور بالضعف البشرى ان هو أتاح لى التفكير فى الحمى والحصوة والنقرس ومرض الشيخوخة • ومن ثم فلن أناقش البتة النباتات فيما ينسب اليها من مزايا ضخمة ، بل سأكتفى بأن أقول : انه بافتراض أن تلك المزايا حقيقية فانه من الخبث المحض أن يظل المرضى على مرضهم لانه من بين كل الامراض التى يتعرض الناس لهـــا ليس هناك مـــرض واحد لا يقطع دابره عشرون نوعا من الاعشـــاب •

ان اتجاهات الفكر هذه ـ التى ترجع دائما كل شىء الى مصلحتنا المادية والتى تدعو الى البحث فى كل شىء عن كســب أو دواء ، والتى كانت حرية بأن تدفع الى النظر الى الطبيعة جميعا بغير تحيز لو أن المرء كان دائما فى صحة طيبة ـ لم يكن لى منهـــا نصيب مطلقا • وانى لأحس فى ذلك اننى على نقيض الاخرين ، فان كل ما يتصل بالاحساس بحاجاتى يحزن أفكارى ويفسدها ، ولم أجد مطلقا أى سحر حقيقى فى متع الفكر الا اذا أسقطت من حسابى تماما مصلحة جسدى • وهكذا ـ حتى حين كنت أومن بالطب ، وحتى لو أن الدواء كان مستساغا ـ فاننى لم أكن لأجـد نفسى أشـــغل مطلقا بهذه المتع يضفيها تأمل خالص مجـــرد ، ولن تستطيع روحى أن تتهلل وتحلق فوق الطبيعة ما دمت أحس بها تتشبث بقيود جسدى •

هذا الى اننى برغم انه لم تكن لى مطلقا ثقة كبيرة فى الطب الا انه كان لدى الكثير منها فى أطباء كنت أقدرهم وأحبهم وكنت أترك لهم مطلق الحرية فى التســلط على جســدى بسلطان كامل • أن خمس عشرة سنة من التجربة زودتنى بالعلم على حساب نفسى • أما وقد عدت الآن تحت سلطان قوانين الطبيعة وحدها فقد استعدت عن طريقها سابق صحتى • وحين لا يغدو للاطباء شكاوى أخرى ضدى فمن ذا يستطيع أن يدهش من كراهيتهم ؟ اننى البرهان الحى على تفاهة فنهم وعلى عدم جدوى جهودهم •

كلا •• ليس هنـــاك أمر شخصى ، وليس هنـــاك من شىء يتصـــل بمصلحة جسدى يستطيع أن يشغل روحى حقا • اننى لا أفكر ولست أحلم مطلقا أحلاما أكثر امتاعا منها الا حين أتنـــاسى نفسى • وانى لأحس انتشاء وسعادة غامرة لا يستطاع التعبير عنهما الى حد اننى أفنى ـ كما

يقال – فى نظام الكائنات حتى امتزج بالطبيعة جمعاء . وطالما كان الناس أخوة لى فقد كنت أشيد مشروعات سعادة دنيوية ، ولما كانت هذه المشروعات دائما متعلقة بالمجموع ، فلم اكن استطيع أن اكون سعيدا الا بسعادة الجميع ، ولم يحدث أن مست قلبى مطلقا فكرة السعادة الفردية الا حين رايت اخوانى لا يبحثون عن سعادتهم الا فى شقوتى . وعندئذ كان من الواجب حتما تجنبهم حتى لا أبغضهم وعندئذ – بالتجائى الى أم الجميع – حاولت بين أحضانهـــا أن أفلت مما يصيبنى به أبناؤها ، وأصبحت منعزلا ، أو كما يقولون ، غير اجتماعى ، كارها للناس ، ذلك لأن أشـد الوان الوحدة قسوة كان يبـدو لى أفضل من مجتمع الاشرار الذى لا يغتذى الا بالخيانة والبغضاء .

اما وأنا مضطر الى الامتناع عن التفكير خشية أن أفكر فيما حل بى من شرور على الرغم منى ، ومضطر أيضـا الى اختزن مخيفات خيـالى الضاحك – وان كان فاترا – حتى لتستطيع كل تلك المفزعات أن تنفرنى فى نهاية الامر ، ومضطر كذلك الى محاولة نسيان أولئك الذين يهيلون على المهانات والسباب خشية أن يثيرنى الغضب ضدهم ، فاننى لا أملك مع ذلك أن أتركز كلية فى ذاتى، لان روحى الفياضة تسعى –برغم مابى– الى أن تبسط مشاعرها وكيانها على الكائنات الاخرى ، ولست أستطيع بعد – كما كانت الحال من قبـــل – أن ألقى بنفسى مطأطىء الرأس فى محيط الطبيعة الشاسع هذا ، لان ملكاتى – وقد ضعفت ووهنت – لم تعد تلقى أمورا على قدر من التحديد والثبات ، وفى متناولى كذلك ، بحيث أعلق بها فى عنف، ولا أحس معها بقوة تكفى لتمكننى من السباحة فى هذا الخضم من نشواتى القديمة . ان أفكارى لم تعد تقريبا سوى مشاعر ، وان مجال ادراكى لا يتعدى الامور التى تحيط بى مباشرة .

أما وأنا هارب من الناس وساع وراء العزلة وعاجز عن التخيل ، وعن التفكير أكثر عجزا وموهوب مع ذلك فى الوقت نفسه مزاجا متوقدا يبعدنى عن البلادة المسقمة المحزنة .. فقد بدأت أشغل بكل ما يحيط بى ، وفضلت بغريزة طبيعية جدا – الاشياء الأكثر امتاعا ، ولم يكن فى المملكة المعدنية فى ذاتها ما يحبب فيها أو يجذب اليها ، ان ثرواتها المدفونة فى باطن الارض تبدو كأنما أبعدت عن أنظار الانسان حتى لا تثير شرهه وهى هناك وكأنما أحتفظ بها لتستخدم يوما لتزود الثروات الحقيقيـة التى هى أقرب الى متناوله والتى يفقد لذة ملذاتها كلما ازداد فسادا ، وعندئذ يجب أن يلجأ الى الصناعة والى الكد والعمل لتنقذه من فاقته. انه ينقب فى باطن الارض ويتوغل باحثا فى صميمها ، مخاطرا بحياته، وعلى حساب

صحته ، عن ثروات خيالية بدلا من الثروات الحقيقية التي كانت تهبها اياه عن طواعية عندما كان يعرف طريقه الى الاستمتاع بها • انه يهرب من الشمس والنهار اللذين لم يعد جديرا برؤيتهما • انه يدفن نفسه حيا ، وخيرا يفعل ، اذ لم يعد يستحق الحياة في ضوء النهار •• هناك المحاجر والاغوار وورش الحدادة والافران ومعدات من السندانات والمطارق ودخان ونار ، تخلف جميعها الصور الحلوة للعمل في الحقول •• ان الوجوه المصفرة لاولئك البؤساء الذين يسقمون من جراء الابخرة الكريهة في المناجم والخدادين السود والمسوخ المتفرين •• كل أولئك هم المشهد الذي تحله معدات المناجم — في باطن الارض — محل الخضرة والازهار ومحل السماء الزرقاء والرعاة العاشقين والفلاحين الاشداء على سطحها •

انني أعترف أنه أيسر للمرء أن يجمع الرمال والاحجار وأن يملأ بها جيوبه ومكتبه ، وأن يضفي على نفسه بذلك سيماء دارس الطبيعة • أما الذين يتعلقون بهذه الالوان من المجموعات ويقتصرون عليها فهم في العادة أغنياء جهلة لا يرومون من وراء ذلك سوى غرور المظهر . يجب على المرء أن يكون كيميائيا ومن علماء الطبيعة كي يفيد من دراسة المعادن •

يجب القيام بتجارب شاقة باهظة التكاليف ، والعمل في المعامل وانفاق الكثير من المال والوقت بين الفحم والبواتق والافران والمعوجات ، بين الدخان والابخرة الخانقة ، معرضا حياته للخطر على الدوام على حساب صحته في أغلب الامر • ومن وراء كل هذا العمل الكئيب المرهق يتأتى عادة من المعرفة أقل بكثير مما يتأتى من الغرور . وأين هو أقل الكيميائيين شأنا الذى لايظن أنه قد استطاع أن يتغلغل في أعماق العمليات الكبرى للطبيعة لانه كشف — ربما عن طريق الصدفة — بعض التركيبات الفنية الصغرى ؟

ان مملكة الحيوان أقرب الينا من غيرها وهي تستحق كذلك من غير شك أن تدرس دراسة أوفى • ولكن أليست لهذه الدراسة أيضا في النهاية صعوباتها ومآزقها ومنفراتها ومتاعبها ولا سيما بالنسبة لمعتزل ليس له أن يأمل في عون أحد في لهوه أو عمله ؟ كيف يمكن ملاحظة تشريح أو درس أو التعرف على الطيور في مساربها والاسماك في مسابحها والدواب أخف من الريح وأقوى من البشر ••• التي لايزيد استعدادها لان تتقدم لتعرض نفسها لابحاثي عن استعدادي لمتابعتها بغية اخضاعها عنوة لدراستها ؟ واذن فستكون مصادري القواقع والديدان والذباب وسأقضي حياتي لاهثا سعيا وراء الفراشات خارقا للحشرات التعسة ومشرحا للفئران — حين أستطيع الحصول عليها — أو جيف البهائم التي قد أصادفها

ميتة . ان دراسة الحيوان لا تعد شيئا بغير التشريح اذ به يتعلم الانسان كيف يرتبها ويميز بين أنواعها وفصائلها ، ويجب أن تكون هناك حظائر وأحواض وزرائب كي تدرس من ناحية طبائعها وخصائصها ، كما يجب أن ترغم بطريقة كائنة ما تكون كي تبقى متجمعة حولي . انه ليس لدى من الميل أو الوسائل ما يمكنني من أن أحتفظ بها حبيسة ؛ كما انه ليست لدى الخفة اللازمة لتتبعها في مراحها حين تكون طليقة . واذن فمن اللازم أن تدرس وهى ميتة وأن تقطع أوصالها وتنتزع عظامها وينقب بتؤدة في أحشائها النابضة . يا له من جهاز كريه ، معمل التشريح هذا ! فمن جثث عفنة ولحم رخو وسائل ... ودم وأمعاء تثير الاشمئزاز وهياكل كريهة وأبخرة وبائية ! أقسم بشرفي أن جان جاك لن يلجأ اليها ليسعى وراء ملهاته فيها .

أيتها الزهور المتلألئة .. يازينة المراعي! أيتها الظلال الرطبة والجداول والاعراش والخضرة ! تقدمن لتطهير خيالي الملوث بكل هذه الامور الكريهة! ان روحي اذ تقضى أمام كل الاحداث الكبار لم تعد تتأثر الا بالمحسوسات . انه لم تبق لي الا أحاسيس ، ولم يعد الالم واللذة في هذه الحياة الدنيا يستطيعان أن ينالا مني الا عن طريقها . انني حين يجتذبني المبهج مما يحيطني من أمور أتأملها وأشهدها وأقارن بينها ثم أعرف أخيرا كيف أصنفها . ثم هأنذا فجأة دارس نبات يحتاج الى أن يكونه من لا يود دراسة الطبيعة الا ليجد دائما أسبابا جديدة لتعشقها .

انني لا أرمي البتة الى أن أتعلم فقد فات أوان ذلك ؛ هذا الى أنني لم أر مطلقا ان كل ذلك العلم أسهم في سعادة الحياة ، ولكنني أحاول أن أتزود بالوان من التسلية السارة الميسرة التي استطيع أن أتذوقها في غير عناء ، والتي تستطيع أن تلهيني عن متاعبي . لن يكلفني شيئا أو يسبب لي ألما أن أتنقل متكاسلا من عشب الى عشب ومن نبات الى نبات لأتفحصها ولأقارن بين خصائصها المتباينة ولأسجل وجوه التشابه والاختلاف بينها ولألاحظ التنظيم النباتي بحيث أتتبع تطور هذه الادوات الحية والدور الذى تقوم به ، وبحيث أوفق أحيانا للكشف عن قوانينها العامة وسبب اختلاف تركيبها والغرض منه ، وبحيث أستسلم لسحر الاعجاب العارف بالفضل لليد التي جعلتني أستمتع بهذا كله .

أن النباتات تبدو وكأنما قد نثرت بوفرة على الارض كما تنتثر النجوم في السماء لتدعو الانسان — باغراء المتعة والفضول الى دراسة الطبيعة .. أما الكواكب فبعيدة عنا ويتطلب الوصول اليها وتقريبها لنا

معارف أولية وأدوات وآلات وسلالم بالغة الطـول • أما النباتات فهى موجودة بالطبيعة هنا • انها تولد تحت أقدامنا وبين أيدينا ــ كما يقال ــ ولئن كان صغر أجزائها الاساسية يحجبها أحيانا عن العين المجردة ، فان الادوات التى تكشف عنها ذات استعمال أيسر بكثير من آلات علم الفلك • ان علم النبات هو مجال دراسة المعتزل الفارغ الكسول ، وان سنا مدببة وعدسة هما كل ما يلزمه من جهاز ليفحص النباتات . انه يتنزه ويتجول بحرية من شيء الى آخر ويستعرض كل زهرة باهتمام وفضول وما ان يبدأ فى ادراك قواعد تركيبها حتى يتذوق فى ملاحظتها لذة بغير ألم •• شديدة مع ذلك ــ كما لو كانت قد تكلفت الكثير • ان فى هذا الشاغل الفارغ سحرا لا يحسه المرء الا فى هدوء العواطف الكامل ، ولكنه يكفى وحده عندئذ ليجعل الحياة سعيدة حلوة ، ولـكن ، ما ان يخالطه دافع لمصلحة أو غرور اما لشغل وظائف أو لتاليف كتب •• أى أنه عندما لا يرغب المرء فى التعلم الا بقصد التعليم ولا يستعشب الا ليغدو مؤلفا أو معلما حتى يتلاشى ذلك السحر الحلو فلا يعود يرى فى النباتات سوى وسائل الهواية ولا يعود المرء يرى متعة حقة فى دراستها ، فهو لا يريد بعد أن يعرف ولكنه يظهر أنه يعرف • والمرء فى الغاب ، كأنما هو على مسرح الحيـاة ، مشغول بالعمل على اعجاب النـاس به أو هو مقتصر على دراسة النبات فى المكاتب أو الحديقة على الاكثر بدلا من ملاحظة النباتات فى الطبيعة ، ثم لا يشغل نفسه الا بالطريقة والمنهاج وهما مادة خالدة للجدل لا تعرف بنبات جديد ولا تلقى اى ضوء حقيقى على التاريخ الطبيعى أو مملكة النبات . من هنا كانت الكراهية والاحقاد التى يثيرها التنافس على الشهرة لدى المؤلفين من علماء النبات على غرار ما يحدث بين العلماء الآخرين بل أكثر . وبتشويه تلك الدراسة المحببة ينقلونها الى داخل المدن والاكاديميات حيث لا يقل انحطاطها عما تنحط اليه النباتات المجلوبة التى يؤتى بها الى حدائق محبى الاستطلاع •

ولقد أسهمت استعدادات متباينة لتجعل من هذه الدراسة بالنسبة لى نوعا من الهوايات يملأ الفراغ الذى خلفته كل الهوايات التى لم يعد لدى منها شيء •• انى أتسلق الصخور والجبال وأتوغل فى بطون الوديان، وفى الغابات لأتوارى بقدر الامكان عن تفكير الناس وعن أذى الاشرار . وانه ليخيل الى وأنا فى ظلال الغابة أننى منسى ، حر ، هادىء ، كما لو لم يعد لى من أعداء أو كأنما عملت أوراق أشجار الغابة على حمايتى من أذاهم كما تبعدهم عن ذاكرتى • واننى لأتخيل ــ فى جهالتى اننى حين أقصيتهم عن تفكيرى سوف لا يفكرون هم فى أيضا • أننى لأجد لذة كبرى فى هذا

الوهم حتى لأكاد أستسلم له كلية لو أن مركزى وضعفى واحتياجاتى كانت تسمح لى بذلك • وكلما أوغلت العزلة التى أحيا فيها فى عمقها ، كلما كان من الضرورى أن يملأ فراغها شيء ما ، فكل من يأباه خيالى أو تطرده ذاكرتى تشغل مكانه النباتات التلقائية التى تعرضها لعينى فى كل ناحية الارض التى لم يسخرها الانسان • ان اللذة فى الخروج الى الصحراء للبحث عن نباتات جديدة تطغى على لذة الهروب من مضطهدى ، وما ان أصل الى مواطن لا أرى فيها اى أثر للناس حتى أتنسم الهواء فى حرية أكثر كما لو كنت فى ملجأ لا تلاحقنى فيه بغضاؤهم •

اننى سوف أذكر طيلة حياتى استعشابا قمت به يوما من الايام فى ناحية روبيلا Robaila جبل القاضى كلير (Clerc) • لقد كنت وحيدا وتوغلت فى منحنيات الجبل وأخذت أتنقل من غابة الى غابة ومن صخرة الى صخرة حتى بلغت ملاذا بلغ من انزوائه أننى لم أشهد فى حياتى من قبل منظرا أكثر استيحاشا منه • كانت أشجار الشوح السوداء تختلط بأشجار الزان الضخمة التى تهاوى العديد منها من الشيخوخة وتشابكت ببعضها البعض حتى احتجزت هذا الملاذ بحواجز لا يمكن اختراقها ، وكانت بعض الفتحات التى تتخلل هذا الحاجز المظلم لا تعرض للناظر من ورائها سوى صخور قطعت عموديا وسوى هوى مخيفة لم أكن لأجرؤ على النظر اليها الا ان انبطحت على بطنى • وكان البوم والمصاصة وعقاب البحر يتردد صدى نعيقها فى صدع الجبال وكان يخفف مع ذلك من وحشة هذه العزلة قليل جـدا من الطيور الصغيرة المعروفة • وقد وجدت هناك حشيشـة السنان السباعية Dentaire heptaphyllos وبخور مريم (سيكلامان) Ciclamen وعش النحل (سرخس عش الىر) Nidus avis وعشبا من الاعشاب الراتنجية والخيمية يشبه البقدونس Grand laserpitium وبعض نباتات أخرى فتنتنى وأدخلت السرور الى نفسى طويلا • ولكننى قد سيطر على الطابع القوى لهذه الاشياء دون أن أشعر ، نسيت علم النبات والنباتات وجلست على حشيات من المساكية (رجل الذئب) Lycopodium والعشب الندى والطحلب وأخذت أحلم فى مزيد من الراحة ، أرانى وكأنى فى مأوى مجهول من العالم جميعا حيث لا يستطيع مضطهدى أن ينتزعنى منه • وسرعان ما خالطت ذلك الحلم نزعة غرور فكنت أقارن نفسى بأولئك الرحالة الكبار الذين يكتشفون جزيرة مهجورة ، وكنت أحدث نفسي فى اعجاب قائلا : « لا ريب أننى أول كائن وصل الى هذا المكان» وكنت أجد فى شخصى (كولومب) آخر • وبينما أنا أختال فى هذا التفكير • سمعت على مبعدة قليلة منى قرقعة ما خيل الى أننى أعرفها • فأصغيت ، وتكرر

الصوت نفسه وتضاعف فقمت من مكاني دهشا يحدوني الفضول ونفذت من خلال أجمة من الاعشاب في اتجاه مصدر الصوت ولاحظت وجود مصنع للجوارب في منخفض يبعد عشرين خطوة من المكان نفسه الذى كنت أحسبني أول من ارتاده ٠

ولست أستطيع أن أعبر عن الاضطراب الغامض المتناقض الذى أحسسته في قلبي عند هذا الاكتشاف ، كان اول ما انتابني شعور بالفرح حين وجدتني بين آدميين في مكان كنت أحسبني وحيدا فيه ٠ ولكن هذا الاحساس ـ في أسرع من البرق ـ سرعان ما أفسح مكانا لشعور أليم أطول مدى كما لو كنت لا أستطيع في مغاور جبال الألب نفسها أن أفلت من القبضة القاسية لأولئك المتجسسين لتعذيبي ، ذلك لانني كنت واثقا تماما أنه ربما لم يكن هناك رجلان في هذا المصنع لم يسهما جديا في المؤامرة التي كان يتزعمها الواعظ (مونمولين Montmolin)(١) والتي كان يحرك من بعيد دوافعها الاولى ، وسرعان ما أبعدت هذا الخاطر الكئيب وانتهى الامر بي الى أن أضحك في سريرتي وأضحك من غروري الصبياني ومن الطريقة الهزلية التي عوقبت بها من أجله ٠

ولكن في الواقع من ذا الذى كان يتوقع أن يجد مصنعا في هوة سحيقة ؟ انه ليست هناك في العالم سوى سويسرا التي تستطيع أن تعرض هذا الخليط من الطبيعة البرية والصناعة الانسانية ٠ وليست سويسرا بأكملها ـ على حد القول ـ سوى مدينة كبيرة ، شوارعها أكبر وأطول من شوارع سانت أنطوان Saint-Antoine تنتشر فيها الغابات وتتخللها الجبال وتصل الحدائق الانجليزية مابين بيوتها المتناثرة المنعزلة عن بعضها وبهذه المناسبة تذكرت استشعابا آخر كان دي بيرو du Peyrou وديشرني d'Escherny والكولونيل بيورى colonel Pury والقاضي كلير justicier Clere وأنا ، قد قمنا به منذ وقت على جبل Chasseron شاسيرون(٢) الذى يكتشف المرء من قمته سبع بحيرات ٠ وقد قيل لنا انه لم يكن هناك فوق هذا الجبل سوى بيت واحد ولم يكن في استطاعتنا التكهن على وجه الدقة بمهنة ساكنه لو لم يضف الى ذلك القول بأنه كان

---

(١) كانت خطبة الواعظ مونمولين Montmolin ضد روسو سببا في خروج أهل موتييه Môtiers غاضبين فألقوا بالحجارة على نوافذ بيت روسو في اليوم الاول من سبتمبر عام ١٧٦٥ ٠

(٢) لا يقصد هنا جبل شاسيرون Chasseron بل شاسيرال Chasseral ومن هذا الجبل يمكن مشاهدة البحيرات السبع ٠

كتيبا وأنه كان يباشر أعماله كذلك بنجاح كبير في الاقليم • ويخيل الى أن واقعة واحدة من هذا النوع تعرفنا بسويسرا أكثر من كل ما يقدمه المسافرون من أوصاف •

وهاك واقعة أخرى من هذا النوع ــ أو تكاد ــ ليست أقل تعريفا لنا بشعب مختلف عنا تماما : ذلك أنه خلال اقامتى في جرنوبل Grenoble كثيرا ما كنت أقوم باستشعابات صغيرة خارج المدينة مع السيد بوفييه Bovier (١) المحامي بذلك الاقليم لا لأنه كان يحب علم النبات أو كان على دراية به ، ولكن لانه نصب من نفسه حارسا لى وآلى على نفسه ألا يتركنى خطوة واحدة ما استطاع الى ذلك سبيلا • وذات يوم كنا نتنزه على ضفة نهر الايزير L'Isère في منطقة حافلة بالصفصاف الابرى ورأيت على هذه الشجيرات فاكهة ناضجة ، وتملكنى الفضول لتذوقها ، ولما وجدت بها بعض الحموضة التى راقت لى جدا ؛ أخذت آكل من هذه الثمار لانعش نفسى . وكان السيد بوفييه واقفا الى جوارى دون أن يقلدنى ودون ان يقول شيئا . وفجأة أقبل أحد اصدقائه الذى ما أن رآنى ألتقط هذه الثمار حتى قال : ايه يا سيدى ! ما هذا الذى تفعله ؟ ألا تدرى أن هذه الفاكهة سامة ؟ فصحت دهشا جدا : هذه الفاكهة سامة ! فأجاب : ما فى ذلك من ريب ، وكل الناس يعلمون ذلك تماما حتى أن واحدا من الاقليم لم يفكر فى تذوقها . فنظرت الى السيد بوفييه وقلت له : لم اذن لم تنبهنى الى ذلك ؟ فأجابنى باحترام قائلا : آه يا سيدى ! اننى لم أكن أجرؤ لأسمح لنفسى بهذه الحرية •• فأخذت أضحك من هذا التواضع الخاص بمقاطعة دوفينيه Dauphiné وأنا أتوقف مع ذلك عن الاستمرار فى تناول هذه الوجبة الصغيرة • وكنت مقتنعا ــ كما لا أزال ــ أن كل انتاج للطبيعة مستساغ الطعم لا يمكن أن يسبب أذى للجسم ، أو هو ــ على الاقل ــ لا يؤذيه الا بالافراط فيه. ومع ذلك فأعترف أننى طاوعت نفسى قليلا بقية اليوم وان خالط ذلك بعض القلق وتناولت وجبة عشاء فى شهية كبيرة ونمت خيرا من ذلك وصحوت فى الصباح وأنا أكمل ما أكون صحة بعد أن التهمت فى اليوم السابق خمس عشرة أو عشرين ثمرة من ذلك الغاسول الرومى hippophoee الفظيع الذى تكفى منه كمية ضئيلة جدا للتسمم ، على نحو ما قاله لى

(١) رواية المحامي بوفييه Bovier حوالى عام ١٨٠٢ تختلف عن رواية روسو ، وذلك فى A. Jevy : Un document inédit sur le séjour de J.J, Rousseau à Grenoble en 1768 Vitry — le — Français, 1898, p.p. 42 - 8,
اذ يقول فيها انه لم يقرأ تفسير روسو لتلك الحادثة الا بعد نشر « الاعترافات » التى تلتها « أحلام اليقظة » .

الجميع في جرنوبل في اليوم التالي. وقد بدت لي تلك المغامرة من الطرافة بحيث لا أذكرها أبدا دون أن أضحك من الحذر المستغرب الذي أبداه السيد بوفييه المحامي .

كانت كل جولاتي لدراسة النبات والانطباعات المختلفة لمواطن الاشياء التي أثرت في ، والافكار التي بعثتها في نفسي ، والاحداث التي خالطتها، كل ذلك خلف في نفسي انطباعات تتجدد بمشاهدة النباتات التي تستعشب من تلك المواطن نفسها .

انني سوف لا أرى مطلقا هذه المناظر الريفية الرائعة وهذه الغابات وهذه البحيرات وهذه الاعراش وهذه الصخور وهذه الجبال التي طالما مست رؤيتها شغاف قلبي . أما الآن وأنا لا أستطيع بعد أن أجوب هذه البقاع السعيدة فلست أملك سوى أن أفتح معشبي وسرعان ما ينقلني اليها . ان اجزاء النباتات التي جمعتها منها تكفي لتذكرني بذلك المشهد الرائع . ان هذا المعشب بالنسبة لي بمثابة يوميات استعشاب تجعلني أعاوده بسحر جديد ، ولها من الاثر ما هو بمثابة المنظار الذي يعيد تصويرها أمام عيني .

هذه هي سلسلة الافكار الثانوية التي تربطني بعلم النبات . انها تجمع وتعيد الى خيالي كل تلك الافكار التي تزيد من ارضائه . فالمراعي والأمواه والغابات والعزلة ثم السلام بصفة خاصة والراحة التي يلقاها المرء خلال هذا كله .. انها جميعا تعاد الى ذاكرتي باستمرار عن طريق هذه السلسلة من الافكار الثانوية .. وهي تجعلني أنسى اضطهادات الناس وكراهيتهم واحتقارهم وامتهاناتهم وكل الآلام التي قدموها ثمنا لتعلقي الحنون الصادق بهم . . انها تنقلني الى ديار هادئة بين قوم بسطاء طيبين كأولئك الذين عشت معهم في سالف الزمان .. انها تذكرني بأيام شبابي ومتعي البريئة ، وتجعلني أستمتع بها من جديد ، وهي غالبا كذلك ما تجعلني سعيدا في ثنايا قدر أشد ما يكون نكدا يمكن أن يكون قد ابتلي به انسان .

الجولة الثامنة

كلما أمعنت الفكر في حالات نفسي وفي كل مواقف حياتي ، أدهشني للغاية أن أرى مبلغ ضآلة التناسب بين تدابير قدري المختلفة وبين مشاعري المعتادة ـ من هناء أو شقاء ـ التي اعترتني بسبب تلك المواقف • ان الفترات المختلفة لهنائي القصير لم تترك لي تقريبا أية ذكرى حلوة للاحساس الكامن المقيم الذي كانت تؤثر علي به ، بل وعلى العكس من ذلك كنت أحسني على الدوام ، خلال ما انتاب حياتي من مكاره ، مفعما بمشاعر رقيقة مثيرة حلوة ، كانت تبدو ـ وهي تسكب بلسما شافيا على جراح قلبي المضنى ـ وكانما تحول الالم الى لذة تعاودني ذكراها المحببة وحدها مجردة من ذكرى الآلام التي كنت أستشعرها في الوقت نفسه • انه يخيل الى انني تذوقت من حلاوة الوجود أكثر مما عشت حقيقة ، وذلك حين صحت يد القدر ـ كما يقال ـ مشاعري حول قلبي •• فلم تكن لتبدد خارجة حول أمور هي موضع تقدير الناس لا تستحق لذاتها منه سوى القليل وهي الشغل الشاغل لأناس يظن انهم سعداء .

حين كانت الامور منتظمة من حولي ، وحين كنت راضيا عن كل مايحيط بي وعن الوسط الذي كان علي أن أعيش فيه ، كنت أملؤه بمحبتي • وكانت روحي الفياضة ترفرف فوق أشياء أخرى • ولما كان يباعد بيني وبين ذاتي ألف لون من الميول عن طريق روابط الود التي كانت تحتل قلبي على الدوام ، كنت أتناسى نفسي بصورة ما وكنت افرغ كلية لكل ماأستغرب من أمر علي ، وكنت أحس في اضطراب قلبي المستمر بكل تقلبات الامور الانسانية •• ان هذه الحياة العاصفة لم تدع لي سلاما في الداخل أو راحة في الخارج • كنت سعيدا في مظهري ولم تكن لدي عاطفة تقوى على احتمال محنة التفكير استطيع بها حقا أن أرضى عن نفسي • انني لم أستشعر قط رضا كاملا عن الآخرين أو عن نفسي ، كان صخب الناس يطيش صوابي وكنت أضيق بالعزلة • كنت دائما في حاجة الى تغيير المكان ولم أكن أحس بالراحة في أي مكان •• ومع ذلك فقد كنت موضع الترحيب وكان الناس يودونني ويحسنون استقبالي ويدللونني في كل

مكان .... لم يكن لي من عدو او حقود او حسود ، ولما كان الناس لا يسعون الا لاسداء المعروف لى ، فاننى غالبا ما كنت احس بلذةاسداء المعروف لكثير من الناس . كنت بغير مال او وظيفة ولم يكن هنالك من يرعانى ولم تكن لدى مواهب كبيرة أحسنت تنميتها أو التعرف عليها ، وكنت أستمتع بالمزايا المتصلة بذلك كله ولم أك ارى أحدا في أية حال له من الحظ أفضل من حظى ، واذن فماذا كان ينقصنى لأكون سعيدا ؟ اننى لاجهل ذلك ، ولكننى اعلم أننى لم اكن سعيدا . ماذا ينقصنى اليوم لاكون أتعس الخلق طرا ؟ لا شيء من كل ما استطاع البشر اضافته من عنده للوصول الى ذلك . واذن ففى هذه الحالة التى تستحق الرثاء لن أغير كذلك من حالى أو قدرى مقابل أسعدهم حظا بل اننى أفضل أكثر من ذلك لو ظللت أنا نفسى بكل شقوتى على أن أكون أيا من أولئك الناس بكل هنائهم .. وباقتصادى على نفسى وحدى ، فاننى أغتذى حقا على الغذاء الخاص بى ... ولكن هذا الغذاء لا ينفد ... اننى أكفى نفسى بنفسى ولو اننى اجتر — كما يقال — على لا شيء ، وان خيالى الذى نضب وافكارى التى خمدت لم تعد تمد قلبى بزاد .. ان روحى المثقلة التى تعطلها أعضائى تنهار يوما بعد يوم ولم يعد لها — تحت وطأة هذه الاثقال — من قوة تستطيع معها ان تنطلق ، كما كان العهد من قبل ، خارج ردائها البالى .

ان هذا الرجوع الى أنفسنا هو ما تضطرنا اليه الشدائد ولعل ذلك مايجعلها اقل ماتكون احتمالا لدى معظم الناس . أما بالنسبة لى — أنا من لاأجد فى لوم نفسى سوى هفوات — فاننى أتهم ضعفى من اجلها ، وأتعزى لان شرا مدبرا لم يخامر قلبى قط .

ومع ذلك — فما لم أكن غبيا — انى لى ان اتأمل موقفى لحظة واحدة دون أن أراه كذلك مريعا كما شاء لهم أن يجعلوه ، ودون أن أقضى حزنا ويأسا ؟ اننى بدلا من ذلك ، وأنا أشد الناس حساسية ، اتأمله ولا اتأثر له ، كما اننى بغير صراع او مجاهدة مع ذاتى أرى نفسى بغير مبالاة تقريبا فى حال قد لا يستطيع اى انسان آخر ان يحتمل مشهدها دون فزع .

كيف وصل بى ذلك الى هذا المدى ؟ لقد كنت أبعد ما أكون عن هذه الحالة الآمنة لدى أول شك فى المؤامرة التى حيكت خيوطها من حولى منذ امد بعيد دون أن أتنبه اليها مطلقا . لقد قلب هذا الاكتشاف الجديد كيانى رأسا على عقب ، وفاجأتنى النذالة والخيانة على حين غرة . ترى أية نفس فاضلة هيئت لهذه الالوان من العذاب ؟ انه كان يجب أن تستحقها

حتى تتنبأ بها . لقد سقطت فى كل الشراك التى حفرت تحت أقدامى ، واستحوذ على الغيظ والغضب والهذيان ففقدت اتزانى · لقـــد اضطرب عقلى ، ومن خلال غياهب الظلمات الموحشة التى لم يكفوا عن ابقائى مغرقا فيها .. لم اعد الح بصيصا من النور أهتدى به او سندا أو متنفسا أســتطيع بهما أن اظل ثابتا وأن اقــاوم اليــأس الذى كان يشدنى اليه .

كيف يستطيع المرء أن يعيش سعيدا وهادئا فى مثل هذه الحالة البشعة ؟ اننى لا ازال اعانيها ولاازال غارقا أكثر من ذى قبل . ولقد وجدت فيها الهدوء والسلام وهأنذا أعيش فيها سعيدا آمنا وهأنذا أسخر مما يسببه مضطهدى لانفسهم من عذاب مقيم : لا يستطاع تصديقه . فى حين انا احيا فى سلام مشغولا بالازهار ونصالها واللهو البرىء ، بل ولا افكر فيهم .

فكيف تم هذا الانتقال ؟ لقد تم ذلك طبيعيا ، دون أن أشعر وبغير مشقة · لقد كانت المفاجأة الاولى مروعـة : لقد وجـدتنى أنا الذى كنت احسب نفسى جديرا بالحب والتقدير ، انا الذى كنت أعتقد أننى مبجل معزز لاننى كنت أستحق ذلك ·· لقد وجدتنى فجأة فى اهاب وحش مرعب لم يك له من قبل ضريب ·

اننى لأرى جيلا كاملا يندفع بأسره نحو أعتناق هذا الرأىالعجيب دون تفسير أو شك أو خجل ، ودون أن أستطيع أن أصل قط إلى معرفة علة هذا الانقلاب الغريب . لقد ناضلت فى عنف ، وكأنما لم أعمل الا على احكام قيدى · لقد أردت أن أضطر مضطهدى الى التفاهم معى : ولكنهم لم يأبهوا ، وبعد أن طال تعذيبى دون نتيجة كان لابد لى من أن استرد انفاسى ، ومع ذلك فقد ظل الامل يراودنى دائما . وكنت احدث نفسى قائلا : « ان خبلا على هــذا القدر من التبلد ،وتمنعــا على هــذا القدر من السخف ، لايستطيع أن يشتمل الجنس البشرى قاطبة ، فهناك ذوو عقول لايسهمون فى هذا البنيان ، وهناك نفوس عدول تمقت المخاتلة والخونة · فلأبحث على الفى فى نهاية المطاف انسانا فان وجدته فقـــد « أفحموا » لقد بحثت عبثا ولكننى لم اجده مطلقا . ان التحالف شامل بغيراستثناء او رجعة واننى لواثق من أننى سأختتم حياتى فى هذا المعزل المخيف دون ان انفذ أبدا الى خفائه ·

اننى فى هذه الحالة التى تستحق الرثاء ، بعد مخاوف طويلة ، وجدت بدلا من اليأس الذى كأنما كان يجب أن يكون نصيبى فى نهاية الامر ، وجدت من جديد الصفاء والأمن والسلام بل السعادة ما دام كل يوم من

أيام حياتي يذكرني في غبطة بالامس الدابر حتى لاأطمع في غدي في أكثر من ذلك .

من أين يأتي هذا الاختلاف ؟ من أمر واحد : ذلك انني تعلمت كيف أحمل نير الحاجة دون تذمر ، ذلك انني كنت أجهد في أن أظل متعلقا كذلك بألف شيء ، وانه حين أفلتت مني تلك الدعائم تباعا واقتصرت على نفسي وحدي لقيت الاستقرار أخيرا . أما وقد ضيق على الخناق من كل جانب فانني أحتفظ بتوازني لانني لاأتعلق بشيء بعد ولا أعتمد على غير ذاتي .

انني حين كنت أثور في كثير من الحماس ضد الرأى العام كنت أحمل كذلك نيره دون أن أفطن الى ذلك . ان المرء ليود أن ينال التقدير ممن يقدرهم ، وكلما استطعت أن أظن بالناس ، أو ببعضهم على الاقل خيرا لم يكن ممكنا أن أهمل آراءهم كذلك بالنسبة لي . لقد كنت أرى أن حكم الرأى العام عادل في أغلب الامر ، ولكنني لم أكن ارى أن تلك العدالة نفسها كانت نتيجة مصادفة ، وأن الأسس التي يقيم عليها الناس آراءهم ليست مستمدة الا من أهوائهم أو من معتقداتهم التي هي ثمرتهما (أى الأهواء) ، وانه حتى عندما يصيبون في أحكامهم فانه غالبا ما تصدر كذلك هذه الاحكام الصائبة عن مبدأ فاسد كما يحدث عندما يتظاهرون بتشريف قدر امرىء لنجاح وصل اليه ، لابروح من العدالة ولكن ليتخذوا مظهر عدم التحيز وهم يغتابون نفس الشخص من نواح أخرى كما يروق لهم .

ولكنني حين رأيتهم ـ بعد كل هذا البحث الطويل العقيم ـ يظلون جميعا بغير استثناء في أشد النظم ظلما وسخفا استطاعت روح الشر أن تنشق عنها .. وحين رأيت انه عندما يتعلق الامر بي يطرد العقل من الرءوس والعدالة من القلوب جميعا ، وحين رأيت جيلا متهورا يستسلم بأسره لغضبة قادته العمياء ضد تعس لم يرتكب أبدا ، ولم يرد ، ولم يسبب أذى لانسان ، وحين ـ بعد أن جهدت عبثا في البحث عن انسان ، كان من الواجب على في نهاية الامر أن أطفىء سراجي وأصيح قائلا : لم يعد هناك بعد من انســـان . عندئذ بدأت أراني وحيدا على الارض وأدركت أن معاصرى لم يكونوا بالنسبة لي سوى كائنات آلية لاتتصرف الا بقوة الاندفاع التي لم اكن بمستطيع أن أقوم بعملية حسابية لحركتها الا عن طريق « قوانين الحركة » . ان أية نية أو أية عاطفة كنت أستطيع افتراضها في نفوسهم لم تك أبدا لتفسر لي مسلكهم نحوى في صـــورة أستطيع أن أدركها ، ومن ثم توقفت دخائل نفوسهم عن أن تكون شيئا ما بالنسبة لي . انني لم أعد أرى فيهم سوى كتل متفـــــاوتة الحركة مجردة أمامي من كل قيمة خلقية .

اننا ننظر أكثر ماننظر حين يصيبنا الأذى الى النية أكثر من نظرنا الى الأثر • ان قطعة من القرميد تسقط من سقف قد تكون اصابتها أشـد ، ولكنها لاتسبب من الايلام ما تسببه قطعة من الحجر تسدد عن قصد بيـد شريرة • ان الضربة قد لاتصيب الهدف أحيانا ولكن القصد لايخطىء مرماه ابدا . فالالم الحسي هو أقل ما يحسه المرء من اصابات القدر . وحين لايعرف الاشقياء الى من يعزون مايحسون من شقاء فانهم ينسبون الى القدر الذي يتمثلونه شخصا ، والذي يعيرونه عيونا وادراكا يستطيع بها ايلامهم عن قصد • وهـكذا يستشيط اللاعب غيظـا حين يصيبـه الغم من جراء الخسارة دون أن يدرى على من يصب جام غضبه • انه يتخيل قدرا يتعمد التحرش به عامدا لايلامه ، وحين يجد مايغذى غضبـه ، يحتد وتشتعل ثورته ضد العدو الذي توهمه • أما الرجل العاقـل الذي لايرى في كل مايحل به من رزايا سوى ضربات الضرورة العمياء فانه لاتعتريه هـــذه الاهتياجات المجنونة • انه يصرخ في أله ولكن دون هياج وبغير غضب ، وهو لايحس من الالم الذي غدا فريسة له بغير الاصابة المادية ، اما الضربات التي يتلقاها فمهما أصابت جسده فانها لا تصل قط الى قلبه •

انه لكثير أن يصل الامر في ذلك الى هذا الحد ، ولكن ليس هذا كل شيء ان توقف عنده • ان في هذا ايقافا للالم ولكن ذلك يعنى ترك الجذور ذلك لان هذه الجذور ليست في الكائنات الغريبة عنا بل هي في ذواتنا وهنا يتحتم العمل على اقتلاعها نهائيا • ان ذلك هو ماستشعرته جليا منذ بدات اعود الى نفسي . ان عقلي لايرى سوى سخافات في كل التفسيرات التي كنت أحاول أن أرجع اليها كل ما يحل بي • انني أدركت أن أسباب هذا كله وأدواته ووسائله كان يجب أن تكون عدما بالنسبة لي ما دامت مجهولة لدى ولا يستطاع تفسيرها ، وانه كان يتعين على أن أعد تفاصيل ماحل بي كما لو كانت من فعل القدر وحــده ، وما كان على ان أفترض توجيها أو قصدا او دافعا خلقيا، وانه كان يجب على أن أخضع لها دون تفكير ردون تمرد لان ذلك لم يكن مجديا ، وان كل ماكان على كذلك أن أقوم بعمله في هذه الدنيا ، اذ أعتبر نفسي فيها ككائن سلبي سلبية مطلقة ، هو انني يجب ألا أستنفد في مقاومة غير مجدية لقدري ماكان باقيا لي من قوة تعينني على احتماله • ذلك ماكنت أحدث نفسي به وكان عقلي وقلبي يؤمنان عليه ، ومع ذلك فقد كنت أحس بهذا القلب لايزال يتذمر •• من أين جاء هـذا التذمر ؟ لقد بحثت عنه ووجدته ، ان مصدره عزة النفس التي ــ بعـد أن استثيرت ضد الناس ــ ظلت تقاوم العقل •

ان هذا الكشف لم يكن من السهولة بالقدر الذى قد يظنه المرء لان بريئا مضطهدا يظل طويلا ينظر الى زهو فرديته الضئيلة كأنما هى حب مجرد للعدالة • ولكن ما أن يعرف كذلك النبع الحقيقى معرفة تامة حتى يغدو من اليسير انضابه أو ــ على الاقل ــ تحويله • ان احترام المرء لنفسه هو أكبر محرك للنفوس العزيزة، كما أن حب الذات ــ الغزير فى أوهامه ــ يتخفى ليتبدى للمرء وكأنما هو هذا الاحترام للنفس ، ولكن ما أن ينكشف ذلك الغش فى نهاية الامر ، ولا يعود حب الذات يستطيع أن يستخفى ، حتى لايعود هناك اذ ذاك مايخشى منه ، ومع أن المرء يقضى عليه فى صعوبة الا أنه يقهره على الاقل فى يسر •

انه لم يكن لدى أبدا ميل كبير للاعتداد بالنفس ولكن هذه العــاطفة المصطنعة كانت تتوقد فى نفسى حينما كنت فى المجتمع وبخاصة حين غدوت مؤلفا • ربما كان حظى منها لايزال أقل مما لدى غيرى ومع ذلك فقد كان لدى منها قدر هائل •

ان الدروس القاسية التى تلقيتها سرعان ما احتجزته فى حدوده الاولى انه (أى الاعتداد بالنفس) ابتدأ بالثورة ضد الظلم ولكنه انتهى بأن احتقره • وهو بانعكاسه على روحى وبقطعه للعلاقات الخارجية التى تجعله كثير المطالب وبعزوفى عن المقارنات والمفاضلات قنع بأن أكون طيبا بالنسبة لنفسى ، وعندئذ ــ وقد أصبح (الاعتداد بالنفس) حبا لذاتى ــ انتظم فى سلك الطبيعة ثانية وخلصنى من نير عرف المجتمع •

منذ ذلك الوقت استعدت سلام الروح بل وما يكاد يكون الهنــاء بعينه ، ذلك لانه فى أى موقف يجد المرء نفسه ، فانه لايشقى دائما الا بسببه (الاعتداد بالنفس) وحين يصمت ، والعقل يتكلم ، فان العقل يعزينا فى نهاية الامر عن كل الآلام التى كان تجنبها يتوقف علينا بل وانه يقضى مادامت لاتؤثر علينا فورا ، ذلك انه من المؤكد عند ئذ ان المرء يستطيع أن يتجنب أشد اصاباتها ايلاما بالكف عن الاهتمام بها • أنها لا شىء بالنسبة لمن لا يفكر فيها • ان الاساءات والاحن وهضم الحقوق والاهانات والمظالم ليست شيئا لمن لا يرى فى الآلام التى يقاسيها سوى الألم نفسه ، لا النية فيه ، ولمن لا تعتمد مكانته فى تقديره الشخصى على مايروق للآخرين أن يأذنوا له به • وكيفما يود الناس رؤيتى فانهم سوف لا يستطيعون تغيير ذاتى • اننى برغم قوتهم وبرغم كل دســائسهم الدفينة سأظل ــ مهمــا فعلوا ــ كمــا أنا ، بالرغم منهم . حقــا ان ميولهم من ناحيتى تؤثر على مركزى الفعــلى . ان الحــاجز الذى اقاموه بينهم وبينى يســلبنى كافة موارد القــوت والمعــونة فى شــيخوختى وعــوزى • انه يجعــل

من المال نفسه شيئا غير ذى نفع مادام لا يقوى على ان يوفر لى المطالب الضرورية . انه لم تعد هناك صلات ولامساعدات متبادلة ولامراسلات بينهم وبيني. أما وقد غدوت وحيدا بينهم فانه لم يعد لى من مورد سوى ذاتي فقط وهذا المورد شحيح فى سنى هذه وفى الحالة التى أنا عليها . ان هــذه الآلام بالغة ولكنها فقدت كل وطاتها على منذ عرفت كيف احتملها دون أن إثور بسببها . ان النواحى التى نستشعر فيها الحاجة الملحة نادرة دائما ؛ ويضاعف منها التبصر والخيال ، وان المرء يستشعر القلق ويشقى نفسه بسبب استمرار هذا الاحساس. واما بالنسبة لى فمهما أعلم اننى ساقاسى فى الغد فانه يكفى ؛ لأكون هادئا ، الا أقاسى اليوم . اننى لا أتأثر اطلاقا مما أتوقعه من شر ولكن فقط مما أحس ، وذلك مايجعله أمرا تافها ، ومادمت وحيدا ومريضا ومهملا على سريرى ؛ فاننى أستطيع ان أموت فوقه فاقة وبردا وجوعا دون ان يشق ذلك على أحد . ولكن ما أهمية ذلك ان لم يشق على أنا نفسى ، وكان اهتمامى بمصيرى ، مهما يكن ، أقل من اهتمام الآخرين به ! أليس هذا عبثا ، وعلى الاخص فى سنى هذه ؟ اننى تعلمت ان أرى بغير اكتراث الحياة والموت والمرض والصحة ، والغنى والفقر ، والمجد والعار على السواء . ان الشيوخ الآخرين جميعا يتوجسون من كل شيء ، وأما أنا فلا يقلقنى أى شيء ، اذ يستوى لدى كل ما يستطيع أن يحل بى ، وليس عدم المبالاة هذا ثمرة حكمتى ولكنه من عمل أعدائى اذ هو يصبح تعويضا عن الآلام التى يسببونهــا لى ؛ أما وقد جعلونى لا أتأثر بالشدائد فانهم أحسنوا الى أكثر مما لو انهم جنبونى رمياتها ، فقد كنت ساظل أتهيبها مادمت لم أجربها بدلا من أن اقهرها فلا أعود أخشاها .

ان هذا الميل يسلمنى ، وانا بين ما يعترض حياتى من صعاب ، الى اهمال ذاتى اهمالا يكاد يكون مطلقا كما لو كنت احيا أحيانا حياة رضية تماما . وفيما عدا اللحظات القصار التى يردنى فيها وجود الاشياء الى أشد ألوان الحيرة الموجعة ، فانه فيمــا بقى من زمن ــ وقد أسلمتنى ميولى الى العواطف التى تجتذبنى ــ يغتذى قلبى كذلك على المشاعر التى كان مخلوقا من أجلها فأستمتع بها مع الكائنات الخيالية التى تخلقها ، والتى تتقاسمها كما لو كانت تلك الكائنات موجودة فعلا . انها كائنة بالنسبة لى أنا من خلقتها ، فأنا لا أخشى أن تخوننى أو تهجرنى ، انها ستظل قائمة ، مادامت شقوتى ، وستكون كفيلة بأن تنسينى اياها .

ان كل شيء يعود بى الى حياتى السعيدة الحلوة التى ولدت من أجلها : اننى أقضى ثلاثة أرباع حياتى اما مشغولا بأمور ثقافية ، لطيفة مع ذلك ، أسلم لها فى لذة فكرى وحواسى ، أو فى صحبة بنات خيالى التى خلقتهــا

وفق رغبة قلبي ، والتي يغذي اتصالي بها مشاعره ، أو مع نفسي فقط راضيا عن ذاتي وقد افعمت هناء احس انني أستحقه . كان حبي لذاتي في هذه الامور جميعا يقوم بكل المهمة ، أما عزة النفس فليس لها دخل في ذلك . وليس الامر كذلك في اللحظات الكئيبة التي أقضيها كذلك بين الناس العوبة للاطفاتهم الخداعة ومجاملاتهم المنتفخة الفارغة ومكرهم المعسول. وعلى أي وجه تلقيتها فانه كان للكرامة عندئذ دورها. فالكراهية والضغينة اللتان أشهدهما في قلوبهم من خلال هذا الغلاف الغليظ تمزقان قلبي أسى ، هذا الى أن انسياقهم في غباء وراء فكرة اعتباري مغفلا تضيف الى هذا الاسى كذلك قدرا تافها من الغم هو ثمرة اعتداد بالنفس أبله، أحس بكل حماقته وان كنت لاأستطيع التغلب عليه . ان الجهود التي بذلتها لأتجلد أمام نظراتهم الشامتة والهازئة لا يمكن تصورها .. لقد مررت مائة مرة بالمتنزهات العامة وبالاماكن التي يكثر تردد الناس عليها وليس لي من هدف سوى رياضة نفسي على هذه المعارك المريرة ولكنني لم أعجز عن الوصول الى ذلك فحسب بل انني لم أتقدم البتة كذلك ، وقد خلفتني كل جهودي المضنية ، الفاشلة مع ذلك أيضا ، وقد أصبحت كما كنت من قبل من السهل ازعاجي واغاظتي واثارتي .

وحين كانت تسيطر على حواسي لم أكن أستطيع اطلاقا –مهماأفعل– ان أقاوم أنطباعاتها ، ولطالما أثر الشيء عليها (على الحواس) فان قلبي لايفتأ يتأثر بها ، ولكن تلك العواطف العابرة لاتدوم الا بقدر مايدوم الاحساس الذي يسببها . ان وجود الرجل الحقود يؤثر في تأثيرا عنيفا ، ولكن ما ان يختفي حتى تتوقف الانطباعة ، وحالما لا أعود أراه .. لا أفكر فيه بعد ، ومهما أعلم انه سيشغل بي فلن أستطيع أن أشغل به .

ان الالم الذي لاأحسه الآن مطلقـــا لايؤثر في على أي وجه ، وان مضطهدا لاأراه مطلقا ، هو لاشيء بالنسبة لي . انني أحس فضل مايضفيه هذا الموقف على من يتصرفون في مصيري . فليتصرفوا اذن كما يروق لهم بل انني أفضل كذلك أن يعذبوني دون مقاومة على أن أكره على التفـكير فيهم لأحتمي من ضرباتهم .

ان تأثير حواسي هذا على قلبي يسبب العذاب الوحيد في حياتي . انني حيث لايقع نظري على انسان لاأفكر البتة في مصيري فلا أعود أحس بهذا المصير ولا أعود أتألم . انني سعيد وراض حين لايكون هناك شاغل أو عقبة ، ولكنني نادرا ماأفلت من ضربة محسوسة ، وحين يكون تفكيري فيه ضئيلا فانه تكفي لازعاجي ايماءة أو نظرة حقد ألمحها أو كلمة مسمومة تلتقطها أذني أو خبيث ألقاه ، وكل ما أستطيع عمله في مثل هذه الحالة

أن أنسى سريعا جدا وأن أهرب • ان اضطراب قلبى يختفى باختفاء دافع الاضطراب وأعود الى السكينة حالما أكون وحيدا • ولئن أقلقنى أمر ما فهنا الخوف من أن ألقى فى طريقى أمراجديدا موجعا ، وعندئذ يكون عذابى الوحيد، ولكنه يكفى ليبدل من سعادتى • اننى أقطن فى وسط باريس ، وعند خروجى من منزلى أتحسر على الريف والوحدة ، ولكن ، على أن أبحث عنهما بعيدا حتى انه قبل أن أستطيع أن أتنفس كما أشاء أجد فى طريقى الف شيء يعتصر قلبى . وينقضى نصف النهار فى هموم قبل أن أصل الى الملاذ الذى أسعى اليه وأكون سعيدا على الاقل اذا ماتركت أكمل طريقى• ان اللحظة التى أفلت فيها من موكب الاشرار لهى لحظة ممتعة ، وحالما أجد نفسى تحت الاشـــجار وسط الخضرة أحسب اننى فى جنة على الارض وأتذوق متعة داخلية قوية كما لو كنت أسعد الاحياء طرا .

اننى لأذكر تماما أنه خلال فترات هنائى القصار كانت هذه الجولات الانفرادية نفسها التى أجدها اليوم بهذه المتعة، لاطعم لها بل وتثير ضيقى وحين كنت فى زيارة أحد الناس بالريف كانت تدفعنى الحاجة الى القيام بشيء من الرياضة وتنفس الهواء الطلق الى الخروج وحيدا فى أغلب الامر فكنت أخرج للتنزه ــ هاربا كلص ــ منطلقا الى الحدائق أو الريف • ولكن بدلا من أن أجد فيها الهدوء الممتع الذى أتذوقه فيها اليوم كنت أحمـــل اليها ثورة الافكار التافهة التى كنت اشغل بها فى المجتمع ، وكانت تلاحقنى هناك ذكرى الرفاق الذين خلفتهم ورائى • وفى عزلتى كانت عنجهيـــة عزة النفس وصخب الناس تطفىء فى ناظرى نضارة الأعراش وتزعج أمن الانعزال . ومهما كنت أوغل هاربا فى أعماق الغابة كانت تلاحقنى حيثما ذهبت جماعة ثقيلة فتحجب عنى الطبيعة جميعا • ولم يحدث اننى عدت فوجدتها بكل مفاتنها الا بعد أن تخلصت من العواطف الاجتماعيـــة ومن موكبها التعس •

ولما كنت مقتنعا باستحالة اشتمالى لهذه الحركات البدائية غير الارادية ، فقد كففت عن بذل جهودى فى هذا المضمار • اننى أدع دمى يتقد ، والغضب والاستنكار يستحوذان على حواسى لدى كل لطمة • اننى أترك للطبيعة هذا الانفجار الاول الذىلم تكن قواى جميعا لتستطيع ايقافه أو تعطيله • اننى احاول فقط ايقاف مايستتبعه ذلك قبل أن يكون له أى أثر • ان العيون التى يتطاير منها الشرر ، واحتقان الوجه ، وارتعاش الاطراف ، والخفقان الخانق •• كل هذا يرجع الى الحس وحده ولا يملك التعقل حيالها شيئا • ولكن بعد أن يترك للسجية أن تطلق انفجاراتهـــا الاولى لتعمل عملها ، يستطيع المرء أن يصبح مرة أخرى سيد نفسه الحقيقى

وهو يستعيد حواسه شيئا فشيئا • ان ذلك هو ماحاولت عمله دهرا طويلا دون أن أنجح ، ولكن وفقت اليه في نهاية الامر • وبعــد أن توقفت عن استخدام قوتي في مقاومة غير مجدية ، أراني أنتظر لحظة الانتظار تاركا التصرف لعقلي ، ذلك لانه لايتحدث الى الا حينما يستطيع أن يجعلني أصغي اليه • ايه ماذا أقول ؟ واأسفاه •• عقلي ؟ انني لأكون جد مخطيء كذلك ان أنا نسبت اليه شرف هذا الانتصار • ذلك لانه لانصيب له فيه : ان كل شيء يصدر كذلك عن مزاج متقلب تهزه ريح عاتية ولكنه يعود الى الهدوء في اللحظة التي تكف فيها الريح عن الهبوب • انه طبعي المتوقد الذي يثيرني ، وانه لطبعي المتراخي الذي يهدئني • انني لأستسلم لكل الحوافز الحالية : ان كل صدمة تمنحني حركة قوية وقصيرة ، وما ألا تعود هناك صدمة حتى تتوقف الحركة ، ولا يمكن أن يطول أمد أي من آثارها في نفسي أن كل احداث القدر وكل مؤامرات البشر قلما تستطيع أن تنال من أمرىء بهذا التكوين • كان من الواجب أن تتجدد الانطباعة في كل لحظة كي يدوم احساسي بالآلام ، ذلك لان الفترات مهما قصرت تكفي لتعيدني الى نفسي • انني مايرضاه الناس طالما استطاعوا التأثير على حواسي ، ولكنني أصبح ثانية ماأرادته الطبيعة بمجرد تراخيهم ، وتلك ــ مهما كان في مقدورهم أن يفعلوا ــ حالي الأكثر استقرارا التي أتذوق عن طريقها ــ برغم القدر ــ سعادة أحس انني خلقت لها • لقد وصفت تلك الحالة في واحد من أحلام يقظتي (١) وانه ليروقني جدا حتى انني لا أرغب في أمر آخر سوى دوامها ولا أخشى الا أن أراها تتكدر . أما الألم الذي سببه الناس لي فلا يؤثر في بأية حال • ان الخوف وحده من الالم الذي لايزال في امكانهم أن يسببوه لي هو الكفيل وحده بأن يثيرني ، وأما وقد غدوت على ثقة من أنهم لم تعد لديهم من وسيلة جديدة للنيل مني يستطيعون عن طريقها أن يؤثروا في باحساس مقيم ، فانني لأسخر من كل مكائدهم وأستمتع بذاتي بالرغم منهم •

---

(١) يقصد روسو هنا ماكتبه في معنى السعادة في الجولة الخامسة .

الجولة التاسعة

السعادة حالة مقيمة لاتبدو وكأنما هيئت للانسان فى الحياة الدنيا. ان كل ماعلى الارض فى مد متواصل لايسمح لشيء بأن يتخذ سمة ثابتة . أن كل شيء يتغير من حولنا . اننا انفسنا تتغير وليس هناك من يستطيع ان يطمئن الى أنه سيحب فى الغد مايحبـــه اليوم ، ومن ثم كانت كل مشروعات الهناء لهذه الحيـــاة اوهاما . فلنغتنم رضا النفس حين يقبل ولنحذر من أن نباعد فيما بيننا وبينه بخطئنا ؛ ولكن لاينبغى أن نقدم على مشروعات تقيده لان تلك المشروعات محض جنون . اننى قلما رأيت قوما سعداء بل ربما لم التق بانسان سعيد ، ولكننى طالما شهدت قلوبا راضية. ومن بين كل ما أثر فى كان ذلك الذى أرضانى شخصيا أكثر الرضا اننى أعتقد أن هذا تتابع طبيعى لسلطان الاحاسيس على مشاعرى الداخلية . ان السعادة ليست لها دلالة خارجية ، ولكى نتعرف عليها يجب أن نطالع قلب الانســان السعيد . أما الرضـــا فيقرأ فى العينين وفى المظهر وفى اللهجة وفى السلوك ويبدو وكأنما ينتقل الى من يلحظه . أهنـــاك فرحة أحلى من أن نرى شعبا بأكمله ينغمس فى المرح يوم عيـــد ، ومن أن نرى كل القلوب تتفتح للأشعة المنتشرة ، للمتعة التى تمر سريعة ، ولكن قوية ، فى ثنايا سحائب الحياة ؟

حدث منذ ثلاثة أيام ان جاء م.ب. M.P. فى عجلة غير عادية ليرينى ماكتبه السيد دلامبير M. d'Alembert (١) فى مديح مـدام جيوفرين L'Eloge de Mme Geoffrin

---

(١) دالامبير D'Alembert (١٧١٧ – ١٧٨٣) ، كاتب وفيلسوف فرنسى أحـد مؤسسى دائرة المعارف الفرنسية L'Encyclopédie وعضو بأكاديمية العلوم .
والمقصود هنا خطابان أرسلهما الى كوندورسيه Condorcet نشر عام ١٧٧٧ .
(كوندورسه فيلسوف فرنسى كان سكرتيرا دائما لمجمع العلوم) .
(Oeuvres postumes de l'Alembert, Paris. T.I. p.p. 132 - 271.)
واما مدام جيوفرين Mme Geoffrin فهى سيدة صديقة للفلاسفة كانت تستقبلهم فى « صالونها » =

وقد سبقت المطالعة قهقهات طويلة مدوية على الجديد المضحك مما جاء في هذه القطعة ، وعلى التلاعب الهازل بالالفاظ الذى قال انها زخرت به • وقد بدأ القراءة وهو لايزال يضحك وكنت أصغى اليه فى جد ساخرا منه وحين رأى انني لاأجاريه مطلقا توقف فى نهاية الامر عن الضحك . وكانت الفقرة الأطول والاكثر تكلفا من هذه القطعة تدور حول المتعة التى كانت تحسها مدام جيوفرين عند رؤيتهـــا للاطفال ودفعهم للحديث • وقد استقى الكاتب ــ عن وجه حق ــ دليلا على كرم الطبع من وراء هذا الميل • ولكنه لم يكن يقف عند هذا الحد فكان يتهم فى اصرار بلؤم الطبع والشر كل من لم تكن لهم نفس الميول حتى انه قال ان المرء لو سأل من يقادون الى المشنقة أو عجلة التعذيب فانهم جميعا سيجمعون على انهـــم لم يكونوا يحبون الاطفال • كان لهذه المزاعم أثر فريد فى المكان الذى جاءت به • وعلى فرض أن ذلك كله صحيح أفكانت تلك مناسبة قوله ؟ أو كان من الواجب أن يفسد مديح امرأة لها تقديرها بصور عن الاعدام والمذنبين ؟ لقد أدركت في يسر سبب ذلك التصنع القبيح ، وحين انتهى م • ب • M.P. من القراءة كاشفا عما ظهر لى طيبا فى المديح ، علقت بأن الكاتب حين كان يسطر ماكتب كان يحمل فى قلبه من الود أقل مما يحمل من الكراهية .

وفى اليوم التالى ، وكان الجو لطيفا ــ ولو أنه كان باردا ــ قمت بجولة حتى المدرسة الحربية (١) وفى حسبانى ان أجد هناك طحالب

ــ وهذا بعض ما كتبه دالامبير :

« كان لمدام جيوفرين كل ميول روح حساسة حلوة . لقد كانت تحب الاطفال بشغف ولم تكن ترى من بينهم واحدا دون أن ترق له . كانت تهتم ببراءة وضعف هـذه السن . وكانت تحب أن تلحظ فيهم الطبيعة التى ــ بفضل عاداتنا ــ اصبحت لاترى الا في الطفولة . كانت تسر من التحدث معهم ومن توجيه الاسئلة اليهم وكانت تضيق بالمربيات اللواتى كن يوحين اليهم بالاجابة . وكانت تقول لهن : « اننى افضـل اجاباتهم الساذجة عما تملين عليهم » . وتضيف قائلة « وددت لو وجه هذا السؤال الى كل من التعساء الذين سيلقون الموت بسبب جرائمهم : هل أحببتم الاطفال ؟ واننى لواثقة أن الاجابة ستكون نفيا » .

ويستطيع المرء أن يحكم من ذلك بأنها كانت تنظر الى الابوة كألذ متعة في الطبيعة ولكن كلما ازدادت قداسة هـذه المتعة لديها ودت لو كانت ظاهرة خاليـة من المنغصات • ومن اجل ذلك كانت ترجو من لم يكن لديهم مال من بين أصدقائها الا يتزوجوا وكانت تقول لهم « ماذا سيكون مصير أطفالكم الفقراء ان فقدوكم في سن مبكرة ؟ فكروا في الرعب الذى يستولى عليكم في ساعاتكم الاخيرة حين تتركونهم اشقياء من بعدكم ... أولئك الذين كانوا أعز الناس لديكم » .

(١) المدرسة الحربية في وسط باريس وتمتد منها الى « شان دومارس Champ de Mars مروج خضراء لايزال معظمها موجودا الى الآن .

مزهرة ، وأثناء ذهابي ، استغرقت في حلم موضوعه زيارة الامس وما كتبه مسيو دالمبير M. d'Alembert حيث كنت أعتقد تماما ان التركيبات الاضافية لم توضع بغير هدف ، وان مجرد التكلف لاحضار هذه الجزازة (الملزمة) لي — لي أنا من يخفون كل شيء عنه — عرفني تماما ماذا كان الهدف منها . لقد كنت وضعت صغاري في ملجأ اللقطاء (١) وكان هذا كافيا كي أبدو في صورة أب فاسد ، ومن ثم — فبالتمادي في هذه الفكرة واحتضانها — يستطيع المرء أن ينتزع منها تدريجيا نتيجة بديهية هي أنني كنت أكره الاطفال . وبتتبع سلسلة هذه المراحل عن طريق الفكر ، كنت معجبا بالفن الذي تستطيع به الصناعة الانسانية أن تحول الأشياء من الأبيض الى الأسود . ذلك لانني لاأعتقد مطلقا ان هناك انسانا أحب أكثر مني رؤية الصغار يمزحون ويلعبون معا ، وغالبا ماتوقفت في الطريق وفي نزهاتي لأشهد مداعباتهم والعابهم الصغيرة في شغف لا أرى غيري يشاركني فيه . وفي اليوم نفسه الذي قدم فيه م.ب. M.P. — قبل زيارته بساعة — كان في زيارتي صغيران من أبناء سوسوا Soussoi هما أصغر أولاد مضيفي ، وكان أكبرهما يناهز السابعة من عمره ، وقد قدما لتقبيلي في اخلاص .. وبادلتهما بحنان كبير ملاطفتهما حتى بدا عليهمـــا — رغم فارق السن — سرور صادق بصحبتي . وأما بالنسبة لي فقد طرت فرحا حين أدركت أن شكلي العجوز لم ينفرهما ، بل ان الاصغر بدا وكأنما تقدم نحوي مختارا حتى أنني أحسست في طفولة تزيد عن طفولتهمـــا بأنني قد تعلقت به مفضلا اياه ونظرت اليه وهو يبرح المكان في أسف وكأنما كان ابنا لي .

انني أدرك أن اللوم على وضع أطفالي في ملجأ اللقطاء ، انحدر في يسر مع قليل من التحوير ، الى لوم على أنني أب فاسد وعلى كراهية للاطفال ، ومع ذلك فمن المؤكد أن الخوف من مصير أسوأ ألف مرة بالنسبة لهم — ويكاد لايمكن تحاشيه بأية وسيلة أخرى — هو أشد ماجعلني اصر عـلى اتخـــاذ هذه الخطوة . وما دام لا يعنيني ماذا كان يمكن أن يصبحوا .

---

(١) ملجأ اللقطـــاء Les Enfants Trouvés مؤسسة يرجع انشاؤها الى القـرن السابع عشر ، أودع فيه روسو كما يقول اولاده الخمسة وظل ضميره يؤنبه على فعلته طيلة حياته . وقد اثار روسو بنفسه تلك المسالة الهامة عدة مرات : مرة في الجولة الرابعة في « أحلام اليقظة » ، واخرى في الاعترافات « الكتاب السابع والثامن » ، وفي كتابه « اميل » (الجزء الاول) .. وفي خطاب الى مدام دوفرانكي Mme de Francueil في ٢٠ من ابريل ١٧٥١ . وكذا في خطاب الى مدام دوشونســو Mme de Chenonceau في ٧١ من يناير ١٧٧٠ والى المســيو دوسان جرمان Mr. de Saint-Germain في ٢٦ من فبراير ١٧٧٠ وفيها جميعا يحكم روســو على نفسه بناء على احساساته ومشاعره لا على أفعاله .

ومادمت غير قادر على تنشئتهم بنفسى ، فانه كان من الواجب فى موقفى أن أدع أمر تنشئتهم لامهم ، التى ربما أفسدتهم ، ولأسرتها التى ربما جعلت منهم شياطين . اننى لا أزال أرتعد كلما فكرت فى ذلك . إن ما صنعه محمد بسعيد (١) ليس شيئا بجانب ماكان يمكن أن يصنع بهم حيـالى وان الشراك التى تصبت لى فيما يتصل بذلك الامر فيما بعد تؤكد لى الى حد كبير أن الخطة كانت معدة من قبل . والحقيقة أننى كنت أبعد من أن أتكهن حينئذ بهذه الدسائس الفظيعة ، ولكننى كنت أعرف أن أقل أنواع التربية خطورة بالنسبة لهم هى تربية ملجأ اللقطاء فأودعتهم اياه . وربما كنت أعاود فعل ذلك وبقدر من التردد أقل بكثير أيضا اذا ما استوجب الامر ذلك . وانى لأعلم تمام العلم أنه ما من أب أشد حنانا مما كان من الممكن أن أكونه بالنسبة لهم مهما ضؤل عون الاعتياد للطبيعة .

لئن كنت قد أحرزت بعض النجاح فى معرفة القلب الانسانى فان السرور الذى كنت أحسه لدى رؤية الاطفال وملاحظتهم هو ما أكسبنى هذه المعرفة ، ونفس هذا السرور فى شبابى هو الذى وضع فى طريقها نوعا من العقبات ، ذلك لاننى كنت ألهو مع الاطفال فى مرح شـديد وبنفس خالصة حتى لم أكن أفكر مطلقا فى أن أدرسهم . ولكن حين تقدمت بى السن ولاحظت أن شكلى المتهدم يزعجهم امتنعت عن مضايقتهم ، وفضلت أن أحرم من متعة عن أن أكدر عليهم صفوهم . وأما وقد قنعت بارضاء نفسى بمشاهدة العابهم وكل تصرفاتهم الصغيرة ، فقد وجدت التعويض عن تضحيتى فى الأضواء التى يسرت لى الحصول عليهـا هذه الملاحظات عن الحركات الاولى والحقيقية للطبيعة ، هذه الحركات التى لايعرف كل علمائنا عنها شيئا . ولقد ضمنت كتاباتى الدليل على أننى قمت بهذا البحث فى عناية بالغة لايمكن معها أن أكون قد قمت به بغير لذة . ومن المؤكد أنه سيكون من أبعد الأمور تصديقا أن الـ «هلويز» Heloise و «اميل» Emile كانا من عمل رجل لم يحب الاطفال .

انه لم يكن لى أبدا حضور البديهة ولا زلاقة اللسان ، ولكن منذ أن حلت بى المصائب تزايد ارتباك لسانى وعقلى . ان الفكرة واللفظ المناسب يضيعان منى على السواء ، فما من شىء يتطلب تمييزا أفضل ، أو اختيارا لتعبيرات أدق ، أكثر من الاحاديث التى نتبادلها مع الاطفال ، ومما يزيد أيضا من هذا الارتباك لدى هو اصغاء المستمعين ، وما يضفونه من تأويلات

(١) نحن لاندرى مايقصده روسو هنا بما صنعه النبى محمد بشخص يدعى سعيد ، وربما كان ذلك مثلا يتداول فى ذلك الوقت دلالة على نوع من التعصب الدينى ولو أن الديانة الاسلامية تخلو تماما من مثل ذلك .

روزن لكل مايصدر عن شخص يفترض فيه ، وقد كتب خصيصا للاطفال: ألا يخاطبهم الا وحيا • ان هذا الحرج البالغ وما أستشعره من عجز ، يربكني ويحيرني وربما كنت أروح نفسا أمام أحد ملوك آسيا مني أمام طفل على أن أستدرجه الى الثرثرة !

وهناك عائق آخر يبقيني الآن أكثر بعدا عنهم • انني منذ حلت بي المصائب أراهم بنفس السرور دائما ، ولكن لم تعد لي بهم نفس الألفة • ان الاطفال لايحبون الشيخوخة • ان منظر الطبيعة الآفلة كريه في عيونهم • ان نفورهم الذي الحظه يحزنني ، وانني لأفضل أن أمتنع عن ملاطفاتهم عن أن أسبب لهم ضيقا أو اشمئزازا •

ان هذا الدافع الذي لايؤثر الا في النفوس المحبة حقا لاقيمة له لدى كل علمائنا وعالماتنا • ولم تكن مدام جيوفرين لتضيق الا أقل القليل بأن يجد الاطفال متعة في صحبتها مادامت تجد هي هذه المتعة معهم ، وأما بالنسبة لي فان هذه المتعة تكون أسوأ من عدمها • انها سلبية حينما تعوزها المشاركة ، فأنا لم أعد بعد في مركز أو سن أرى فيهما القلب الصغير لطفل يتفتح مع قلبي • لئن أمكن حدوث ذلك لي أيضا فان هذه المتعة — التي أضحت أشد ندرة — لاتصبح بالنسبة لي الا أكثر قوة وكنت أحسها تماما ذلك الصباح بسبب ما لقيته من ملاطفة صغار عائلة سوسوا Soussoi لا لان الخادمة التي كانت تصحبهم لم تثر احترامي ، وانني لم أكن أحس بالحاجة الى أن يصغى الى أمامها ، بل كذلك لان الروح المرحة التي صاحبت اقترابهم مني لم تبرحهم قط ، ولانهم لم يظهروا استياء أو ضيقا وهم في صحبتي •

آه لو كانت لاتزال لدى بضع لحظات من ملاطفات بريئة صادرة عن القلب،قد لاتصدر الا عن طفل لايزال صغيرا ! لو أمكنني أن أرى أيضا في بعض العيون الفرحة والرضا بوجودها معي فكم اذا من شرور وآلام كانت تعوضني عنها انصباحات قلبي القصيرة ، الحلوة مع ذلك ! آه : انني لن أكون مضطرا الى البحث بين البهائم عن نظرة العطف التي أباها على الآدميون منذ الآن • انني أستطيع أن أدلل على ذلك بقليل جدا من الامثلة التي هي دائما عزيزة بين ذكرياتي • وهاك مثلا كان حريا أن أنساه تقريبا في أية مناسبة أخرى يصور الأثر الذي خلفه في كل ماأعانيه من شقاء • حدث منذ عامين وأنا ذاهب لأتنزه في ناحية نوفيل فرانس Nouvelle France أن توغلت مبعدا ثم إنعطفت يسارا مستهدفا الدوران حول مونمارتر Montmartre فاخترقت قرية « كلينيانكور Clignancourt وكنت أسير لاهيا وحالما ، دون

ان انظر الى ما حولى ، حتى احسست فجأة بركبتى وقد أمسك بهما ، ونظرت فوجدت طفلا صغيرا بين الخامسة والسادسة يحيط بركبتى بكل قوته وهو يتطلع الى فى ألفة وحنان حتى تحركت جوانحى ، فأخذت أقول لنفسى : انه كان من الممكن أن أعامل على هذا النحو من صغارى . وأخذت الطفـــل بين ذراعى وقبلته مرات فى فرح شـــديد ثم تابعت مسيرى . وأحسست خلال ذلك اننى أفتقـد شـيئا ما ، وردتنى على أعقـابى حاجة طارئة . لقد كنت اليوم نفسى على تركى الطفل فجأة على هــذه الصورة واعتقدت اننى أرى فى عمله ــ بغير سبب ظاهر ــ نوعا من الوحى لا تجدر الاستهانة به . وأخيرا وقد استسلمت للاغراء ، ارتددت على أعقـــابى وركضت نحو الطفل وعاودت تقبيله ومنحته ما يشترى به من فطائر نانتير Nanterre التى كان يمر بائعها هناك مصادفة . وبدأت أدفعه للثرثرة ، فسألته عن مكان أبيه فدلنى على أنه هو ذلك الذى يحزم البراميل ، وكنت اتهيأ لترك الطفل لأتوجه للتحدث معه عندما وجدت أنه قد سبقنى اليه رجل عابس الوجه بدا لى وكأنما هو احدى تلك الحشرات التى يطلقهـــا الناس فى أعقابى .

وبينما كان هذا الرجل يسر اليه شيئا فى أذنه اذ شاهدت عينى حازم البراميل تستقران على فى انتباه بنظرة ليس فيهـــا شىء من الود . وقد اعتصر قلبى هذا الامر على الفور . فتركت الأب والطفل فى سرعة تزيد عما استغرقته فترة ارتدادى على أعقابى اليه من قبل ، ولكن فى قلق ــ أقل بعثا للرضا ــ غير من مشاعرى جميعا . ومع ذلك فغالبا ما أحسست بها تبعث فى نفسى من جديد منذ ذلك الحين . لقد عاودت المرور كثيرا ب « كلينيانكور Clignancourt بأمل معاودة رؤية ذلك الطفل ، ولكن لم اعد أراه لا هو ولا أباه ولم يبق لى من تلك المقابلة سوى ذكرى حية تختلط دائما بالحلاوة والمرارة ككل الانفعالات التى لا تزال تنفذ أحيـــانا حتى قلبى .

ان هناك عزاء عن كل شىء : لئن كانت لحظات سرورى نادرة وقصيرة فاننى أتذوقها ــ حين تمر بى ــ فى لذة أشد مما لو كانت مألوفة لدى . اننى اجترها ــ كما يقـــال ــ عن طريق الذكريات الكثيرة ، ومهما تبلغ ندرتها فربما أكون أكثر سعادة ــ اذا كانت نقية خالصة ــ منى فى أسعد أوقاتى . ان المرء يحسن الغنى فى القليل حين تبلغ الفاقة به أشدها ، وان الصعلوك الذى يعثر على قطعة écu (١) من العملة يتأثر بذلك أكثر من تأثر غنى يعثر على كيس من الذهب . ان المرء ليضحك ان شهد فى نفسى

---

(١) l'écu قطعة من العملة الفضية القديمة .

الانطباعة التي تخلفها أقل المسرات من ذلك النوع ، والتي أستطيع أن اختلسها برغم يقظة مضطهدى • وقد عرضت واحدة من أمتعها منذ أربع أو خمس سنوات لا أكاد أذكرها الا وأحس بنشوة الراحة لأنني قد استمتعت بها تماما •

لقد توجهنا - زوجتي وأنا - ذات أحد لتناول طعام الغذاء عند بوابة مايو Maillot واخترقنا بعد الغذاء غابة بولوني Bologne حتى لاميت La Muette وهناك اقتعدنا الاعشاب في الظل في انتظار مغيب الشمس حتى نعود بعد ذلك الهوينا عن طريق باسى Passy • وجاءت عشرون فتاة تشرف عليهن راهبة وجلس بعضهن وأخذ البعض الآخر يمرحن على مقربة منا • وفى أثناء لعبهن مر بائع حلوى يحمل « طبلته واسطوانته ودولابه » باحثا عن مشترين ، وقد لاحظت أن الفتيات الصغيرات كن يشتهين كثيرا قراطيسه ، ويبدو أن اثنتين أو ثلاثة منهن كن يحملن معهن بعض الـ « ليارات liards (١) » فسألن الاذن باللعب ، وفى حين كانت المشرفة تتردد وتناقش • • ناديت بائع الحلوى وقلت له : دع كلا من هاته الآنسات تسحب بدورها وسأدفع لك عن الجميع • وقد أشاعت هذه الكلمة الفرحة فى الجماعة كلها ، هذه الفرحة التي كانت وحدها تعدل أكثر مما فى كيس نقودى لو انني استخدمت كل ما به للحصول عليها • ولما رأيت كل واحدة منهن تتعجل دورها باستعمال شيء من الفوضى ، رتبتهن جميعا - بعد موافقة المشرفة - فى صف فى ناحية واحدة ، ثم أمررتهن الى الناحية المقابلة الواحدة بعد الاخرى بمجرد أن يقمن بالسحب • وبرغم أنه لم تكن هناك تذكرة بيضاء وأنه كان من نصيب كل منهن قرطاس على الاقل اذا لم يقدر لبعضهن الفوز حتى لا تعود واحدة منهن غير راضية تماما ، فقد أسررت الى بائع الحلوى - مستهدفا أن أزيد من فرحة المناسبة - أن يستخدم مهارته المعتادة فى اتجاهها المضاد ، وذلك بأن يسقط بقدر المستطاع أكثر ما يمكن من الأنصبة الطيبة ، واننى سأراعى ذلك عند محاسبته • وقد وزع من طريق هذا التدبير ، ما يقرب من مائة قرطاس بالرغم من أن واحدة من الفتيات لم تسحب أكثر من مرة واحدة، ذلك لانني كنت اذ ذاك حازما بحيث لم أكن أود تحبيذ الافراط أو اظهار مفاضلات قد تبعث على الاستياء• وقد أوحت زوجتي الى من كان من حظهن أنصبة طيبة أن يشركن فيها زميلاتهن حتى تكون الأنصبة شبه متساوية وحتى تكون الفرحة أعم•

وقد رجوت الراهبة أن تسحب بدورها ، وأنا شديد الخشية أن ترفض عرضى باحتقار ، ووافقت فى رقة وسحبت ، كما فعلت الطالبات ،

(١) Le liard قطعة من العملة النحاسية القديمة .

واخذت من غير كلفة ما جاءها ، واعترفت لها بفضل بالغ ووجدت فى ذلك نوعا من التهذيب شد ماراقنى ، وأعتقد انه يفوق أدب تكلف الرفض • وخلال كل هذه العملية وقعت منازعات عرضت على محكمتى وجاءت هذه الفتيات تدافع كل بدورها عن قضيتها وأعطيننى بذلك فرصة لألاحظ أنه برغم عدم وجود واحدة جميلة بينهن فان رقة بعضهن كانت تنسى المرء قبحهن •

وأخيرا افترقنا وكل راض جدا عن صاحبه • وكان عصر ذلك اليوم واحدا من تلك الايام فى حيــاتى التى أستعيد ذكراها بأكبر قدر من الارتياح • وفضلا على ذلك فان الاحتفال لم يفلسنى اذ أنه مقــابل ثلاثين « صلديا sols (١) » على أكثر تقدير حصلت على ما يساوى أكثر من مائة « ليار » liards من السرور ولو أن المتعة فى الواقع لا تقاس بما ينفق فى سبيلها ، والفرحة أشد صداقة لل « ليار » منها للجنيه • لقد عدت مرات كثيرة الى المــكان نفسه فى الساعة نفسها أملا أن ألقى هنــاك مرة أخرى المجموعة الصغيرة ولكن هذا لم يحدث أبدا •

ان هذا يذكرنى بتسلية أخرى من النوع نفسه تقريبا ظلت ذكراها مقيمة أمدا أطول من هذه : كان ذلك فى العهد المنكود عندما كنت ، وأنا أخالط الاغنياء والادباء ، مضطرا الى مشاركتهم متعهم الكئيبة • كنت فى « لاشــفريت La Chevrette (٢) » فى وقت عيد رب الدار وكانت أسرته بأكملها مجتمعة لاحيائه واستخدمت لهذه المناســبة كل مظاهر السرور الصاخب فلم يدخر شىء من تمثيل الى مآدب الى صواريخ نارية ، ولم يكن هناك فراغ ليلتقط المرء أنفاسه بل انه كان يسلى نفسه بدلا من أن يمتعها• وبعد الغذاء خرجنا لاستنشاق الهواء فى الطريق حيث أقيم نوع من السوق هناك • وكان رقص ، وتنازل السادة فراقصوا الفلاحات ، أما السيدات فقد احتفظن بوقارهن وكانت تباع هناك فطائر حلوى des pains d'épice وخطر لشاب من الجماعة أن يشترى منها ليقذف بها الواحدة بعد الاخرى فى وسط الحفل ، وقد سر الناس كل السرور برؤية كل هؤلاء الاجلاف يتدافعون ويتضاربون وينقلبون ليحصلوا عليهــا ، حتى ود الجميع لو ينغمسون فى المتعة نفسها •• واستمرت الفطائر تتطاير يمنة ويسرة ، وظلت الفتيــات والصبية يجرون ويتســاقطون فــوق بعضهم البعض ويتداهسون وكان هذا يبدو رائعا للجميع • وفعلت مثلما فعل الآخرون بدافع الاستحياء وان كنت — فى قرارة نفسى — لم أتسل بقدر ما فعلوا ،

(١) الصلدى le sol عملة قديمة تعول ٥ سنتيم او واحد على عشرين من الفرنك .
(٢) لاشفريت La Chevrette هو قصر مدام ديناى d'Epinay بالقرب من مونمورنسى.

ولكن حالما تضايقت بسبب نفاد مالى فى سبيل دهس الناس ، خلفت هناك الصحاب وذهبت لأتجول وحيدا فى السوق . وقد أدخل تنوع المعروضات السرور فى نفسى طويلا ، ولاحظت من بين الموجودين خمسة أو ستة من أهل سفوا Savoyards يتحلقون فتاة صغيرة كان لا يزال على سفطها دستة من التفاح الضامر كانت تود لو أنها تخلصت منها . وكان السفوائيون من جانبهم يودون لو أنهم خلصوها منهـــا . ولكن لم يكونوا يملكون جميعا سوى « ليارين » أو ثلاثة وهذه لم تكن مخرجا كبيرا لاستخلاص التفاح . كان هذا السفط بالنسبة لهم حديقة هسبريد Hespérides (١) وكانت الفتاة هى التنين الذى يحرسها . وقد تسليت طويلا بهذه المزحة ووضعت خاتمة لها فى نهاية الامر ، وذلك بأن دفعت ثمن التفاح للفتاة الصغيرة وجعلتها توزعه على الصبية الصغار . وعندئذ شـــهدت واحدا من أحلى المناظر التى تستطيع أن تبهج قلب المرء ، هو رؤية الفرحة ممزوجة ببراءة السن تنتشر من حولى . ذلك لان الشهود أنفسهم شاركوا فيهـــا حين رأوها ، وأما أنا الذى شاركت فى هذه الفرحة بهذا الثمن الضئيل فقد زادت عليها لدى فرحة الاحساس بأنها كانت من صنيعى .

عند مقارنة هذه التسلية بنظائرها التى خلفتها للتو أحسست فى رضا بالفارق بين الميول السليمة والمتع الطبيعية وبين تلك التى تكون وليدة الثراء والتى ليست ســـوى متع ساخرة وميول خاصة هى ثمرة الاحتقار . ذلك لأن أى نوع من السرور ذلك الذى يستطيع المرء أن يجده فى مشاهدة قطعان من البشر أذلهم البؤس ساقطين فوق بعضهم البعض ويختنقون ويتداهمســـون فى خشونة لينتزعوا فى نهم بضع لقيمات من الفطائر وطئتها الاقدام وغطاها الوحل ؟ .

وأما من ناحيتى فاننى حين فكرت جيدا فى نـــوع اللذة التى كنت أتذوقها فى هذه الانواع من المناسبات ، وجدت أنها تكمن فى عاطفة عمل الخير أقل منها فى متعة التطلع الى وجوه راضية . ان لهذا المشهد فى نفسى سحرا ــ برغم نفاذه الى قلبى ــ يبدو كأنما هو صادر عن الحس وحده . ولئن لم أر الرضا الذى أكون مبعثه ــ حتى ولو كنت مستوثقا منه ــ فاننى لا أستمتع به الا نصف استمتاع ، بل هو كذلك بالنســـبة لى متعة غير مغرضة لا تتوقف على مبلغ نصيبى منها ، ذلك أنه من بين الاحتفـــالات الشعبية ، كان دائما أشد ما يجذبنى بقوة اليها هو الاحتفال الذى أشهد فيه وجوها مستبشرة . ومع ذلك فان هذه البغية طالما حرمت من تحقيقها

(١) هسبريد Hespérides هن ثلاث بنات لملك خرافي يدعى أطلس Atlas كن يملكن حديقة تنتج أشجارها ثمار تفاح من الذهب كان يحرسها تنين له مائة رأس .

فى فرنسا ، ذلك لان هذا الشعب الذى يدعى المرح قلما يبرزه فى العابه • انني غالبا ما كنت أذهب فيما مضى الى المراقص الماجنة لأشهد هناك افراد الطبقات الدنيا من الشعب يرقصون ، ولكن رقصاتهم كانت من الكآبة ، كما كان مظهرهم من الذبول والارتباك ، بحيث كنت أخرج محزونا أكثر مني مستمتعا • ولكن في جنيف وفي سويسرا حيث لا يتصاعد الضحك باستمرار في خبث شديد فان كل شيء يعبر عن الرضا والمرح في الأعياد • ان الشقاء لا يظهر هناك مطلقا بمظهره البشع كما أن التعاظم لا يبين عن محبة : فالامن والاخوة والترابط تهيىء القلوب للتفتح وكثيرا ما تشهد في غمرة المرح البرىء الاغراب يجلسون متجاورين متعانقين داعين بعضهم البعض الى الاستمتاع سويا بمباهج اليوم • ولم أكن في حاجة الى أن اكون واحدا منهم لأستمتع بهذه الحفلات اللطيفة ، بل كان حسبى أن اشهدهم فاشارك فيها بمشاهدتى اياهم ، وانني لشديد الثقة بأنه من بين كل الوجوه الضاحكة ليس هناك قلب أشد سعادة من قلبي •

وبالرغم من أن هذه ليست سوى متعة حسية فان لها من المؤكد علة روحية ، والدليل على ذلك أن هذا المشهد نفسه بدلا من أن يطربني ويعجبني يستطيع أن يمزقنى ألما وغضبا حين أدرك أن دلائل السرور والفرح هذه على وجوه الاشرار ليست سوى علامات على أنهم أشبعوا ما بنفوسهم من خبث •

إن المرح البرىء هو الذى تطرب دلائله قلبي ، أما دلائل المرح الوحشي الساخر فانها تمزقه وتحزنه برغم أنه قد لا تربطني به أية صلة مطلقا • ولا شك أن هذه الدلائل قد لا تكون هي نفسها تماما اذا ماصدرت عن مبادىء على هذا النحو من التباين : ولكن على أية حال •• سواء •• في دلالتها على المرح، وما من شك أن ما فيها من تباين محسوس لايتناسب وتباين الانتفاضات التى تثيرها فى نفسي :

أما دلائل الألم والعذاب فأنا أشد حساسية بالنسبة لها كذلك ، حتى أنه يستحيل على أن أتحملها دون أن أهتز أنا نفسى بانفعالات قد تكون كذلك أكثر حرارة من تلك التى ترمز اليها • ان الخيال بتدعيمه للحس ، يوحد ما بيني وبين المعذب من الناس ويسبب لى غالبا رعبا أشد مما يحس به هو نفسه • ان وجها ساخطا هو كذلك منظر يستحيل على احتماله وبخاصة ان كان هناك ما يحدونى الى الظن أن هذا السخط يتعلق بى • انني لن أستطيع أن أقول كم من نقود ابتز مني الغلمان الذين يلوح على سيماهم التذمر والاكتئاب وهم يقومون بالخدمة متهجمين فى المنازل التي بلغت مني الحماقة فيما مضى حد الاستسلام لمن يقودونني اليها ، وحيث جعلني الخدم دائما أدفع غاليا جدا ثمن ضيافة السادة • ولما كنت دائما

شديد التأثر بالامور الحساسة ، وبخاصة ما يحمل منها دلالة اللذة أو الألم ، العطف أو البغضاء ، فانني انقاد لهذه الانطباعات الخارجية دون أن أستطيع مطلقا ان أتحاشاها بغير طريق الهرب • ان اشارة او ايماءة أو نظرة من مجهول تكفي لتعكر على صفو سروري أو تسكن من آلامي • انني لا أكون ملك نفسي الا حين أكون وحيدا ، وأما فيما عدا ذلك فأنا العوبة في يد كل من يحيطون بي •

كنت فيما مضى أعيش مسرورا بين الناس حين كنت لا أرى في كل العيون سوى عطف أو ـ على أسوأ احتمال ـ عدم مبالاة في عيون اولئك الذين كنت مجهولا منهم • أما اليــــوم ، وهم لا يجدون مشقة في تنبيه الناس الى وجهي أقل مما يجــــدون في وضع قنــــاع على طبعي ، فانني لا أستطيع أن أخطو بقدمي في الطريق دون أن أراني محوطا بأشـــياء موجعة • انني أتعجل الوصول الى الريف بخطا واسعة وحالما أرى الخضرة أبدأ في التنفس • أمن عجب بعد ، انني أحب العزلة ؟ انني لا أرى على وجوه الناس سوى الضغن ، أما الطبيعة فانها تضحك لي دائما • وانني أشعر مع ذلك أيضا ـ ويجب أن أعترف بهذا ـ بمتعة في الحياة بين الناس طالما كان وجهي مجهولا لديهم ، ولكنها متعة لا تتاح لي مطلقا • لقد كنت منذ بضع سنوات ما أزال أحب أن أجول في القرى وأن أشهد في الصباح المزارعين يصلحون مدقاتهم والنساء على أبوابهن مع أطفالهم • ولست أدري ماذا كان يمس شغاف قلبي في ذلك المنظر كنت أتوقف أحيانا دون أن أنتبه لذلك لاتطلع الى ما يقوم به هؤلاء القوم من أعمال صغيرة • وكنت أجدني أتنهد دون أن اعرف لذلك سببا • وما أعلم اذا كان أحد قد رأى شغفي بهذه المتعة المتواضعة واذا كان أحد ود لحرمني منها كذلك ، ولكنني من التغير الذي ألحظه على الوجوه عند مروري ومن الطريقة التي ينظر الي بها ، أراني مضطرا أن أدرك أنهم حرصوا جد الحرص على حرماني من هذا التخفي • ولقد حدث نفس الامر لي ، وفي صـــــورة أكثر وضوحا ، في الانفاليد Invalides (١) • ان هذه المؤسسة الجميلة كانت دائما محل اهتمامي وانني لا أشهد دائما الا بحنان وتوقير تلك الجماعات من المسنين الطيبــين الذين يستطيعون أن يرددوا ما ردده شـــيوخ لاسيديمون Lacédémone (٢) •

---

(١) الانفاليد Les Invalides مبنى اثرى في باريس من عهد لويس الرابع عشر كان قد أقامه لإيواء مشوهي الحرب عام ١٦٧٠ م ، وقد حول فيما بعد (منذ ١٨٤٠ م) الى مكان يضم رفات كبار قواد فرنسا وعلى راسهم نابليون •

(٢) لاسيديمون La cèdémone (او اسبرطه Sparte) مدينة قديمة من مدائن اليونان •

لقد كنا فى سالف الزمان
شبانا شجعانا جسورين

كانت واحـــدة من جولاتى المفضلة جولتى المفضلة حول المدرسة الحربية وكنت أقابل مسرورا هنا وهنـــاك بعض مشوهى الحرب وقد احتفظوا بشهامتهم العسكرية القديمة فكانوا يحيوننى أثنـــاء مرورهم • كانت هذه التحية التى يردها قلبى مضاعفة مائة مرة تطربنى وتزيد من السرور الذى كنت أحسه لدى رؤيتهم • ولما كنت لا أعرف كيف أخفى شيئا مما يؤثر فى فاننى غالبا ما كنت أتحدث عنهم ، وعن كيفية تأثير منظرهم فى نفسى ، ولم يكن الامر يتطلب أكثر من ذلك • وبعد فترة من الزمان لاحظت أننى لم أعد مجهولا لديهم ، أو بالاحرى اننى غدوت أكثر من ذلك بالنسبة لهم ماداموا كانوا ينظرون الى بنفس العين التى ينظر عامة الناس الى بها فلم تعد هناك لا شهامة ولا تحايا • وقد حل محل ما كانوا عليه من تهذيب فى أول الامر روح جفاء ونظرة شزراء • ولما كانت الصراحة القديمة التى تتسم بها مهنتهم لا تسمح لهم ــ كالآخرين ــ بأن يحجبوا ضغنهم بقناع هازىء خداع فانهم أظهروا لى بوضوح مبين أعنف كراهية ، وهذه هى قمة شقائى ، حتى لأجدنى مكرها على أن أميز ، فى تقديرى ، اولئك الذين يخفون عنى سخطهم أقل من غيرهم •

منذ ذلك الحين وأنا أتنزه ، فى متعـة أقل ، بناحية الانفاليد ، ومع ذلك فما دامت مشاعرى نحوهم لا تعتمد على مشاعرهم نحوى فاننى لا أنظر أبدا بغير احترام وبغير اهتمام الى هؤلاء القدامى من الذائدين عن أوطانهم • ولكن من أقسى الامور على أن أجزى من ناحيتهم أسوأ الجزاء مقابل الصافى اياهم • ولئن حدث مصادفة أن لقيت من بينهم واحدا خرج على التعليمات المشتركة ، أو أنه لعدم معرفته صورتى لم يظهر نحوى اية بغضاء ، فان التحية الصـادقة من هذا وحده تعوضنى عن تمسك الآخرين الخشن • اننى لأنساهم حتى لا اشغل بسواه واننى لأتخيل أن له واحدة من هذه النفوس التى تشبه نفسى حيث لا تستطيع الكراهية أن تنفذ اليها •

وقد سعدت كذلك بهذه المتعة فى العام الماضى حين كنت أعبر المـاء لأذهب للتنزه فى جزيرة البجع وكان هناك محـــارب فقير مســـن فى قارب ينتظر مرافقـــا للعبور ، فتقدمت وطلبت الى صـــاحب القارب أن يرتحل • وكان التيار شديدا واستغرق العبور زمنا طويلا ، ولم أجد فى نفسى جراة كافية للتحدث الى هذا المحارب ، وربما كان ذلك خوفا من أن

أزجر وأصد كما هى العادة • ولكن هيئته النبيلة طمأنتنى فتجاذبنا أطراف الحديث ، وقد بدا لى رجـلا على عقل وخلق ، ودهشـت وفتنت بلهجته الصريحة الودية ولم أكن معتادا على مثل هذا العطف • ولكن دهشتى توقفت حين علمت أنه وصل حديثا من الاقاليم ، وفهمت منه أن أحدا لم يرشده بعد عنى ، أو يعطيه تعليماته • فاغتنمت هذا التخفى لاتحدث بضع لحظات مع انسان ، وأحسست من وراء العذوبة التى لقيتها كم تكون ندرة المتع الاكثر شيوعا قادرة على رفع قيمتها • وأثناء مبارحة القارب كان يعد « لياريه » البائسين ولكننى دفعت أجرة العبور ورجوته أن يعيد صر نقوده وأنا أرتعد خوفا من أن أستفزه • ولكن هذا لم يحدث، بل بالعكس فانه بدا متأثرا من لفتتى هذه ، ثم بخاصة من لفتة أخرى ، ذلك أنه لما كان أكبر منى سنا ، فقد عاونته على مغادرة القارب • من ذا يصدق أننى تصرفت كطفل حتى بكيت من الهناء ؟ لقد كنت شديد الرغبة فى أن أضع فى يده قطعة من ذات الاربعة والعشرين « صلديا » ليشترى تبغا ولكننى لم أجرؤ أبدا • كان نفس الخجل الذى ردنى هو الذى كثيرا ما كان يذودنى عن القيام بأطيب الاعمال التى كانت كفيلة بأن تغمرنى بالبهجة والتى لم أمتنع عنها الا وأنا أندب غبائى • وفى هذه المرة ـ بعد أن تركت محاربى القديم ـ سرعان ما تعزيت وأنا أفكر فى أننى ـ كما يقال ـ ربما كنت أتصرف ضد مبادئى الخاصة وأنا أخلط بالشريف من الامور ثمنا من المال يحط من نبلها ويدنس من نزاهتها • انه من الواجب أن يتعجل المرء مد يد المساعدة الى أولئك الذين هم فى حاجة اليها • ولكن لندع فى اتصالات الحياة العادية العطف الطبيعى والتهذيب يقوم كل بعمله دون أن يكون هناك مطلقا نهاز أو جشع يجرؤ أن يقترب من منبع بهذا الصفاء ليفسده أو يشوهه • انه يقال ان القوم فى هولندة يتقاضون ثمن اخطارك بالوقت أو ارشادك الى الطريق ، ولا بد أنه شعب يستحق بالغ الاحتقار ذلك الشعب الذى يتجر على هذا النحو بأبسط الواجبات الانسانية • لقد لاحظت أنه ليست هناك سوى أوربا وحدها التى يباع فيها كرم الضيافة • أما فى كل آسيا فانهم يستضيفونك بدون مقابل • واننى أدرك أن المرء لا يجد هناك كل راحته ، ولكن أليس هذا الا كما لو قال المرء لنفسه : اننى انسان وهأنذا أستقبل من ذوى الانسانية ، انها الانسانية الخالصة التى تمنحنى القوى ؟ ان الحرمان القليل يحتمل دون عناء اذا ما عومل القلب خيرا مما يعامل الجسد •

الجولة العاشرة

اليوم – يوم عيد الفصح المزهر – مرت خمسون سنة منذ اول معرفة لي بمدام دوفوراران Mme de Warens (١) وكانت في ذلك الوقت في الثامنة والعشرين اذ أنها ولدت مع مولد هذا القرن (٢) ، ولم أكن شارفت عندئذ السابعة عشرة ، وكان ميلي الوليد – وان كنت لا أزال أجهله مع ذلك – يمد بحرارة جديدة قلبا مليئا بطبيعته بالحياة . ولئن لم يكن عجيبا أنها أحست بعطف نحو شاب ملء بالحيوية ، وديع حيي ذي طلعة حسنة مع ذلك ، فانه كان أقل عجبا أن امرأة فاتنة ذكية رقيقة توحي الى – الى جانب اعترافي بفضلها – بمشاعر أكثر حنانا لم أكن أميزها . ولكن ما ليس طبيعيا أيضا ، هو أن هذه اللحظة الأولى كانت حاسمة في حياتي كلها وأنها خطت – بسحر لا يمكن الفكاك منه – مصير بقية أيامي . ان روحي التي لم تكن أعضائي البتة قد أنمت أغلى ملكاتها ، لم تكن لها بعد أية صورة واضحة الحدود . انها كانت تنتظر في نوع من القلق اللحظة التي يجب أن تعطيها اياها . وهذه اللحظة ، وقد عجلت بها هذه المقابلة ، لم تأت مبكرة برغم ذلك . ولقد لاحظت لأمد طويل – وأنا في بساطة الطباع التي منحتني اياها تربيتي – هذه الحال الهانئة ، السريعة مع ذلك ، حيث يستقر الحب والبراءة في القلب نفسه . كانت قد أبعدتني ، وكان كل شيء يذكرني بها فكان من الضروري أن أعود اليها ، وقد حددت مصيري هذه العودة . وقبل أن تكون لي بزمن طويل كذلك لم أكن أعيش الا بها ومن أجلها . آه لو انني أشبعت قلبها كما أشبعت هي قلبي ! كم من أيام آمنة حلوة كان من الممكن أن نمضيها معا ! لقد قضينا أمثالها ولكنها كانت قصيرة سريعة ، وأي قدر

---

(١) التقى روسو بمدام دو فواران de Warens في انسي Annecy في عام ١٧٢٨ ؛ وإذن فتاريخ كتابه الجولة العاشره الثانى من ابريل عام ١٧٧٨ وهى بذلك ترد ما جاء بالكتيب الثالث الى السادس من « الاعترافات » .

(٢) ولدت مدام دوفواران عام ١٦٩٩ .

ذلك الذى تبعها ! ما من يوم لا أتذكر فيه بنشوة وحنان هذه المرحلة الوحيدة القصيرة من عمرى التى كنت فيها بكل كيانى خالصا لذاتى بغير شائبة أو عائق ، وحيث أستطيع أن أقول اننى عشت ، اننى أستطيع أن أقول تقريبا كما قال مدير المحكمة الذى عزل فى عهد فسبازيان (١) Vespasien وذهب يختم أيامه فى ســــلام فى الريف ، « لقــد قضيت فوق الأرض سبعين سنة عشت منها سبعا » اننى بغير هذه الفترة القصيرة الثمينة مع ذلك ، ربما بقيت غير مستوثق من نفسى ، ذلك لأننى فى كل بقية حياتى ، وقد كنت ضعيفا لا أقـــاوم ، كانت أهواء الآخرين تهيجنى وتتقاذفنى وتتجاذبنى حتى أننى وقد غدوت شبه سلبى فى حياة عاصفة على هذه الصورة كان من الصعب أن أميز ما هو ذاتى فى سلوكى الشخصى ، من فرط ما ظلت الحاجة القاســـية تبهظنى • ولكن خــلال هذا العدد القليل من الســـنين : وقد أحبتنى امــرأة مليئة باللطف والرقة فعلت ما كنت أريد فعــله وكنت ما أريد أن أكــون ، وعرفت ــ عن طريق استخدام أوقات فراغى ، تعـــاوننى فى ذلك دروســـها والمثل الذى تقدمه ــ كيف أعطى لروحى التى كانت لا تزال بريئة جــديدة الصورة التى كانت تناسبها أكثر من غيرها والتى احتفظت بها دائما • لقد ولد فى قلبى الميل الى العزلة والتأمل مع مولد المشاعر الفياضة الحنون التى خلقت لتكون غذاء له • ان الصخب والضجيج تحصرها وتقضى عليها أما الهدوء والسلام فيبعثان فيها الحياة وينعشانها • اننى فى حاجة الى أن أعتكف كى أحب • لقد حثثت « أمـــى » (٢) الى أن تعيش فى الريف ، وكان مأوانا بيت منعزل فى سفح واد ، وهنالك ــ مدى أربع أو خمس سنوات ــ استمتعت بقرن من الحياة والهناء الصافى المطلق الذى يسبغ فتنته على كل ما لحظى الحالى من بشـــاعة • كنت فى حاجة الى صديقة توائم قلبى ، وقد كانت لى • كنت راغبا فى الريف وقد حصلت عليه • اننى لم أكن أستطيع أن أحتمل الخضوع وقد كنت حرا تماما ، وأكثر من حر ، ذلك لاننى وقد خضعت لاهوائى وحدها لم أكن أعمل سوى ماكنت أريد عمله • كان وقتى كله مفعما برعاية تزخر بالحب أو بشواغل فى الحقول • اننى لم أكن أريد شيئا سوى استمرار حالى بهذه الهناءة ، ولكن ألمى الوحيد كان الخوف من الا تستمر طويلا ، وهذا الخوف الناشىء

---

(١) فسبازيان Vespasien احد أباطرة الرومان حكم من ٦٩ ــ ٧٩ م •

(٢) لما رأى روسو مدام دوفواران غارقة فى الديون فكر فى مورد يعينها عن طريقه فوضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى بدلا من السلم الموسيقى المعتاد ثم سافر الى باريس ليعرض مشروعه على أكاديمية الفنون •

عن حرج موقفنا لم يكن بغير أساس • وقد فكرت منذ ذلك الحين لى أن امنح نفسى فى الوقت نفسه ألوانا من التسلية تلهينى عن هذا القلق ، وموارد تعيننى على تفادى أثره • لقد فكرت فى أن رصيدا من المواهب هو أكثر الموارد أمانا ضد البؤس فعزمت على أن أستغل أوقات فراغى فى اعداد نفسى لاكون قادرا ـ ان كان ذلك ممكنا ـ على أن أرد يوما من الايام الى أكرم النساء ما تقبلت منها من معونة •

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشراف الفنــى : حســن كامـــل